

بسم الله الرحمن الرحيم



३.१.२. १.९९

امارة الشريف غالب بن مسعود

فی مکہ

١٢٠٢ - ١٢٢٨ هـ الموافق ١٧٨٧ - ١٨١٢ م

.....

اعداد

سامية محمد أسعد بشاوری

نوشتن فی ۱۷/۵/۱۴۰۲ هـ الموافق ۱۳/۷/۱۹۸۲ م

" قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير "

فى قسم التاريخ - كلية الآداب

جامعة الملك سعود

$$\frac{1}{2} \frac{d}{dt} \left(\frac{1}{2} \frac{d}{dt} \right) = \frac{1}{2} \frac{d^2}{dt^2}$$


نوقشت هذه الرسالة

بتاريخ ١٤٠٢/٥/٨هـ الموافق ١٣/٣/١٩٨٢م وتم اجازتها

١
١
١
١
١

بإشراف

الأستاذ الدكتور / محمد سعيد الشعلى

اعضاء لجنة الحكم
على الرسالة

١- أ. د. محمد سعيد الشعلى

٢- أ. د. عبد الله الصالح العثيمين

٣- د. عبد اللطيف ناصر الحميدان



شكر وتقدير =.=

يسعدنى أن اتقدم بوافر الشكر والتقدير الى جامعة الملك سعود
متمثلة فى شخص مديرها الدكتور/ منصور الترى لاتاحتها لنا الفرصة
للدراست العليا ، والى استاذى المشرف الاستاذ الدكتور/ محمد سعيد
الشعفى الذى لم يبخل على بجهده ووقته ومصادره ، وكان صبورا على
اعتراضاتى حتى خرج بهذا العمل على هذه الصورة، كما اتقدم بالشكر
الجزيل الى اعضاء لجنة المناقشة لتفضلهم بقبول مناقشة هذه الرسالة
وابداء آراءهم القيمة لتسديد خطاى فى مجال البحث العلمى . والى
سعادة رئيس قسم التاريخ ، والى وكالة الدراسات العليا ، والى وكالة
مركز الدراسات الجامعية للطالبات والى وكالة قسم التاريخ على ما
أبدته من تفهم واضح ، والى وكالة قسم الجغرافيا والعاملات به ، والى
العاملين والعاملات فى مكاتب جامعة الملك سعود ، والى كل من ساعدنى
فى اعداد هذه الرسالة راجية ان يوفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه
والسلام .

الباحثة

لهرس الموضوعات

==

خطة البحث

- | | | |
|---------|---------|---|
| ٦ - ٥ | | (١) توطئة |
| ٩ - ٧ | | (٢) شروح للفصول والموضوعات التي تعرضت لها الرسالة |
| ٢٧ - ١٠ | | (٣) دراسة المصادر |

الفصل الأول

- | | | |
|---------|---------|---|
| ٢٩ - ٢٤ | | (١) الحالية السياسية في الحجاز قبل عهد الشريف |
| | | غالب بن مساعد |
| | | |
| ٤٠ - ٣٥ | | (٢) تولى الشريف غالب وقضاؤه على المشكلات الداخلية |

الفصل الثاني

انظمة الحكم :

- | | | |
|---------|---------|--|
| ٥٣ - ٤٢ | | (أ) النظام الادارى |
| ٥٩ - ٥٤ | | (ب) القضاء في عهد الشريف غالب |
| ٦٠ | | (ج) النظام الحربى لامارة الشريف غالب |
| ٦٤ - ٦٠ | | (١) القيادة |
| ٦٨ - ٦٥ | | (٢) عدد القوات |
| ٧٠ - ٦٩ | | (٣) الجيش النظامى |
| ٧٢ - ٧١ | | (٤) التحصينات واساليب الحصار |
| ٧٣ | | (٥) العيون والتجسس |

١٤١ - ١٣٤ شانيا : علاقة الشريف غالب بمصر

١٦٢ - ١٤٢ شالثا : علاقة الشريف غالب بالدولة العثمانية

الفصل السادس

علاقة الشريف بالدول الاجنبية

١٨٢ - ١٦٤ أولا : علاقته ببريطانيا

١٩٣ - ١٨٣ شانيا : علاقته بفرنسا

١٩٧ - ١٩٤ الخاتمه :

١٩٨ المخطوطات

٢٠٠ - ١٩٩ الوثائق المترجمة

٢٠٥ - ٢٠١ المراجع العربية

٢٠٧ - ٢٠٦ المصادر الاجنبية والمترجمة

٢٠٩ - ٢٠٨ الوثائق الاجنبية

٢١٥ - ٢١٠ الخرائط والمصورات

توطئة :

مكة مدينة واقعة بين شعاب الجبال ، وطول مكة من المعللة الى المسفلة أى من الشمال الى الجنوب حوالى ميلين ومن أسفل جياذ الى ظهر قعيقعان أى من الشرق الى الغرب حوالى ثلثى طولها وأبنيتها(*) من الحجارة والمسجد يقع فى نحو الوسط منها والكعبة فى وسط المسجد وباب الكعبة مرتفع عن الأرض نحو قامة^(١) وهى عبارة عن بلدة مستطيلة كبيرة ، فى بطن واد مقدس وتحيط بها الجبال كالسور ولها مع ذلك ثلاثة اسوار ، سور فى جهة الشرق يعرف بسور باب المعللة لأنه فى اعلاها ، وسور فى جهة الغرب والمدينة المنورة ، يعرف بسور باب الشبيكة ، وسور فى جهة اليمين ويعرف بسور باب اليمن وباب الماجن .

ومن الجبال المحدقة بمكة اخشابها ، وهما ابو قبيس والأحمر المقابل له وقيل ابو قبيس وقعيقعان هكذا ذكر ياقوت . وعرف أبو قبيس بالأخشب الشرقى وقعيقعان بالأخشب الغربى^(٢) . وبمكة أبنية كثيرة وعين جارية وآبار غالبها سيل ، وبرك مسلة وحمامات وكان بها ستة عشر حماما حسب ما ذكره الفاكهى^(٣) .

ونظرا لمكانة مكة الدينية لقدسيتهما الالهية التى منحها اياها البارى جل شأنه فقد كان لهذا الموقع دور هام بالنسبة لحكامها سواء من الناحية الدينية أو السياسية أو الاقتصادية ، فمنذ فجر الدعوة

(*) وهى عبارة عن قصور من الحجر ، الشريف غالب وثيقة رقم ٨٦٤٢ فى ١٩ ربيع ثانى ١٢١١ دار الملك عبدالعزيز بالرياض ، ضمن مجموعة الوثائق التركية .

(١) الإمليخيري ، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد ، مسالك الممالك ، طبع فى مطبعة لندن بمطبعة برنيل ١٩٣٧ م ، ص ١٣ .

(٢) الاخشب : الجبل الغليظ .

(٣) الفاسى ، أبو الطيب التقي محمد بن احمد الحسنى المكي : (العقد الثمين فى

تاريخ البلد الامين) القاهرة ، مطبعة السنه المحمديه ١٣٧٩-١٩٥٩) ح ٤ ص ٦٠ .

الاسلامية تعتبر مكة قبلة الشعوب المسلمة فى مشارق الأرض ومغاربها
وهى محرمة على غير المسلمين (١).

كانت مكة طوال تاريخها لا تستطيع الدفاع عن نفسها اذا أحكم
الحصار حولها ، فعندما ينقطع ما يريدها من الموارد الخارجية أى من
المناطق المجاورة كالطائف مثلا ينتابها القحط . بل ان ما كان
يعرض فيها من الطعام والفاكهة كان فى الغالب مجلوبا من المناطق
المجاورة كالطائف واليمن وجده وغيرها (٢).

وقد امتازت مكة بموقع فريد على طرق القوافل التجارية ، علاوة
على ما ذكرناه من وجود الاماكن المقدسة بها ، وعشرات الآلاف من
الحجاج الذين يقصدونها لأداء مناسك الحج وممارسة التجارة ، يجعل
مكة تحتفظ بمكانتها التجارية على مر العصور اضافة الى ذلك قربها
من ميناء جدة الذى يعتبر اهم ميناء على البحر الأحمر . وهى حارة
فى الصيف . مدينة فى واد تحيط بها الجبال من جميع النواحي (٣).

(١) دى قورى ، جيرالد : أمراء مكة (لندن ، شركة جورج ، هارب وشركاه
١٩٥١م) ، ص ١٧٧ .

(٢) ابن جبير ، محمد بن احمد : رحله ابن جبير (دار صادر ، بيروت ١٣٨٤ -
١٩٦٤م) ص ١٨٩ .

(٣) الحموى ياقوت ، شهاب الدين ابى عبدالله : معجم البلدان ، المجلد الخامس (دار
صادر ، بيروت ، ١٣٩٧ - ١٩٧٧م) ص ٤٧٥ .

شرح للفصول والموضوعات التى تعرضت لها الرسالة :

موضوع هذا البحث هو امارة الشريف غالب بن مساعد فى مكة من عام (١٢٠٢ - ١٢٢٨ هـ) من (١٧٨٧ - ١٨١٣ م) أى أن مدة حكمه استمرت ما يقرب من ستة وعشرين عاما . وقد كان لهذا الاختيار أسبابه التى أهمها :

أولا : الأهمية التاريخية التى تحتلها مكة المكرمة باعتبارها قبلة المسلمين .

ثانيا : الأهمية التاريخية لفترة امارة الشريف غالب بن مساعد الذى لعب دورا بارزا فى التاريخ السياسى للحجاز والجزيرة العربية بمفئة خاصة والدولة العثمانية بمفئة عامة .

ثالثا : ما دون من تاريخ مكة فى المراجع الاجنبية والذى أغفلته معظم الكتب العربية وهو يعتبر من الأهمية بمكان لدراسة هذه الفترة بالذات . الا أنه يجب أن انوه ان الباحث فى تاريخ هذه الفترة الزمنية لا يمكنه ان يتناول تاريخ مكة فى هذه الفترة دون التعرض للأحداث الداخلية فى الجزيرة العربية والتى تمثلت فى ظهور الدولة السعودية الأولى ومعاصرتها للشريف غالب وامتداد نفوذها الى المناطق التى كانت خاضعة لسلطانه ، كما شهدت هذه الفترة

نشاط تجارة البحر الأحمر وبالتالي قيام علاقات مع الدول المطلّة عليه أو المحيطة به . وما تمخض عن ذلك من ضرورة قيام علاقات بين كل من الشريف غالب ، والانكليز ، ثم الفرنسيين ، وقد حاولنا فى هذا البحث ان نلقى الضوء على الأمور التالية :

مكانة مكة المكرمة وقدسيتها على مدى العصور ، وما جاء عليه ذلك فى بعض المخطوطات - أهم المصادر التى عنيت بتاريخ مكة فى هذه الفترة ، وقد جاء ذلك ضمن المقدمة .

وحاولنا فى هذا البحث أن نلقى الضوء على الحالة السياسية فى الحجاز قبل عهد الشريف غالب ، ومن ثم امارة مكة فى عهد الشريف غالب فى الفصل الأول ، كما تحدثنا عن أنظمة الحكم لدى الشريف غالب فى الفصل الثانى كالنظام الادارى - القضائى - الحربى . أما الفصل الثالث فقد تحدثنا فيه عن الحالة الاقتصادية سواء من ناحية النشاط الاقتصادى أو الموارد المالية أو أوجه الصرف وغيرها . أما الفصل الرابع فقد خصصناه لدراسة الحياة الاجتماعية والثقافية فى مكة من حيث العادات المكية - الملابس - عادات الزواج

مهنة الطب - علاقة الشريف بالقبايل ، والتعليم . أما الفصل الخامس فقد تحدثنا فيه عن علاقته بالدول العربية والإسلامية وأما الفصل السادس فقد خصصناه لعلاقات الشريف غالب بكل من بريطانيا وفرنسا .

... في هذا المجال ...
... في هذا المجال ...

دراسة المصادر :

موضوع هذا البحث هو امارة الشريف غالب بن مساعد فى مكة (١٢٠٢ - ١٢٢٨) (١٧٨٧ - ١٨١٣) لأن هذه الفترة تعتبر من الأهمية بمكان اذ لعب شريفها الشريف غالب بن مساعد دورا سياسيا بارزا فى تاريخ الجزيرة العربية ، لم يقتصر على علاقته بنجد وغيرها من اقاليم الجزيرة العربية ، بل تعداه الى علاقات خارجية مع مصر وغيرها من الدول كفرنسا وبريطانيا والدولة العثمانية . لذا نرى قبل الخوض فى ذلك ان نلقى الضوء على تاريخ امارة مكة قبيل عهد الشريف غالب . وقبل الحديث عن ذلك نود أن نذكر موجزا عن مكة وعن الصعاب التى تعترض الباحث فى تاريخها . ليس غريبا ان تحظى مكة - وهى المدينة المقدسة - باهتمام الباحثين والمؤرخين قديما وحديثا . ففى ارفع بلاد الله شأن عيها وضع أول بيت للعبادة (١) أول بيت وضع للناس للذى ببكة (٢) منذ أن وضع ابراهيم عليه السلام وابنه اسماعيل قواعد هذا البيت . احتل مكانة خاصة له (٣) اثروحية قديما وحديثا وقد اهتم الباحثون بها وورد ذكرها فى المصادر اليونانية والرومانية القديمة فذكرها بطليموس الاسكندرى باسم مكورابا (٤) . ولكن بعض المؤرخين يرى أنها لا بد ان تكون أقدم عهدا من عهد هذا الجغرافى الذى عاش فى القرن الثانى بعد الميلاد . وأشار المؤرخون الكلاسيكيون الى وجود عدة مواضع فى القسم الغربى من الجزيرة كانت ذات حرمة وقدسية فى أنظار العرب وكانوا يقصدونها للتبرك بها (٥) . ومع ان هؤلاء المؤرخين لم يذكروا لنا

-
- (١) قرآن كريم ، سورة آل عمران ، الآية ٩٥ .
 (٢) الازرقى ، محمد بن احمد : اخبار مكة المشرفة - مكتبة خياط البستان ، بدون تاريخ (ج ٢ ، ص ٣٥ . بيزوت لبنان .
 (٣) الشريف ، أحمد ابراهيم : مكة والمدينة فى الجاهلية والاسلام . ط ٢ ، (دار الفكر العربى ، القاهرة) بدون تاريخ . ص ٢٠ .
 (٤) الشريف : المصدر نفسه ، ص ٦٠ .

أسماء هذه الأماكن فإنه لا يستبعد أن تكون مكة في جملة هذه الأماكن التي قصدوها . ومن المؤرخين من يرى أن تاريخها يعود الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد لأنه لم يعثر على كتابات قديمة تفصح عن اسم هذه المدينة ولا حتى عن تاريخها البعيد^(١) . وبما أن سكنى هذا الوادى يعود الى زمن ابراهيم عليه السلام وابنه اسماعيل ، فأغلب الظن أنه كان في القرن التاسع عشر قبل الميلاد^(٢) . وقد تعددت أسماء مكة المكرمة ، وقام المفسرون والمحدثون وعلماء اللغة قديما وحديثا بشرحها وتعليقها وكشف النقاب عن معانيها القريبة والبعيدة^(٣) .

وقد أورد الفاسى فى مخطوطه : (٤)

وأعلن أن الله عز وجل قد ذكر مكة فى كتابه المنزل على نبي الرحمة فى مواضع شتى فدل أنها احب البلاد الى الله تعالى وأشرف البقاع على وجه الأرض عند الله تعالى فى الدنيا . كما جاء فى مخطوط السيد/ على بن الشيخ غازى ما معناه يكفى مكة قول الله تعالى " اذ جعلنا البيت الحرام قياما للناس " وقوله تعالى .. " رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر " ^(٥) ويحسن بنا أن نشير هنا الى الصعوبات التى تعترض الباحث فى تاريخ مكة خاصة وتاريخ الجزيرة العربية بصفة عامة .

(١) على ، جواد : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، (بيروت ، ١٩٦٨)

ج ٤ ، ص ٢٠ .

(٢) زيدان ، جرجى : العرب قبل الاسلام ، (بيروت ، بدون تاريخ) ص ١٨٨ .

(٣) حافظ ، اسماعيل أحمد اسماعيل . أسماء مكة المكرمة - (مجلة الدارة - العدد

الرابع ، محرم ١٣٩٩ ، ديسمبر ١٩٧٨ م) ص ١٢٩ .

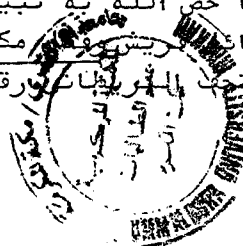
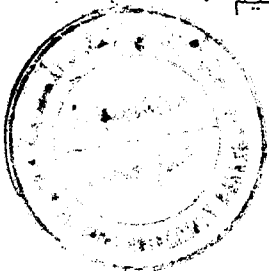
(٤) الفاسى : محمد بن احمد ، تاريخ مكة - مخطوط المتحف البريطانى ١٤٥٤ هـ - ب وهو مخطوط ومنه مؤلفه بقوله : وهذه رسالة ضمنتها ثلاثة وخمسون فصلا

ص ٥ .

(٥) العثمانى : غازى على فضل مكة : (مخطوط مكون من سبعة عشر بابا يبتدىء

بما خص الله به نبيه من المعجزات ثم من دعا لهم رسول الله ثم يذكر فضائل مكة خاصة) ، (بدون تاريخ - ٥٣ فصلا) .

المتحف البريطانى ورقم ١٦٧٤ - بدون ترقيم .



فبالرغم مما حظيت به مكة من عناية المؤرخين قديما وحديثا والرحالة الاجانب . الا ان ما دون من تاريخها لا يزال قليلا كما ان بعضه يكتنفه الغموض والايحاز ، كما في بعض المراجع العربية مع ما قد يظن من كثرتة ، الا انه ليس بالكثرة التي دون بها تاريخ الشعوب الاسلامية الاخرى او حتى الدول العربية المجاورة .

والباحث في تاريخ مكة في هذه الحقبة عليه ان يكون على علم تام بالاحداث المحلية كقيام الدولة السعودية الاولى في نجد . واتساع نفوذها حتى شمل معظم انحاء الجزيرة العربية ، فقد كان الامير سعود بذلك اكبر حاكم في الجزيرة العربية في ذلك الحين ، منذ زمن النبي صلى الله عليه وسلم (٣)

(١) حتى ، فيليب ، تاريخ العرب ط ٣ / ادوارد جرجى ، جبرائيل صمود (دار

غندور للطباعة والنشر - بيروت - ١٩٦١م) ح / ٣ : ص ٨٣٩ .

وقد فسر نجاح هذه الدولة الناشئة على أنه دليل صدق دعوتها الى العودة الى تعاليم الدين الحنيف ، ومن اجل هذا الغرض سعت الدرعية الى توحيد الجزيرة تحت لوائها^(١) ، كما أن الدارس لهذه الفترة ينبغي أن يلم بالأحداث العالمية فى تلك الفترة ، فليس بوسعه دراسة تاريخ مكة فى هذه الفترة دون الإشارة ولو بصورة موجزة الى الأحوال التى كانت سائدة فى الدولة العثمانية فى ذلك الحين من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية كما أنه لا يستطيع أن يدرس تاريخ مكة بمعزل عن اطماع نابليون واتماله بالشريف غالب ومشاريعه فى البحر الأحمر وفرض الحصار الاقتمادى على انجلترا وتعطيل تجارتها فى البحر الاحمر والهند خاصة^(٢) وقيام بريطانيا بالتصدى لنابليون وما تبع ذلك من سياسة الحفاظ على املاك الدولة العثمانية الذى يعنى المحافظة على الوجود البريطانى نفسه فى البحر الأحمر ، وبالتالى ادراك اهمية العلاقات مع الدول المطلة عليه أو المجاورة له ، كذلك لا يمكن اغفال اطماع محمد على فى الحجاز وبقية الجزيرة العربية^(٤) . ومن هنا كان لزاما علينا ان ندرس كل المصادر التى تتناول تلك الأحداث ، ونشير هنا الى بعض المصادر التى استفدنا منها .

-
- (١) حَتْمِي : المصدر السابق ، ص ٨٣٩ .
- (٢) ثورن ، جون : تاريخ بريطانيا (لندن ، لوكير روجر ، ١٩٦٤) ، ص ٤١٦ .
- (٣) عبدالرحيم ، عبدالرحمن عبدالرحيم : محمد على وشبه الجزيرة العربية (دار الكتاب الجامعى ، القاهرة ١٩٨١م) ج ٢ ، ص ١ .
- (٤) البطريق ، عبدالحميد : بحث محمد على ومشروع غزو العراق (مجلة كلية الآداب ، الجامعة الأردنية ، المجلد الأول ، العدد الأول كانون الثانى ١٩٦٩م) ، ص ٥٤ .

وقد اختلفت دراسة المصادر التي تناولت هذه الفترة بين عربية وأجنبية ومن هذه المصادر ما هو مخطوط وما هو مطبوع . ونشير هنا الى بعضها وفق الترتيب التالي :

أولا : المخطوطات :

(١) افادة الانام بأخبار بلد الله الحرام الشيخ غازي عبد الله محمد من أهم المصادر لتاريخ

منطقة مكة في هذه الحقبة من الزمن فهو يعنى بذكر دولة الأشراف ، وتوجد نبذة منه في المكتبة المركزية للطالبات بالرياض وهو عبارة عن مخطوط داخل شريط مصور عدد أوراقه تسعة عشر مقاسه ٢٢ x ١٧ ، الرقم العام ٧٨٢ ونسخته هذه نسخة حديثة الاجزاء العليا منها يعلوها تآكل بسيط وفي أوله فهرس بالمحتويات وتاريخ تصويره ١٣٩٦/٧/٦ هـ والموجودة منه نسخة عبارة عن نبذة من المخطوط وليس المخطوط بكامله ويبتدىء الفهرس بذكر سكان مكة بعد انتشار الاسلام أسرة أسرة ثم يبدأ المخطوط بقول بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى أفاض على عباده النعم وأسبل ستره على من أساء منهم بمحض الكرم والصلاة والسلام على رسوله سيدنا ومولانا محمد المفخم وعلى آله وأصحابه الذين هم ينابيع الحكم أما بعد فهذه نبذة اقتطعت من افادة الانام بذكر أخبار البلد الحرام ، والمخطوط مـتـبـدـون بخط الرقعة وهو عبارته عن

شريط ميكروفيلم والصفحات الأولى منه يعلوها تآكل بسيط وأسلوب يميل إلى السجع والقصص الدينية القصيرة للعبارة ، وهو يسير على طريقة الحوليات وهو مهم بالنسبة لهذه الفترة ، لأنه يعرض إلى موضوعات تدخل ضمن نطاق البحث مثل القبض على الشريف عبدالله بن سرور وحبسه ، وحصار الطائف على يد المضائق ، مراسلات الشريف مع الأمير سعود في التاسع شوال مع عبد له يقال له ثقال^(١).

وهو يعتبر سجلا لتاريخ الأشراف في هذه الفترة بالذات ، إلا أنه لا يظهر تحيزا لطرف دون آخر حسب الجزء الذي اطلعنا عليه .

ويجب أن أشير هنا إلى أن هذه المعلومات لا تعطى تفصيلات دقيقة وكاملة من الموضوعات التي تناولتها هذه المخطوطة ، وذلك لتعذر الاطلاع على كامل المخطوط ، والجزء المصور منه ~~مبـ~~دون بخط الرقعة ، وأسلوب المخطوط سهل لا يخلو من بعض السجع أحيانا وهو يقدم لنا شرحا عن الأشراف ثم الشيخ أحمد تركي وكذلك عن شخصية المؤلف الشيخ الدحلان .

(١) وهو يتفق في ذلك مع دحلان في تحديد ذلك بتاسع شوال مع عبد يقال له ثقال .

(٢) أشراف وأمراء مكة : لعبد الشكور عبدالله بن محمد (*) وهو عبارة عن جزئين : الجزء الأول منه ويسمى الجواهر الثمينة فى محاسن المدينة ، أما الجزء الثانى فهو أشراف وأمراء مكة ، وقد دون سنة ١٢١٧هـ ، وهو يخلو من الترقيم ، ويتحدث عن دخول الحجاز تحت حكم العثمانيين أهمية جراية القمح للحجاز .

أما المواضيع الهامة التى تناولها المخطوط والتى تدخل ضمن صلب موضوع الرسالة فهى كالاتى :

ذكر نسب الشريف غالب بن مساعد بن سعيد الحسنى المكى وقيام الدولة السعودية الأولى ثم حروب الشريف غالب مع الدولة السعودية الأولى .

الاتفاق الذى تم بين كل من الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب (**).

كما يتحدث عن الأشراف وصلتهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الشريف محمد بن عبدالمعين بن عون ، ويفيد بأنه

واضع قوانين الأشراف المأخوذ بها الى اليوم أى زمنهم وقد حكم فى القرن العاشر الهجرى ، وأشراف مكة والمدينة ، ويفيد بأنه يوجد بين الأشراف الذين يسكنون مكة والمدينة من هم من أدارسة المغرب وهم حسينيون ، كما جاء على ذكر نقيب السادة فى كل من مكة والمدينة ، وبعض الأسر المكية كأسرة الطبرى مثلاً . تحدث عن أصل الشيخ أحمد تركى ونشأته بمكة ومساعدته محمد على فى القبض على الشريف غالب وقد وردت ترجمة للشيخ أحمد تركى ضمن الرسالة ، كما يتحدث عن الشيخ الدحلان وغيره من أهل مكة .

ولا يتضح من سياق الأحداث تحيزه لطرف دون آخر ، وهو يسير على طريقة الحوليات ومدون بخط الرقعة .

ثانيا : الكتب المطبوعة :

(١) خلاصة الكلام في بيان امراء البلد الحرام لدحلان (*) وهو يعتبر من اهم المراجع لدراسة تاريخ مكة المكرمة وتاريخ الاشراف .

(*) دحلان : احمد زينى ، خلاصة الكلام في بيان امراء البلد الحرام ، (المطبعة الخيرية - مصر ١٣٠٥ هـ) .

ويبتدىء الكتاب بالمقدمة وفيها تعريف بالتاريخ واهميته وتدوين
الحوادث ، ثم يتناول الموضوعات التالية :

تاريخ مكة منذ فتحها الى خلافة عمر بن الخطاب و ثم يسرد تاريخه
ابتداءً من دخول عام ١١٢١ ثم ١٢٢٢ وهكذا الى سنة ١٢٢٣ هـ . الى
ان يصل الى الشريف سرور من بعده الشريف غالب وقد سار في كتابه على
طريقة الحوليات والشخصيات فهو بعد ذكر اسم الشريف والسنة
التي ولى فيها ثم يبدأ بتعديد غزواته الواحدة تلو الاخرى واهم الاعمال
التي قام بها والفتن التي حدثت في عهده وبالنسبة للشريف غالب
فقد اسهب الدحلان في ذكر وقعاته مع الدولة السعودية الاولى وهو يعتبرها
سته وخمسين موقعة الا انه لم يذكر عدد الجنود في كل موقعة ولا عدد الخيل
ولا مؤونة الجهاد فيقول وهذا شيء كثير او ارسل عددا من الجند يصعب
ذكر عدده ومن خلال حديثه عن ما دار من نزاع ونزال بين الدولة السعودية
الاولى والشريف غالب يظهر تحيزه الى جانب الشريف غالب . ويشير الى الاشراف
بعد الشريف غالب واحدا تلو الاخر حتى يصل الى الشريف الحسن بن علي
وامارته في مكة . وقد جاء على ذكر مجيء محمد علي الى الحجاز وسرد الحوادث
التي صدرت منه سواء في الحجاز او نجد . كذلك حملات ابراهيم باشا وحكم
المصريين للحجاز : والكتاب يعتبر مصدرا هاما لدراسة تاريخ الاشراف
في هذه الحقبة ، بل يعتبر الكتاب الاول لدراسة تاريخ هذه المنطقة

(١)

ومن بين المصادر المهمة " كتاب ابن غنّام "

وهو عبارة عن جزئين ، وقد قسم المؤلف الجزء الأول منه الى مقدمة تحدث فيها عن أهمية الايمان بالله والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قسم كتابه الى خمسة فصول ، فقد تحدث فى الفصل الأول عن الأوضاع الدينية المتردية التى كانت سائدة فى كل من نجد والحجاز والأحساء وعودة الناس الى الشرك بالله والتوكل الى الأولياء فمثلا فى بليدة الفدا كان هناك نخل معروف بالفحال يأتية الرجال والنسوة للتبرك به ، وما كان يفعل فى الحرم المكى الشريف حيث تنتهي الحرمات والحدود ، وما يفعل عند قبة ابي طالب وغيره كثير فى الطائف وما يفعل عند قبر الرسول عليه الصلاة والسلام من الأمور المحرمة العظام كتعفير الخدود وما يفعل فى جدة عند قبر حواء ، وغير ذلك كثير . ثم يتحدث الكاتب فى الفصل الثانى عن نسب الشيخ محمد بن عبد الوهاب ونشأته وما أتمم به من صفات حسنة ورحلاته فى طلب العلم وما تعرض له الشيخ من الأذى فى سبيل ما كان يدعو اليه وهو العودة الى الدين الصحيح كما جاء به النبى محمد صلى الله عليه وسلم وقد جوى هذا الفصل العديد من الأحاديث النبوية الشريفة وأبيات كثيرة من الشعر ثم تحدث فى الخاتمة عن وفاته رحمه الله ، ورسائله الى

(١) حسين ، روضة الأفكار والأفهام لمرتاب حال الامام وتعداد غزوات ذوى الاسلام
(الرياض ، ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩) طبع الكتاب على نفقة الشيخ عبد المحسن
ابن عثمان البابطين .

حاكم الاحساء ورسائل أخرى لعامة المسلمين ثم يختم الجزء الأول
بعرض اجابة المسائل التي وجهت الى الشيخ واجابته عليها وشرحه
لبعض سور القرآن الكريم كسورة هود والبقرة .

أما الجزء الثانى فقد بدأه بذكر خروج الشيخ الى الدرعية
ومن ثم الاتفاق بين كل من الامام محمد بن سعود والشيخ محمد بن
عبد الوهاب ، وما تلا ذلك من غزوات ضد دهام بن دواس وتعدد الغزوات
بعد ذلك وشرح أنواع الشرك ، وما يهمنا هنا هو ابتداء من صفحة ١٧١ حيث
يذكر المؤلف بعض المعارك التى دارت بين كل من السعوديين والشرىف
غالب ، كما ذكر المناظرة التى تمت بين كل من الموحدين والعلماء
والمسائل التى عرضت فى تلك المناظرة والاجابة عليها . كما ذكر
معركة بيشة وما أسفرت عنه من الآثار السيئة بالنسبة للشرىف غالب
وهو يقف بالأحداث عند هذا التاريخ ولا نعرف لذلك سببا والكتاب يمثل
مصدرا هاما لهذه الفترة لاحتوائه بعض المعلومات عن المعارك ، كذلك
الأمور التى اختلف عليها الموحدون وعلماء مكة وهو يسير بطريقة
الحوليات ، فمثلا يقول ثم دخلت السنة الثانية عشرة بعد المائتين
والألف . وفيها أظهر الشرىف غالب العداوة والكتاب لا يخلو
من شىء كثير من الشعر وهو يمثل وجهة نظر الموحدين .

(٢) كتاب، بن بشر المؤرخ النجدي (١) المعاصر، عنوان المجد في تاريخ نجد، وقد طبعته مكتبة الرياض الحديثة والكتاب يشتمل على الاحداث التي مرت على نجد خلال حقبة هامة من تاريخها وهو فــــي جزأين الاول يتناول فيه المؤلف سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب حيث يبدأ حوادثه من سنة (١١٥٨ هـ - ١٧٤٥م) اى منذ اتفاق الدرعية بين كل من الامام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب وينتهى بنهاية حوادث عام ١٢٣٧ هـ . اما الجزء الثانى فينتهى عند سنة (١٢٦٧ - ١٨٥٠) وهو يسير على طريقة الحوليات، ولا يخلو من السجع ويعتبر الكتاب مصدرا هاما لدراسة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

(١) عثمان بن بشر من روءساء قبيلة بنى زيد المعروفة في بلد شقراة من بنى تميم بلدان الوشم، له عدة مؤلفات منها : سهيل في ذكر الخيل في مجلد - وكتاب الاشارة في معرفة منازل السبعة السيارة عدة كراريس - ورسالة في الحساب مرشد الخصائص مبدأ النقائص في الطفيليين - وفهرس طبقات الحنابلة لابن رجب - وعنوان المجد توفى سنة ١٢٨٨ هـ .

وتقع أهمية ابن بشر في انه يعتبر سجلا هاما للدولة السعودية الاولى
والثانية .

(٤) رسالة الدكتور /البطريق، عبد الحميد^(١) وهي بعنوان الحكم التركي
والمصرى في البلاد العربية من ١٨١٠ - ١٨٤٠ وقد قسمها الكاتب الى اثني
عشر فصلا تحدث في الفصول من الاول الى الرابع عن الجزيرة العربية
تحت السيادة العثمانية وكيفية وصول العثمانيين للحجاز وعلاقتهم
بأشراف مكة ، ثم تحدث في الفصل الرابع عن الاستعداد السابق لغزو محمد
على الجزيرة العربية وبالطبع فقد تحدث عن قيام محمد على في حكم مصر
وما كان له من دوافع ومقدمات ، اما الفصل الخامس فقد اوضح فيه
الكاتب تأسيس الحكم المصري في الجزيرة العربية ، كما تحدث في
الفصل السادس عن الحكم المصري في كل من الحجاز ونجد ثم عرض في
الفصول الباقية الى الاوضاع في كل من نجد والحجاز وتدخل العثمانيين
لاستعادة سيطرتهم في الحجاز من محمد على .
والرسالة لا تفيد كثيرا لموضوع بحثنا الا انها قد تعرضت لعلاقة الشريف
غالب بمحمد على كما انها جاءت بعد الفترة التي نحن بصددتها وتكمن
اهميتها في كونها قد اوردت بعض المراجع الهامة للباحث في تاريخ مكة
في هذه الحقبة مثل كتب بوكارت وداوتى وغيره من المؤرخين الاجانب .

(١) عبد الحميد رسالة دكتوراه قدمت الى جامعة لندن سنة ١٩٤٧ م .

٥) رسالة الماجستير الخاصة بالمقصر^(١) وهي بعنوان العلاقة السياسية لاشراف مكة بنجد في النصف الاول من القرن الثالث عشر الهجرى والتاسع عشر الميلادى في الفترة من ١٢٠٥ - ١٢٣٥ والرسالة مقسمة الى مقدمه وخمسة فصول وخاتمه وقد تحدث الباحث في الفصل الاول عن الوضع السياسى في كل من الحجاز ونجد قبيل القرن الثالث عشر اما الفصل الثانى فقد خصه الباحث للعوامل المباشرة وغير المباشرة التى كان لها اثر كبير في ظهور العلاقات السياسية الجديده بين كل من الاشراف في الحجاز ونجد . اما الفصل الثالث فقد تحدث فيه عن السمة البارزة لهذه العلاقات والتي اتخذت طابعا عدائيا منذ البداية اما الفصل الرابع والذي يعتبر اهم المراحل حيث استطاعت حكومة نجد ان تقلب الوضع لصالحها بل وتدخل الحجاز ضمن سيطرتها اما الفصل الخامس فقد تحدث فيه الباحث عن العوامل التى كانت وراء ظهور هذه المرحلة وقد اشار فيها الى علاقة العثمانيين بنجد والرسالة تعتبر عملا جيدا الا ان الباحث حين تحدث عن المصادر المهمة كابن غنام وابن بشر يذكر بان الباحثين قد كتبوا عن هذين الكتابين بما فيه الكفاية دون ذكر اسم المرجع على الاقل ، كما ان ما رجع اليه من الكتب الاجنبية يعتبر قليلا نظرا لكثرة مادون عن هذه الفترة وهو يرد ذلك لعدم المامه باللغة الانجليزية ، كما ان اهم ما يلاحظ على الرسالة هو عدم الاهتمام بالهوامش مما قد يعطى الباحث احساسا بأن هذه الامور غيرهامه فمثلا صفحه ١ : ابن كثير البداية والنهاية د / ٨ صفحه ١٥١ وفي صفحه ٢ احمد السباعى تاريخ مكة د / ١ صفحه ١٥٦ ، العمامى سمط النجوم ، حمد الجاسر وفي صفحه ٤٩ عقيلان لم اجد مكان بهذا الاسم وغيره كثير .

(١) صالح بن حمد قدمت الى جامعة الامام محمد بن سعود الاسلاميه عام ١٣٩٨ - ١٩٧٨ م .

المراجع الأجنبية :

- (١) لقد كتب بوكارت^(١) عدة كتب عن الجزيرة العربية ويعتبر كتابه رحلات في البلاد العربية (Travels in Arabia) أهم المصادر باللغة الانكليزية في دراسة تاريخ هذه الحقبة من الزمن وهى القرن الثامن عشر وحتى نهاية القرن التاسع عشر، فقد قام بوكارت برحلة الى كل من مصر والشام ومن بعدها الحجاز وقد دُون كتابه هذا بعد اقامة ليست بالقصيرة في مكة وكانت له قبل ذلك زيارات الى دمشق ومصر ، مما جعله في موقف الملم بالأحداث المحيطة بمنطقة الحجاز ، ولذلك نراه حين يتحدث عن منطقة معينة كمكة مثلا أو جدة يقارن بينها وبين الشام ، ومصر وقد طبع كتابه هذا عدة مرات ويعتبر من المراجع البالغة الأهمية فى دراسة هذه الفترة وتاريخ هذه المنطقة فى تلك الحقبة من الزمن وقد ضمن كتابه ما عرفه عن الحجاز منذ وصوله الى جدة . ثم الى مكة ، ووصف مكة من ناحية الطقس والمناخ ، ووصف الكعبة المشرفة وشرح الطريقة التى بنى بها بيت الله الحرام منذ عهد ابراهيم عليه السلام ، وبعض المناطق أو الاماكن الأثرية المقدسة المحيطة بمكة ، والنشاط الاقتصادى الذى كان سائدا فى مكة زمن الاشراف ثم تعرض لحكومة مكة فذكر الاشراف منذ سرور وغالب وان يكن جل اهتمامه قد تركز على الشريف غالب من حيث منزله وطريقة تعامله مع القبائل وقيادته واسلوبه فى الحكم ومماهراته للقبائل والأهم من ذلك كله الاهتمام الكبير بالتجارة وتنمية مواردها لدى الشريف

(١) جون لويس ، رحلات في العربية ، (لندن ، هنرى كولپرن ١٩٢٩) .

غالب وأسهب فى ذكر حروبه مع الدولة السعودية الأولى وما تمخض عن استعانة غالب بمصر من نتائج ، وكتابه يعتبر المصدر الأول فى اللغة الانكليزية للباحث فى تاريخ مكة فى هذه الفترة .

(٢) ومن بين المصادر الأجنبية المهمة كتاب دى قورى^(١) تاريخ حكام مكة منذ فجر الاسلام حتى الشريف حسين وما يهمنى هنا هو الإشارة الى الفترة التاريخية الخاصة بموضوع دراستنا وهى كالتالى من صفحة ٢٢٥ - ٢٨٥ وهى عن الشريف سرور ، وأخيه غالب بن مساعد - وحروبه مع الدولة السعودية الأولى - علاقات الشريف غالب الخارجية سواء منها السياسية أو الاقتصادية - علاقته بالانكليز - حذر الأشراف من ظهور أى قوة فى الجزيرة العربية علاقة الشريف غالب بكل من المصريين والأتراك .

(٣) يعتبر كتاب^(٢) هر جرونج مكة فى نهاية القرن التاسع عشر من بين المراجع المهمة للباحث فى تاريخ مكة فى هذه الحقبة من الزمن فهو يعنى أولاً بسرد الحياة اليومية فى مكة ويوضح دور كبار التجار فى مكة فى التجارة واهتمام أهالى مكة وجدة بها ، وهو يذكر تاريخ مكة منذ ما قبل الأسم وبعده وهو يذكر الحياة اليومية فى مكة بشئ من الاسهاب وان كان يسخر من بعض الأمور الدينية ، كالطواف مثلاً فى الفصل الأول والثانى . أما الفصل الثالث فقد أوقفه صاحبه على الحديث عن التعليم فى مكة - الفصل الرابع ، فقد شرح فيه المؤلف كثيراً عن الجاوة

(١) جيرالد

(٢) سنوك

ورغم أنه لا يضع عناويننا لحديثه عن الأشراف فقد تحدث عن كل من الشريف سرور وغالب ، والأحداث التي شذت في المنطقة أي عن الفترة التي نحن بمددها وهي منطقة الحجاز في تلك الآونة وما وصل إليه كل من الشريف سرور وغالب .

كما أشير هنا الى أن هذه المصادر قد ذكرت باللغة العربية في الهوامش بينما دوت بلغتها الأصلية في الفهرس .

اما المصادر الاجنبية فقد دوت باللغة العربية بينما كتبت باللغة الانكليزية في نهاية الرسالة .

العمل الأول

==

الحالة السياسية لامارة مكة قبل عهد الشريف غالب بن مساعد

==*==

كانت مكة تحت حكم عمال الخلفاء حتى سنة ٣٥٨ / ٩٦٨ م ثم انتزعتها
الاشراف الحسينيون حيث يذكر بعض المؤرخين أن أول من حكم مكة من الأشراف
هو جعفر بن محمد بن الحسن بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبدالله بن موسى
ابن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب (١) . الذي استقل بامارة مكة
عام ٣٥٨ / ٩٦٨ م وهذا التاريخ الذي ذهب اليه الدحلان ، وقد تناوب حكم
الأسر الشريفة على مكة بعدئذ حيث حكم مكة خلال عشرة قرون ابتداءً من
٣٥٨ هـ الموسويون والسليمانيون والهواشم من (٣٥٨ - ٥٣٨ / ٩٦٨ - ١١٤٣ م ،
ثم قتاده (٣) وبنوه من ٥٩٨ - ١٣٤٣ هـ - ١٢٠١ - ١٩٢٤ م .

وعلى كل فان الشريف قتاده قد أخضع لسلطانه كافة الأراضى الحجازية
من خيبر شمالاً حتى القنفذة (٤) جنوباً وقد بلغت قوة الاشراف ذروتها فى عهد

(١) الفاسى - المصدر السابق ج ٢ ص ٦٠ - ٦١

(٢) هذه هى السنة التى سقطت فيها مصر فى يد الفاطميين

(٣) قتاده ابن ادريس هو من ذرية ادريس الذى هاجر الى المغرب زمن الهادى
العباسى بعد وقعة فخ الموضع المعروف عند أهل مكة اليوم بالشهداء
لاستشهاد جماعة فيه من آل البيت ودفنهم فيه - مخطوط افادة الأنعام
للشيخ غازى عبدالله .

(٤) حمزه ، فؤاد : قلب جزيرة العرب (المطبعة السلفية - القاهرة ١٣٥٢)

الشریف أبو نمى ٩٣٢هـ - ١٥٢٥م . الذى وضع قانونا (*) عرف باسمه فيما بعد (١) . وقد تعاقبت على منصب الشرافة فى مكة ثلاث أسر من عائلة أبى نمى وهم ذوو بركات وذوو زيد وذووعون . فقد حكمت الأسرة الأولى منها مكة حوالى قرن من الزمان ثم نافسهم ذوو زيد حوالى عام ١٠٩٠هـ - ١٦٧٩م وبقى منصب الامارة ينتقل من ذوى زيد الى ذوى بركات حتى استطاع ذوو زيد أن يستقلوا به دون آل بركات حيث بقى الأمر بأيديهم الى حين فتح محمد على للحجاز (٢) ونظرا لما يجلبه منصب الشرافة من أموال وهدايا ، فان ذلك أدى الى قيام منافسات عائلية شديدة خاصة فى العهد العثمانى ، فالعثمانيون منذ اعلان مكة التبعية لهم لم يبدو أى محاولة لتغيير نظام الشرافة الذى كان عليه منذ عهد المماليك باستثناء صنجقية عثمانية فى جدة يتولاها أحد الحكام أو الأمراء (٣) .

وفى الواقع لم يكن الصراع داخل الحجاز قاصرا على الأشراف بل تعداه الى الخلاف مع الولاة العثمانيين حول واردات جمرك جدة خاصة بعد

(*) قانون أبى نمى مكون من ستة وثلاثين مادة من بينها أن تكون الشرافة وراثية فى البيت الهاشمى كما منع الأشراف من مزاولة المهن المختلفة كالصناعة ، والتجارة ، وغيرها ، كما ميزت الأشراف كطبقة لها مميزات معينة وليست كغيرها . كما حرمت على الشعب عدم اطاعة الشريف ، ويذكر صاحب كتاب ماضى الحجاز وحاضره بأنه توجد نسخة من هذا القانون لدى الأشراف .

(١) نصيف ، حسين محمد : ماضى الحجاز وحاضره . (مطبعة خضير ، مصر ١٣٤٩هـ) .

٧٠٥ .

(٢) حمزه ، المصدر السابق ص ٣٠٧ .

(٣) السباعى - احمد ، تاريخ مكة . (مطابع دار قريش ١٣٨٩هـ مكة) ج ١ ، ص ٢/٢

٤٧١ .

نشاط التجارة على البحر الأحمر ونصيب الأشراف من تلك الواردات (١) . وقد عمل الولاة العثمانيون من جانبهم على اذكاء روح التفرقة والعنصرية التى توءدى بدورها الى قيام الصراع بين الأشراف أنفسهم حتى يتمكن الوالى العثمانى من السيطرة عليهم جميعا ، مما يجعل السلطان العثمانى يضع ثقته فى هؤلاء الحكام ويحاول من جانبه المحافظة على ابقاء هؤلاء الولاة فى مناصبهم أكبر وقت ممكن (٢) . الا أنه منذ شغلت الدولة العثمانية بالفتن الداخلية والحروب لم يعد يهتمها سوى بقاء الاعتبار الدينى لزعامتهم للمسلمين ، ودوام ارسال المحامل السنوية من العراق والشام ومصر ، وارسال الصدقات السنوية الى اهالى الحرمين ، وفى حالة تأخرها يرسل الشريف خطابا مملوءا بالدعاء للخليفة شارحا احوال الحرمين الشريفين حتى تأتية الصرة ، كما حدث مع الشريف غالب بن مساعد (٣) الذى أخذ يستحث السلطان فى الاسراع فى ارسال تلك الصرة . أما بقية الأمور فقد تركها العثمانيون فى أيدي الأمراء المحليين ، ما عدا احتفاظهم بوظائف معينة كوظيفة القاضى والمحتسب وقائم مقام صنجدية جدة والذى كان بحكم عمله يقيم فى جدة ، ولم ينتقل الى مكة الا فى العهد العثمانى الثانى ، وكانت قوة صنجدية جدة أو قائم مقام جدة تتعلق بشخصية الشريف نفسه ، اذ كان باستطاعته أن يستولى على جميع دخل البلاد الحجازية كلها (٤) فى حالة اذا كان الشريف سالما ، أو ضعيفا

(١) السباعى، المصدر السابق ج ٢/ ص ٤٧١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٤٥ .

(٣) وثيقة رقم ٨٦٤٢ فى ١٩ ربيع ثانى ١٢١١ دارة الملك عبد العزيز -

الرياض .
(٤) الانصارى ، عبد القدوس ، تاريخ مدينة جدة ، مطابع الامفهانى (١٣٠٢ هـ ،

١٩٦٣ م) ص ١٧١ .

الا أن الأشراف المشهورين بقوة الشخصية كانوا يتجاهلون سلطة هذا القائم مقام
كما يتجاهلون سلطة الدولة العثمانية نفسها .

ومنذ عام (١٠٤٠ - ١٦٣٠) أصبح دخل البلاد من مواسم الحج والضرائب
قسمة بين الأشراف والحكومة العثمانية مقابل قيام الأخيرة بشئون الحج
وعماره الحرمين ، وقد لاحت بوادر استقلال الأشراف التي أخذت تنمو وتزدهر
بعد ازدياد موارد الثروة الخارجية والهدايا التي أصبحت تصل من الهند
والمغرب للشريف مباشرة (١) . كما كان الأشراف من ذوى زيد قادريين على
تكوين سياسة شعبية قائمة على أساس مناصرة الفقراء ضد الأغنياء (٢) ومهما
يكن من أمر فقد تأرجح المؤرخون بين مؤيد للأشراف كالدحلان . ومتحامل
لما كان يدور بينهم من العداوة حتى بلغ الأمر أن يقتل الأخ أخاه وقريبه
فى سبيل الامارة (٣) ، كما يصفهم البعض بأنهم كانوا أبعد ما يكونون عن
أخلاق الرسول وسيرته (٤) .

حكم الشريف يعتمد على القوة أو التأثير الشخصى عن طريق نفوذ
أسر الأشراف يتولى منصبه بعد أن تملأه خلعة الشرافة مع من يختاره
السلطان لحملها اليه ويعتبر نفسه نائبا عن الباشا فى الدولة العثمانية .

(١) دى قورى ، المصدر السابق ص ١٢٥ .

(٢) هوقارت ، ديفيد : الحجاز قبل الحرب العالميه الاولى (لندن ١٩٧١) ، ص ٦٧ .

(٣) ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ٧٥ .

(٤) باشا ، رفعت ابراهيم : مرآة الحرمين ، (القاهرة ١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م) ص ١٢٢ .

ولكن ترى ماذا كانت علامة الامارة ؟ .. وكانت علامة الامارة هـى ان يرتدى الشريف خلعة خاصة به ترده من دار السلطنة كتلك التى وصلت عام ١٠١٢ - ١٦٠٣ يحملها الامير حسين حسين الشير (١) بدلى حسين مرفقا بها خلعا ثلاث ، لبس الشريف ادريس الخلعة الاولى الكبيرة وهى مزينة بالفرو والسمور وتحتها خلعة منفصلة كالبطانة ، وهاتان تعتبران خلعة واحده ولبس الشريف محسن خلعة بدون فرو ولبس السيد فهد خلعة كذلك بدون فرو .

كما اصطف الاشراف في المكان المخصص لارتداء الخلعة وكانت العادة ان يحضر كل من امير الحج الشامى والمصرى خلعة ويقوم الشريف بخلع خلعة الامير المصرى ويلبس خلعة الامير الشامى ويكون ذلك في احتفال كبير يشبه العرض العسكرى لظهار مكانة الشريف (٢) . وقد بقى هذا الحال متبعا الى عهد الشريف غالب بن مساعد سنة (١٢٠٢ - ١٧٨٧) حيث وصلت الخلعة فلبسها في الحظيم ومنح اصحاب الرتب كل منهم رتبته . (٣)

ويعتقد بأن الشريف سرور بن مساعد كان اقوى الاشراف في القرن الثامن عشر ، فقد حكم من (١١٨٦ - ١٢٠٣) (١٧٧٢ - ١٧٨٨ م) وهو اول من اخضع الاشراف واساس قيادتهم وانجز حكما عادلا في مكة (٥) .

(١) العصامى عبد الملك بن حسين : سمط النجوم العوالى في انباء الاوائل والتوالى ،

(القاهرة) المطبعة السلفية ١٣٧٩هـ ص ٢٠٨ - ٢١٤ .

(٢) العصامى - المصدر نفسه ، ج ٤ . ص ١٥٠ .

(٣) دحلان - المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .

(٤) هوقارت ، بلاد العرب ، (اكسفورد ، لندن ١٩٢٢م) ص ١٣٠ .

(٥) وهبه ، حافظ ، جزيرة العرب في القرن العشرين ط ٥ (مطبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٨٧ ، ١٩٦٧) ص ٥٠ .

وبقى الحجاز خاضعا للدولة العثمانية حتى مجيء الدولة السعودية الاولى (١) (*) التي استطاعت انتزاع الحجاز من حوزة الدولة العثمانية . كما وافقت الدولة العثمانية من جانبها على الابقاء على حكم الاشراف في الحجاز ، وظل الاشراف يتعاقبون الحكم جريا على عاداتهم أميرا بعد امير ، واعتبر السلطان العثماني حامى المسلمين في مشـرق الارض ومغاربها . (٢) (٣)

(١) عبد الرحيم ، عبد الرحمن ، عبد الرحيم الدولة السعودية الاولى

((دار الكتاب الجامعى القايره ١٩٧٩)) ص ١٢١ .

(*) وكانت الدولة العثمانية في ذلك الحين تسعى جاهدة على تقوية جيشها في هذه المناطق - جودت - المصدر نفسه ، ج/٧ ، ص ١٢ . وقد اخذت هذه المعلومات من معوزات باللغة العربية لهذا الحزء .

(٢) زين ، زين العلاقات التركيه العربيه (مكتبة خياط ، بيروت ١٩٥٨) ص ١٤ .

(٣) تاريخ العلاقات التركيه العربيه ح ١ صفحہ ٦٤٦ وثائق وزارة الخارجية البريطانية وهى باللغة الانكليزية .

تولى الشريف غالب الاماره وقضاؤه على المشكلات الداخليه

١٢٠٢ - ١٧٨٧

وقد أرسلت أخبار وفاة الشريف سرور فى جمادى الآخرة - ٢ أبريل ١٧٨٨م الى مصر يطلبون تعيين الشريف غالب بدلا عنه . وقد أجيب طلبهم وجاءته خلعة الشرافة فى التاسع والعشرين من ذى القعدة، وكذلك الفرمان السلطانى ، فدخل مكة فى موكب عظيم وارتدى الخلعة فى احتفال عام كالعادة بعد أن تمت قراءة فرمان التولية بالحطيم وألبس الأشراف وأصحاب الرتب والمناصب كل ما هو مختص به وقد استمر الاحتفال مدة ثلاثة أيام. (١)

وكان الأشراف قبل هذا العهد لا يقبلون بمثل هذا الاجراء ، بل تتم تولية الشريف ثم يكتبون الى دار السلطنة فيأتيهم الأمر بالتأييد لذلك . ولكن بعد القرن الحادى عشر تغير الوضع اذ اصبحت العادة أن يولى الشريف ثم ينتظروا الأمر بتعيينه أو بتعيين غيره مكانه وأصبحت للوالى التركى أمر الوكالة حتى يمل تعيين من يختار مكانه للامارة. (٢) لأن أمير مكة قبل ذلك يتمتع فى التشرifications بأسمى مقام ، فى صف " الصدر الأعظم " فى الاستانة " الخديوى " فى مصر. (٣)

(١) دحلان - المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .

(٢) السباعي ، المصدر السابق ، ص ٢٨ .

(٣) الحصرى ، ساطع : البلاد العربية والدولة العثمانية (طبعة موسعة ، بيروت

ط/٣ ١٩٦٥) ص ٢٤١ .

ويعتبر غالب من أشهر الأشراف الذين حكموا مكة ، ولا يقابله فى الشهرة سوى الشريف أبا نمى ، وقد ذاع صيته وعلا شأنه فقد عاصرت فترة حكمه احداث هامه وهى :

- ضرب الفرنسيين لميناء الاسكندرية .
- قيام محمد على فى أمر مصر وطموحه لضم سائر البلاد العربية لحكمه لتكوين حكم وراثى له ولابنائهم .
- التفات الانكليز الى أهمية البحر الأحمر وبالتالي أهمية العلاقة مع الدول الواقعة عليه نتيجة لنشاط تجارتهم مع الهند .

وقد واجهته فى بداية حكمه مسألة مناهضة اخوانه له الذين خرجوا ليلا وتوجهوا بابنائهم الى جبال هذيل^(١) وبعد أن تغيبوا لمدة ثمانية أيام جاءوا بهذيل اليمن والشام ، وتحصنوا بجبال المفجر فقاتلهم بمن عنده من الجند ، وبعد حصوله على مساعدة يسيرة من أمير الحج الشامى التقى بهم فى ١٩ ذى القعدة واستطاع ان ينتصر عليهم ، الا أنهم اتجهوا نحو الطائف وتحاربوا مع وكيله بالطائف فهزمهم ، فتحصنوا بحصن فى العقيق^(٢) ثم يمموا

(١) انظر خريطة مكة المكرمة . ص ٢١٤ .

(٢) العقيق : هناك اماكن كثيرة تعرف بهذا الاسم ، والمقصود بهذا وادى قرب الطائف ينحدر ميله الى غور تهامه ، وهو يتصل بعقيق المدينة ، انظر الحموى ، معجم البلدان - المصدر السابق ، ج/٤ ص - ص ١٣٩ - ١٤٠ .

وجوهم نحو بسل حيث أقاموا بها أياما ، لمعاودة الكرة فى قتاله ، فلما علم بذلك جهز عسكره ، وفى ٨ ربيع أول سنة ١٢٠٣ - ١٧٨٨م جاء نذير بأنهم قد اشتبكوا مع جنده وهزموا قبل وصوله الى الميدان . وبعد هزيمتهم توجهوا نحو وادى الزيما (*) ، ثم وادى لية ثم الأخيضر . وفى منتصف جمادى الأولى اتفق معهم عربان ثقيف (**) حيث هاجموا الطائف ، وأخرجوا وكيل الشريف ومن معه الى مكة ، فأبلغ هؤلاء الشريف بأن اخوانه يريدون مقاتلته مما دفع بالشريف غالب الى ان يرسل للقبائل الموالية له بالاستعداد لمواجهة المنشقين ، فلما سمع المناوئون بما حشده لهم الشريف ، عادوا أدراجهم الى الطائف ، وفى الرابع والعشرين من نفس الشهر أرسل اليهم الشريف غالب وفدا مكونا من السيد / ناصر بن مستور ، ونائب قاضى الشرع والمفتى الأربع للوساطة فى عقد صلح بينه وبين اخوانه . وقد تم قبول شروط الطرفين وعقد الصلح بينهما وعاد اخوانه الى مكة ، فخرج لملاقاتهم بنفسه .

(*) الزيما : بفتح الزاى وسكون الياء ثم ميم وهاء عين ثرة عذبة الماء بوادى نخلة اليمانية على بعد ٤٥ كيلا على طريق الطائف - كان المرحلة الأولى على نظام القوافل القديم من مكة الى الطائف .
 البلادى : عاتق بن غيث " معالم مكة التاريخية والأثرية " : (دار مكة ١٤٠٠ - ١٩٨٠) ص ٤٠ ، قرية تقع فى طريق الطائف ، دحلان ، المصدر السابق ص ٢٧٩ .

(**) ثقيف بن منبه ، والنسبة اليهم ثقفى : احدى القبائل الحجازية العريقة لا زالت فى مساكنها القديمة حول الطائف ، وهم بنو ثقيف واسمه حسن ابن منبه بن بكر بن هـوزين ، الزركلى - خير الدين - الاعلام ط ٥ ، ج ٢ ، (بيروت ١٩٨١) صفحة ١٠٠ .

لكن الأمور لم تستتب للشريف غالب اذ سرعان ما واجهته حركة عصيان أخرى ، ففي (٢٥ جمادى الأولى ١٢٠٤هـ / ١٧٨٩م) قام الشريف بحبس يحيى بن سلتوح الذى كان مقربا من أخيه سرور لقيامه بأعمال مناوئة . فقبض عليه وحبسه فى قبو تحت الأرض فى بيت ريحان السروجي^(١) ، لكنه بعد برهه من الزمن تمكن من الهرب واختبأ فى بيت أولاد المرحوم الشريف سرور ثم أخبأه يحيى يغرى الشريف عبدالله بن سرور بطلب شرافة مكة ، الذى لم يكن يتجاوز الثانية عشرة من العمر ، مما دفع الأخير الى أن يرسل خمسمائة من العبيد الى المسجد لمنازلة الشريف غالب ومحاصرة البيوت المحيطة به . فأفطر الشريف للبقاء فى داره مدة أربعة أيام وانقطع الناس عن السير فى طرق مكة ، كما انقطعت الملوات الخمس والطوائف الا أنهم لم يظفروا بمرام ، فأخذوا عهدا وخرج أولاد الشريف سرور مع أخيهم الشريف عبدالله وتوجهوا الى العابدية مع ابن سلتوح . فلما حاصروهم فى العابدية خرجوا ليلا وتوجهوا الى هذيل ثم عادوا الى مكة .

وهكذا نرى أن أبناء سرور بمساعدة ابن سلتوح قد اتخذوا من المسجد الحرام ميدانا للقتال مع ما لهذا المكان من الحرمة والقدسية .

وعندما فشلوا فى تحقيق مآربهم طلبوا الأمان وغادروا الحرم ثم دارت بين الطرفين معركة فى بركة السلم استمرت خمس ساعات ، دون ان ينتصر أحد منهم ، ثم عادوا الى العابدية فأرسل اليهم الشريف غالب سرية أمر عليها أخاه عبدالمعين ومعه مائة من الخيل وكثير من العساكر ، ثم اتبعه بجيش

(١) دحلان - المصدر السابق ص ٢٨٥ .

آخر أمر عليه أخاه عبدالعزيز ، وعندما علم عبدالله بذلك فرحى معه الى جبال هذيل ، ثم الى الطائف ، فحاربوا الوكيل وملكوا الطائف ثم توجهوا الى رهاط ، لجمع القبائل ، ثم اقبلوا بهم وبقبائل ثقيف ، فخرج لقتالهم فى الابطح حيث دارت معركة عظيمة ، تلاها انهزام عبدالله والقبض عليه وأخيه محمد . وقد أحسن الشريف غالب صنعا اذ حبسهما لعدة أيام ثم أرسلهما الى أمهاتهما ، وهدأت الأحوال ، أما ابن سلتوح فقد هرب الى ديار حرب ثم الى المدينة ثم الى دمشق حيث قام بتزوير عروض قدمها للدولة لطلب الملك للسيد عبدالله وذهب بها الى اسطنبول ولكنه لم يلق نجاحا (١) . وبعد أن أمن جانبه من طرف ابن أخيه اتجه الشريف نحو توطيد الأمن والغرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه العبث بأمن البلاد فهاجم ذوى حسن سكان الشاقة (*) لأنهم كانوا يقطعون الطريق وأخذ مواشيهم وقتل منهم خلقا كثيرا .

ويحدثنا الجبرتي (٢) ضمن أحداث عام ١٢٠٢ - ١٢٨٧م أن العرب قد نهبوا (٣) قافلة التجار والحجاج التى كانت قادمة من السويس وفيها للتجار خاصة ستة آلاف جمل تتكون من القماش والبهار والبن

(١) - دحلان ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .

(*) انظر خريطة قبائل المملكة ٢١٥ .

(٢) الجبرتي ، عبدالرحمن : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار - (القاهرة

١٣٨٦ - ١٩٦٧م ج ٢ ص ١٥٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص - ص ١٤٥ - ١٥٢ .

والبضائع بالاضافة الى أمتعة الحجاج ، كما سلبوهم حتى ملابسهم
كما أسروا النساء وأخذوا ما عليهم ثم باعوهن لأصحابهن . وقد تضرر
الناس من ذلك كثيرا ، فمنهم من فقد سائر ماله ، ومنهم من قتل
وترك مرميا ، حيث كان الشريف غالب منشغلا بفتنة ابن أخيه الا أنه
ما كاد يخمد تلك الفتنة وتستقر له الأحوال حتى أخذ في تأديب
هؤلاء العربان حتى استعاد ما أخذوه .

الفصل الثامن

— • —

انظمة الحكم

(١) النظام الإداري

كانت مقاطعات مكة في عهد الشريف غالب بن مساعد تتكون من الطائف، والقنفذة(*) وينبع وقد امتدت امارته جنوبا حتى حلى، وكان يتولى الامارة في تلك المقاطعات حكاما يعينهم الشريف، فكان الشريف عبدالمعين بن مساعد معينا لرعاية شئون جدة في عهد الشريف غالب(١). كما ينوب عنه السيد فواز الحسيني مسئولا عن المدينة(٢) المنورة بينما وزيره في ينبع هو السيد /محمد الحجري، الا أن جده كانت تخرج عن سلطته احيانا فيضطر الشريف الى الكتابة الى الدولة العثمانية طالبا اعادة ايالة جدة اليه مقابل ان يدفع خمسين ألف قرش(٣) نظرا لخضوعها لحكم الباشا(**) الذي كان يرسل من القسطنطينية

(*) كان وزير الشريف غالب في القنفذة أبى بكر عثمان - دحلان - المصدر نفسه، ص ٢٩٣.

(١) غازى - المصدر السابق.

(٢) المخطوط نفسه.

(٣) وثيقة رقم ٤٥١٩ وتاريخ ٤ جماد أول ١٢١٥هـ، دارة الملك عبدالعزيز - الرياض، وكانت حكومة مكة لها الاعتبار الدينى سواء لدى خليفة بغداد أو سلطان مصر أو امام اليمن، وكان الاعتبار الدينى لمكانة هذه المنطقة وقدسيتهما على مر العصور.

(**) الباشا : لقب كان يمنح لكبار الموظفين في الدولة العثمانية، سواء من المدنيين أو العسكريين ويقول هارفر انها تدل على الشخص الذى ينيب به السلطان في ادارة أمر ما على اعتبار أن السلطان يعتبر موظفى الدولة بمثابة قدمه الراسخ في انحاء البلاد، وكان السلطان يحب تشبيه موظفيه ببعض اعضاء جسده، فالموظفون الكبار عينيه ورجال الشرطة أذنيه ورجال المالية يديه والجنود قدميه، وكان هذا اللقب يمنح لبعض العلماء والفنيين تعظيما لهم وتقديرا لدورهم وفي بعض فترات التاريخ العثمانى أوقف هذا اللقب على الوزراء والمصدر الاعظم - مجلة الدارة، رئيس التحرير حسين زيدان، مقال بعنوان الولايات العربية في العهد العثمانى - المصفاى، مرسى: (العدد ٤١، السنة ٨) ص ٩٤.

ليكون الحاكم فيها ويتقاسم دخلها مع الشريف ، ويتولى^(١) مهامه تابعاً للسلطة بعد أن يرتدى الخلعة التى تملّحه مع القفطنجى باشا فى احتفال كبير . وكان شريف مكة يتمتع فى التشريفات^(٢) بمركز مرموق فى البلاط العثمانى ، ويمثله فى كل من مكة وجده وينبع والطائف وزير يعين من قبل الشريف ويسمى الحاكم فى كل من مكة والطائف . اضافة الى صاحب الخزينة وحامل السلاح وحامل الاختام الذى يقوم بتوثيق الموازين والمعايير^(٣) وعدد قليل من الجند الذين يحظون بالاحترام والحزم كتقليد لفن اللياقه عند تقديم الناس للشريف كالجنود الموجودين فى المحاكم التركية . وكان للشريف غالب ما بين خمسين الى ستين من الخدم والقواد وحوالى أربعة وعشرون من الخدم العباسيين وضعفهم من الاناث لخدمة منزل الشريف ورعاية اطفاله ، ويوجد فى اسطبلاته ما بين ثلاثين الى خمسين من الجياد ، وله فرس خاصة .

(١) بوركارت ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .

(٢) الحصرى ، المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(٣) انظر الموازين والمعايير ضمن النشاط الاقتصادى ، بوركارت - المصدر السابق ص ٢٢٥ .

وقد تولت(*) الدولة العثمانية صرف رواتب سائر الموظفين من القاضى الى خدم الحرم حيث تبعث للشريف غالب بما مقداره خمسين ألف قرش (١) ورغم ذلك كان الشريف غالب يلجأ الى الاستدانة من كبار التجار وعندما ترده الصرة يقوم بسداد بعضها (**)

الا أن حكومة الشريف غالب كانت أكثر اعتدالا من حكومة الشريف سرور الذى سبقه ، فهو لم يأمر سوى بقتل القليلين . ويؤخذ عليه أنه كان يتقاضى مبالغاً ضخمة مقابل افتداء أحد أعدائه . الا أن سجونته امتلأت بالمشاغبيين ، واصطبغت فترته بالدماء نتيجة لحروبه مع الدولة السعودية (٢) الأولى ، وكان يعفو عن خصومه ، كما فعل مع كل من الشريفين (٣) عبدالله ابن سرور وسعيد بن سرور ، وهما ابنا أخيه فبالرغم من مناصبتهما عمهما العداة الا أنه بعد أن فشلت محاولتهما فى الاستعثار بالحكم عفا عنهما

(*) كما كان هناك منصب نقيب الأشراف فى مركز الولاية ، ويعين من قبل نقيب الأشراف فى استانبول ، ويشرف على شئون الأشراف المختلفة ، ونقيب الأشراف منصب عرفته الحضارة الإسلامية وهو يتولى أمور المنتسبين الى بيت رسول الله صلعم ويتثبت من نسبهم ويقوم على سجلاتهم ، وتوزيع حصصهم من المغانم وكان بمثابة الوصى على كل المنتسبين الى أهل البيت ، ومنصب نقيب الأشراف من المناصب الرفيعة فى الدولة العثمانية ومكانه فى التشريعات بعد السلطان مباشرة . الدارة ، المصدر السابق ، ص ٩١ .

(١) وثيقة رقم ٤٥١٩ فى ٤ جماد أول ١٢١٥هـ ، دارة الملك عبدالعزيز ، الرياض .

(**) وكان منصب امين الصرة مهما بحيث يملك حق الوساطة بين الشريف وأمين الحج ، كما كانت الصرة تتعرض احيانا للنقص اذا لم تسلم بواسطة أمين خاص لها ، وثيقة رقم ١٢/٢/١ .

(٢) جوان ادوارد مصرفى القرن التاسع عشر تعريب محمد مسعود (القاهرة ، بدون .

تاريخ) ص ٤٩٠ .

وسمح لهما بالعودة الى مكة . وعندما يخرج الشريف من منزله يحمل فى يده عصاة صغيرة ملساء تسمى مطرق كما يفعل البدو عندما يسوقون اغنامهم ويسير بجانبه خيال يحمل مظلة صناعة الصين فوق رأس الشريف لحمايته من الشمس ، وكان هذا هو المظهر الملكى الوحيد الذى تميز به الشريف عند ظهوره فى المحافل ، ولكن ذلك لا يحدث عندما يسير فى الطرقات . وخلال فترة قوة الشريف كان يرغم أمراء الحج على أخذ رأيهم فى كل الأمور وكان يظهر قوته فى الحجاز كأي قائد فى الدولة العثمانية . وفى اسطنبول نفسها كان السلطان يقف له ويحييه ، وعند مجئ أمير الحج يقدم للشريف حصانا مماثلا لما سبق للشريف أن قدمه له . ثم يتبادل الاثنان الزيارات فى منى وعند رحيل المحامل يخرج الشريف لتوديعها خارج المدينة حسب ما جرت عليه العادة حيث يتلقى حصانا آخر كهدية ، وكان الشريف يتصرف فى الحكم بطريقة تختلف من شخص لآخر . فهو يعامل المكيين حسب التقاليد المرعية أما فيما يختص بالبدو فهو يتصرف معهم كشيخ قبيلة (١) لا كحاكم أما كبار الأشراف فقد حافظ على مركزهم الدينى بينما حد من نفوذهم السياسى الى حد كبير . أما بقية المكيين فقد اعتبرهم غير مساويين لهم فى الحق والواجبات ، ولذلك اختلفت حكومة مكة عن غيرها من حكومات المدن فى الدولة العثمانية ، الا أن الأشراف رغم ما كان يدور بينهم من منافسات ظلوا محافظين على التقاليد الموروثة بينهم حتى فى احلك اوقات حكمه فان مجرد محاولة ايذاء الشريف قد تكلف أحدهم حياته (٢) . وباختصار فقد احترم الشريف شعور المكيين ونادرا ما قام بمحاولة ضد سلامة الأفراد الشخصية أو

(١) بوركارت - المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .

(٢) وثيقة رقم ح / ٦ ١٧٩٧ ضمن الوثائق الانكليزية مكتب سجلات وزارة الهند .

حتى ثرواتهم بالرغم من أنهم كانوا يقاسون الأمرين تحت وطأة تلك القوانين التي نالت منهم جميعاً .

وخلاصة القول أن الشريف غالب كان يحكم المدينة المقدسة بكل قوته واستطاع أن يحرر نفسه من نفوذ الأشراف بل امتدت سلطته الى سائر أنحاء الحجاز الى حين قيام الدولة السعودية الأولى .

أما المدينة المنورة فعلى الرغم من أنها كانت ضمن التقسيمات الادارية لامارة مكة إلا أنها أظهرت تمرداً وعصياناً ، فقد حدث أن شخصاً يدعى عبد الوهاب بن الحسن البوسنوى قدم مكة مهاجراً وعندما وقعت فتنة بين الأشراف والأترار في مكة هاجر الى مصر وكتب للدولة العلية فرتبت له شيئاً فعاد الى مكة وكان يخطب على المنبر ويقلل من شأن الأشراف ويحط من قدرهم . فأمره الشريف بأن يغادر مكة ، فرحل منها الى المدينة المنورة حيث جمع حوله مجموعة من أهلها ممن ليس لهم ميل في بقاء تبعيتها للشريف ، وكان يخبرهم بأن الشريف لن يستطيع أن يفعل لهم شيئاً فتعصبوا وأخرجوا وزيرها من قبل الشريف وكتبوا للدولة العثمانية بأن يرفع الشريف غالب عنها يده ولا يحكم فيها أبداً وإنما يكون الحاكم شيخ الحرم فقط (٢) وأرسلوا الخطاب الى مفتي المدينة الذي قام بدوره بتحرير خطاب لهم الى

(*) وكان وزير الشريف في المدينة محمد بن ظهيرة . غازی ، المصدر السابق .

(١) الحبرتي ، المصدر السابق / ٢ ص ١١٥ .

(٢) المصدر نفسه / ٢ ص ١١٦ .

أمير الحج الشامي والى الشريف ، فلما علم بذلك الشريف غالب وعرف بمدركه استعداد للقاء أمير الحجاج بجيش كبير على خلاف عادته . وأراد مناوآته ان كان قد برز منه شىء خلاف ما اعتاد عليه فذهب الأمير الى بلاده ، ولما انتهى موسم الحج قاتل الشريف العرب ودخل المدينة فجأة ولم يكن يخطر ذلك ببالهم أبدا (١) ، فلما رأوا ذلك خرجوا للقاءه فأخبرهم بأنه جاء لزيارة قبر جده عليه الصلاة والسلام وليس له غرض غير ذلك فلما اطمأنوا وعرف أنهم لم يدركوا حقيقة الأمر ، وبعد أن انتهى من الزيارة ومعه عساكره وأتبل عليه المواطنون للسلام أكرمهم وكساهم (٢) . فلما تيقن من عدم ارتيابهم فيه أمر بالقاء القبض على الجماعة الذين كانوا يدبرون أمر رفع يده عن المدينة فقبض على بعضهم وهرب البعض الآخر الى مصر ومنهم الواعظ عبدالوهاب المذكور سابقا . وكان ذلك فى سنة (١٢٢٤هـ - ١٢٢٥) ثم عاد الشريف الى مكة الا أن أهل المدينة المنورة لم يكونوا راضين عن حكم الشريف غالب فقد قامت فتنة بين أهل المدينة وبين وزير الشريف وكواخى (٣) البلكات أى على البولكات فأرسل اليهم الشريف غالب السيد ناصر بن مستور وتم القضاء على تلك الفتنة (٤) . ثم تبع ذلك قيام فتنة أخرى بين كل من شيخ الحرم وأهل المدينة الا أن الشريف أرسل مرة ثانية السيد ناصر بن مستور وتم انتهاء الأمر (٥) ، لكن أهل المدينة لم يكونوا راغبين فى بقاء سلطة

(١) الجبرتى ، المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٧ .

(٣) جمع كيخيا .

(٤) فتنة المدينة .

(٥) دحلان ، المصدر السابق ، ص ٢٨٥ .

الشریف غالب فیها • ومن ناحية أخرى انفردت بمركز خاص ، فقد درج الباب العالی على التدخل فی أدق التفاصيل فی المدينة المنورة ، فكل ما يحدث فیها من فتنة كان یحرر عنه الى الصدر الأعظم مباشرة من قبل قاضی المدينة دون الرجوع الى رأى الشریف غالب نفسه والذي كان له اعتبار دینی وسياسی فی تلك المنطقة ، فها نحن نرى أن قاضی الحرم یرفع فی ٢٥ ربيع الأول مذكرة من الصدر الأعظم الى السلطان یفیده^(١) فیها بأن كلا من بشیر اغا نائب الحرم وعنبر اغا شیخ الحرم یثیران الفتنة ویرفضان أوامر أحمد الجزار بتعيين رجب بن أحمد على وظيفة كتخدا^(٢)، ولذا قام الصدر الأعظم بتحرير مذكرة الى السلطان طالبا تعيين أدریس اغا شیخا للحرم الا أنه نظرا لأن ادریس اغا لا یجید اللغة العربية ولیس على علم بأحوال تلك الجهات لذا فان الصدر الأعظم یرى تعيين عنبر اغا الصغير شیخا للحرم ، كما یتذمر الصدر الأعظم من بعض الأعمال التي صدرت من الأشخاص المكلفین بسقاية الحجاج ومشابغتهم لمرافقی حجاج الشام، كما یفید بأن الوالی قد طلب منهم عدم تكرار ذلك ، الا أن الغریب فی الأمر هو أن یصدر الأمر السامی بتعيين أدریس اغا شیخا للحرم رغم ما ذكر سابقا من عدم المامه باللغة العربية حیث كان مقيما بالشام الا أن هذا التعیین حسب ما یتضح لم یلق تجاوبا لعدم المام ادریس اغا بالعربية كما ذكر ولعدم معرفته بأمور تلك الجهات ، لذلك طلب الى الوالی فی المدينة أن یسأل عن وکیل شیخ الحرم عنبر اغا الصغير وذلك بالاستفسار من الأهالی

(١) وثيقة رقم ١/٢/١ فی ٢٥ ربيع الأول ١٢٠٨ جهة الاصدار ، الصدر الأعظم الى السلطان - دارة الملك عبدالعزیز - الرياض .

(٢) كتخدا : لقب یمنح للموظفین المكلفین بأعمال الزعامة فی الولاية ومن مهام وظائفهم هو المحافظة على سجلات مالية الولاية .

والعربان فى المقدمة (١) . وحيث أنهم قد أشنوا عليه ولذلك فهم يرون تعيينه الى أن يصدر أمر سامى بشأنه . ثم تفيد الوثيقة أنه قد قام برفع الأذى عن المدينة أى القضاء على الفتنة وكان للأتراك فى المدينة فئة من الانكشارية بقيادة أحمد أغا وبعد وفاته نصب الباشا ابنه رجب مكان والده . الا أن نائب الحرم وهو بشير أغا يميل لاشارة الشغب فقام بعزل رجب وعين مكانه (عبد العسال) الا أن أكثرية الأهالى مالت مع رجب وتحصنوا بالقلعة مع أن أغوات الحرم كانوا مناوئين له . والغريب فى الأمر هو أن الحرب تستعر بين الاثنين منذ أوائل شعبان وحتى تسوارد الحجاج دون أن يتدخل الشريف غالب فيقوم الباشا بعزل عنبر أغا ويأخذه مع حجاج مصر فى حين يتم تعيين عنبر أغا الصغير قائما مقام حيث قام باخماد الفتنة . الا أن أمور المدينة المنورة كانت تدار عن طريق الاستانة حتى فى حالة اجراء بعض الترميمات فمثلا عندما تهدم سور قلعة المدينة ، قام الأهالى بالكشف عليها وقدروا لها ٣٤٥٠٠ ألف قرش وخمسمائة ، وعندما حضر أمير الحج أمر باعادة الكشف عليها من أهل الخبرة . ثم جرى الكشف للمرة الثالثة عن طريق ابراهيم افندى من مدرسى الديوان السلطانى حيث ورد اليه أمر بذلك أوصى الأخير بأن عمارة قبة المسجد النبوى والمنبر يكلفان ألفان وأن اصلاح ابراج القلعة يكلف (١٧) سبعة عشر ألفا والمتاريس (٨) آلاف ثمانية آلاف ويكون بذلك المبلغ المطلوب هو (٢٦) ستة وعشرون ألفا أى بناقص ثمانية آلاف عن الكشف السابق (٣) . الا أنه نظرا لمرضه وعدم

(١) الوثيقة نفسها . ر ٢

(٢) . الوثيقة نفسها .

(٣) . الوثيقة نفسها .

خبرته فى أمور البناء فقد أرجىء تنفيذ ذلك . كما أن أمر البناء والتعمير قد يوكل الى المحافظ الذى يقوم بدور المشرف بواسطة أمين البناء . وبعد أن ينهى هذا الشخص المكلف مأموريته يذهب الى اسطنبول^(١) لاطلاع المسؤولين هناك على ما قام بتنفيذه . كما كان يخصم لقضاة المدينة المنورة ما مقداره (١١٢٥٠) قرشاً من حاصلات جدة الا أنه يحصل أحياناً أن لا يتسلم هؤلاء القضاة المبلغ وقد يتسلمون جزءاً منه فمثلاً تسلم قاضى المدينة على أفندى طوسية مبلغ خمسة آلاف قرش وعندما أعلم الدولة بذلك صدرت الأوامر بأن تصرف هذه الأموال لورثته الا أن شريف مكة أفاد بأن ميناء جدة لم يدخله ولا حبة^(٢) واحدة . وأن ما دخل منها قد انفق على على مصاريف الحرم الشريف لعدم ورود الصرة من مصر ، وقد اشترى بذلك المبلغ زيتاً وشمعاً للقناديل بل انه حتى فى حالة ما تكون هناك حاصلات وافرة فان أمير مكة واقربائه ومن يتعلقون به يأخذونها ويبلعونها^(٣) فلا يصل منها شيء لأيدى الوزراء . وكان قاضى المدينة ينال معاشه من جمرك جده^(٤) ، كما قام يوسف باشا محافظ المدينة بالكتابة الى الصدر الأعظم عن الأماكن التى تحتاج الى الإصلاح فى سطح الحرم الشريف ومنارة المسجد . وبعد ظهور الدولة السعودية الأولى عين للمدينة المنورة محافظ ومعه عدد

(١) وثيقة رقم ٢/١هـ بدون تاريخ

(٢) وثيقة رقم ٢/١هـ بدون تاريخ - يتضح من السياق انها تعود لعام ١٢٠٨هـ

حيث أن شيخ الحرم عنبر اغا أو قبل ذلك .

(٣) الوثيقة ويبدو من خلال ما فيها من معلومات أن هذه الوثيقة تعود

الى عام ١٧٩٨م أو ١٧٩٩ حيث أن هذه فترة الغزو الفرنسى لمصر - وتتعرض

لحصار عكا وغيره .

(٤) الوثيقة نفسها .

من المدافع (١) والعتاد وذلك فى عام ١٢١٧هـ ، وبعد انعقاد اجتماع شيخ الاسلام (٢) حيث كانت قبل ذلك بدون محافظ ، وفى نفس الوقت تقرّر أن يوضع لجدة وال وأن يكتب للدولة السعودية خطابا عربى العبارة ومن ثم يأخذ محافظ المدينة هذا فى الكتابة عن المدينة المنورة الى رئيس الكتاب حيث يشرح له أحوال المدينة المنورة ومجىء السعوديين الى المدينة ثم رحيلهم الى مكة . الا أن الشريف غالب أرسل الى المدينة معتمده الشيخ سليمان أبو الفرج حاملا رسائل الى كل من حاكم الشرع وشيخ الحرم يخبرهما بمهاجمة الطائف وحصار مكة . كما ذكر فى التقرير ان بداى (*) أرسل الى شيخ الحرم والوجوه والى أمير الحج عبدالله باشا برسائل جاء فيها أنه لا يصح القتال فى أراض الحرمين ولكن يجب عليهم أن يلجأوا الى طريقة الحصار وقطع الطريق ، كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دعى أهل المدينة الى الاسلام (٣) . ومن هنا يتضح أنه قد أصبح فعلا من اتباع الدولة السعودية الأولى وقبل مبادئها . وبعد تغيير محافظ المدينة منح محمد سعيد أغا محافظ المدينة مرتبة (أمير ميران) فأصبح بذلك محمد سعيد باشا وكان يقوم بنقل تلك الرسائل أشخاص كالحاج محمد مثلا حيث حرر أمين الصرة فى عام ١٢١٨هـ ١٩ صفر الى السلطان حيث يفيد به بأنه قد وصل

(١) وثيقة رقم ٧-٢/١ تاريخ ١٢١٧ - دارة الملك عبدالعزيز . الرياض .
 (٢) وثيقة رقم ٣٧٨٩ مجموعة الوثائق التركية بتاريخ ١٥ محرم ١٢١٨هـ - دارة الملك عبدالعزيز .
 (*) رئيس قبيلة حرب ، الوثيقة نفسها .
 (٣) الوثيقة نفسها .

الى المدينة أحد المراسلين وهو الحاج محمد وقد كانت اقامته عند عنبر
أغا شيخ الحرم وقد سلم ما بيده من المراسلات ، وأخذ من أهل المدينة
رسائل وقد تيقن من أحوالها وأصبح على علم بما جرى فى الحرمين . وقد
حوت تلك الرسائل معلومات عن وصول^(١) السعوديين الى مكة وفرار والى
جده والشريف غالب الى بساتين جده ، كما يفيد بأن الشريف غالب قد أرسل^(٢)
من مكة المكرمة بواسطة ممثله الشيخ سليمان أبو الفرج الى محافظ المدينة
المنورة وشيخ الحرم والطرابلسي زاده ، يفيدهم بدخول السعوديين الطائف ،
كما طلب الشريف من وجوه المدينة وطرابلسي زاده السير اليه الا أن الأخير
اعتذر بانشغاله بأعمال تتعلق بالبناء ، كما يفيد به بأن الامام عبدالعزيز
قد كتب كتابا لأهل المدينة المنورة يفيدهم بأن المصالحة التى كانت بينه
وبين الشريف قد فسخت . وأن كلا من خليفتي زاده حسين أفندى وأسعد زاده
مصطفى أفندى قد سارا الى اسطنبول عن طريق مصر وأن محافظ المدينة قد
رقى الى رتبة قائمقام وهو محمد سعيد باشا وأن محافظ دمياط السيد أحمد
باشا قد تم تعيينه محافظا على المدينة المنورة الا أن العلاقة لم تكن
على ما يرام بين كل من الشريف غالب والمدينة المنورة فها نحن نرى أحمد
أفندى^(٣) والذى^(٤) كان محافظا لدمياط وأصبح محافظا للمدينة المنورة كما
ذكرنا آنفا . يقوم بتحرير تقرير الى السلطان يطلب فيه عزل كل من الشريف
غالب شريف مكة وشيخ الحرم وهو يبرر ذلك بأنه لولا وجود خلاف بين الشريف
غالب والدولة السعودية لما تعرضت الأخيرة للمدينتين المقدستين ، كما أن

(١) الوثيقة السابقة .

(٢) وقد حملها الحاج محمد التتار

(٣) وثيقة رقم ٣٧٨٧ ، مجموعة الوثائق التركية - دارة الملك عبدالعزيز
الرياض

(٤) أحمد أفندى ايباس .

ب - القضاء فى عهد الشريف غالب

يمثل القضاء السلطة التشريعية فى الدولة ، فقد عرف المسلمون مختلف أوجه السلطة القضائية منذ فجر الاسلام ، وقام المفسرون بوضع شروط معينة لاختيار القاضى ، وهذه الشروط هى :

- الذكورة
- العقل
- الحرية
- الاسلام
- العدالة

وهى معتبرة فى كل ولاية ، والعدالة أن يكون صادق اللهجة، ظاهر الامانة ، عفيفا عن المحارم ، والشرط السابع أن يكون عالما بالاحكام الشرعية (١).

ومع أن فترة حكم الشريف غالب قد جاءت بعد ظهور هذا التشريع الا أننا اذا حاولنا التدقيق فى النظام القضائى زمن الشريف غالب قد لا نجد شرطا واحدا من هذه الشروط ينطبق على أولئك القضاة سوى شرط الذكورة.

فقد كان منصب القضاء خاضعا بصورة جلية لرأى الأشراف . فالقاضى يخضع لحكم الشريف ، ومن هنا لعبت الرشوة دورا كبيرا فى اصدار أحكام

(١) الماوردى ، أبى الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى الماوردى : الاحكام السلطانية (المكتبة التوفيقية - القاهرة ، ١٩٧٨م) ص ٥٤ .

القضاة ، وعندما دخلت مكة فى تبعية الدولة العثمانية أصبح القاضى يرسل اليها من القسطنطينية مع ضرورة مراعاته لتقاليد البلاد المقدسة التى هو فيها . ولكن حكم القاضى غالبا ما ينتهى لصالح من يستطيع أن يدفع الرشوة أولا (*) . أما القانون فقلما كان يطاع وكل شئ يـُـدار عن طريق التأثير الشخصى ، وقد أعطى الشريف سرور مزيدا من الأهمية لدور القاضى بحيث ظهر نوع من القوة لم يسبق له مثيل فى عهد من سبقوه الا أن الرشوة للقاضى بلغت مائة من الجنيهات ، ليصدر حكمه لصالح من يستطيع أن يدفع (**).

وقد أصدر الشريف أبو نمى قانونا يتكون من ست وعشرين مادة ، وكان أكثر القضاة من المصريين فيحدثنا السخاوى بأن أول من ولى مكة من القضاة هو محمد بن أحمد سنة (٨٠٧ هـ) (١).

وبالرغم من أن السلطان العثمانى هو الذى يعين من شاء من القضاة ، فقد كان القضاء بمكة منصبا لا يتعدى ذوى البيوتات العريقة (٢) . وكان

(*) بوركارت- المصدر السابق ، صفحة ٢٣٤

(**) وكان قاضى مكة فى عهد الشريف غالب محمد بن ظهيره - غـُـازى مخطوط، مفتى الحرمين قطب الدين الحنفى .

(١) السخاوى ، شمس الدين : التحفة اللطيفة فى أخبار المدينة الشريفة ، (القاهرة . ١٣٩٩ - ١٩٧٩) ، ص ٤٠ .

(٢) السلمان ، على بن حسين : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك (جامعة القاهرة ١٣٩٣ هـ رسالة ماجستير) ص ١٢٩ .

منصب القضاء تابعاً للدولة المسيطرة فمثلاً عندما دخل السعوديون مكة عين الأمير سعود لها قاضياً من علماء الدرعية هو ابن نامى (*) . وكان هذا القاضى يقوم بتأدية الصلاة والافتاء فى الأمور الشرعية ، وبذلك أزيلت الخطبة للسلطان العثمانى وهو الأمر الخطير الذى ارتاعت له جوانب الدولة العثمانية ، كما عين عبد الحفيظ العجيمى لمزاولة القضاء فى مكة المكرمة ، ثم تبع ذلك إعادة تعيين القضاة لمكة من مصر فقد ورد أنه فى عام (١٢٢٢ - ١٨٠٧ م) تم تعيين قضاة مكة والمدينة من مصر ، فقد وصلت قافلة الحج من ناحية السويس وفيها القاضى وأغوات الحرم ، حيث توجه القاضى لقضاء مكة وتوجه القاضى سعيد بك (١) الى المدينة . الا أن ذلك لم يكن ليخضع لنزاهة القاضى فقد اتسم القضاء بقبول الرشوة سواء فى عهد الأشراف أو فى خلال فترة محمد على فى الحجاز (٢) .

ويساعد القاضى فى عمله موظفاً متعلماً يرسل معه من اسطنبول أيضاً وكان له مطلق الحرية فى تطبيق أوامر الحكومة ويمنع فيه أى تأثير شخصى الا أن ذلك لم يلبث أن يتغير بحكم اختلافات السكان فى سائر أنحاء الدولة العثمانية ، لذلك فإن القاضى فى كل مدينة تحت تأثير نفوذ حكومتها ويرسل تقاريره الى العاصمة ، وكان لهم زى خاص بهم لا يرتديه الا من

(*) سترد له ترجمة ضمن علاقات الشريف غالب مع الدولة السعودية الأولى .
 (١) شكرى ، محمد فؤاد : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ، ج ٣ (القاهرة ١٩٥٨) ، ص ١٦٠ .
 (٢) وثيقة عريضة مرفوعة الى محمد على محافظة بحر بر ١ رقم ٨٤ شعبان ١٢٤٣ .

انضم الى خدمة الحكومة . يضاف الى هذا أن القاضى لا يعرف سوى القليل من اللغة العربية وكل قاضى يأخذ قسطا من الرشوة فى الدولة العثمانية وكان على المتقاضين أن يدفعوا للقاضى حوالى مائة درهم ليضعها فى خزانته ، الا أنه منذ غزو محمد على للجزيرة العربية استعاد القاضى أهميته الأولى كنتيجة لأن نفوذ الشريف نفسه أصبح غير ذات أهمية فقد أصبح الأمر كله بيد محمد على وكانت لدى القاضى أوامر قوية باتخاذ جانب الحق وكان القاضى يعود فى أحكامه الى مكاتب القضاء فى كل من جدة والطائف التى كانت مملوءة بالعرب وليس الأتراك وكان لرأى المفتى دور كبير فى ذلك . (١)

لقد ذكرنا أن قاضى مكة كان يرسل سنويا من القسطنطينية طبقا لما جرت عليه عادة الحكومة التركية فى شأن المدن الكبرى فى الدولة (٢) بصورة دورية من اسطنبول ويكون مستقلا تماما عن الحكام فانهم بذلك ربما يمنعون هؤلاء من ممارسة أى نفوذ على القضاء ، وفى نفس الوقت تجنب نفس النتائج التى قد تنجم من بقاء نفس القاضى فى منصبه مهما طالت مدة شغله لها . ومع ذلك فان الأساليب قد اختلفت تماما فى جميع أنحاء الدولة العثمانية عما كانت عليه ، الا أنهم كانوا يخضعون فى

(١) بوركارت ، المصدر السابق ، ص ٢٣٥

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٨٥

تلك الآونة للنفوذ المباشر للحاكم الذى ترك له الأمر لى يستبد كما يحلو له ما دام أنه يداوم على ارسال المعونة المالية المفروضة عليه الى الباب العالى بانتظام (*) . ولا يستطيع أى شخص أن يربح قضية أمام القضاء ما لم يكن يتمتع بثقة الحكومة أو يدفع رشوة للقاضى أما أن يشاطره فيها الحاكم أو يتقاضى عنها فى مقابل أن يسير القاضى بدوره حسب مصالح الحاكم فى قضايا أخرى . أما رسوم المحكمة فى باهظة وعادة ما تبتلع ربع المبلغ المدعى به بينما تصم المحكمة آذانها عن أنصع حق اذا لم تدعم بالهبات السخية التى تقدم الى القاضى (١) والى العدد الحاشد من الموظفين والخدم الذين يحيطون به . ولقد وجدت هذه المخالفات تأييدا لدى الباب العالى . اذ أخذ مكتب القاضى يباع هناك علانية لمن يقدم أفضل عرض ، والمفهوم أنه سوف يكافئ نفسه بالأعطيات التى يجنيها من منصبه (٢) .

وفى تلك البلدان التى يندفع فيها العرب أفواجا الى محكمته ، يكون القاضى الذى لا يعرف فى اللغة العربية الا النذر اليسير رهينه فى يدى مترجمه الذى يكون منصبه مستديما (٣) ، والذى يشير على كل قاضى

(*) كانت الحكومة العثمانية ترسل رواتب الموظفين الى الشريف والقاضى من بينهم - وثيقة رقم ٤٥١٩ فى ٤ جماد أول ١٢١٥ هـ . ورغم أن الدولة العثمانية كانت تدرك أهمية مصر وبالتالى الحجاز ومنصب قاضى الحرمين الا أنها لم تغير شيئا بالنسبة للقضاء . رضوان ، نييل عبدالحى: الدولة العثمانية وغرب الجزيرة العربية جده (١٤٠٣)، المملكة العربية السعودية (١٢٩) ص .

(١) بوركارت - المصدر السابق، ص ٢٨٥ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٥ .

(٣) وهو ما عرف بوكيل القاضى - الوثيقة نفسها .

جديد بطرق الارتشاء الدارجة فى المنطقة ، كما يأخذ نصيبا وافيا من ناتج ذلك الحصاد .

وكانت جميع الدعاوى ترفع مباشرة أمام محكمة الشريف . ولذا تضاءل دور القاضى ، ويفيد بوكارت أن أحد القضاة قد أخبره شخصيا بأن المصدر الأعظم قد اعتاد لبعض الوقت فيما مضى أن يدفع الى قاضى مكة مائة بقشة فى العام من خزينته الخاصة بسبب الدخول التافهة لذلك المنصب . ومنذ فتح محمد على استرد القاضى أهميته (١) بنفسه القدر الذى تقلص به نفوذ الشريف .

وأخيرا فان بوكارت يذكر أن الدعاوى القضاية يحكم فيها من قبل المحكمة ونادرا ما كان محمد على يتدخل فيها بسلطته . اذ أنه أراد أن يستميل مودة العرب ، كما يظهر أن القاضى نفسه تلقى منه أوامرا مشددة بالعمل (٢) بحذر ، حيث كان القضاء فى هذا الوقت يسير بطريقة حسنة بقدر الامكان وعلى الأقل بالمقارنة بمحاكم أخرى . كما أن السكان لم ينفروا من الترتيب الجديد للأمور (٣) .

(١) الا أن نتيجة الحكم كانت ترفع الى محمد على والى مصر . (الوثيقة السابقه)

رقم ٨٤ - ١٨٨٤

(٢) الوثيقة نفسها .

(٣) بوكارت - المصدر السابق ، ص ٢٨٥

النظام الحربي لامارة الشريف غالب

==*==*==*

سنحاول أن نلقى الضوء على التنظيمات العسكرية للقوات النظامية وغيير النظامية التي سخرها الشريف غالب لخدمته في حفظ الأمن واستقرار الأمور في اماره مكة وسنتناول المواضيع وفقا للتقسيم التالي :

(١) القيادة :

من خلال ما لدينا من معلومات تاريخية نستطيع أن نقول بأن الشريف غالب كان يعهد بالقيادة الى أحد اقربائه ، كما حدث في غزوة عرين الدسم حيث أسند القيادة الى أخيه عبدالعزيز وكانت هذه تعتبر الغزوة الأولى (١) ، كما يعهد بالقيادة الى أحد رجاله البارزين احيانا ، كما فعل مع عثمان المضائفى في غزوة عقيلان (٢) ، سنة (١٢٠٨ - ١٧٩٣) حيث أرسله على رأس قوة لمهاجمة جماعة ابـن فيحان بعد أن علم بدخولهم في طاعة ابن سعود حيث كان عثمان يقود

(١) دحلان - المصدر السابق ، ص ٢٦٣ .

عرين الدسم : باضافة عرين الى الدسم باسكان السين ، رمال تفصل بين وادى السرحان وبين غوطة الجوف ، ويلاحظ هنا التفريق بين هذا وبين عرين الدسم الواقع جنوب ضرية ، الجاسر ، حمد . المعجم الجغرافى للبلاد

السبع ديه (منشورات دار اليمامة الرياض - المملكة العربية السعودية ١٣٩٧

٢٠١٦٢٧) ص ٤١٥ .

(٢) دحلان - المصدر السابق ، ص ٢٨٤ .

قبائل البقوم وعتيبة (١) ، كما أسند القيادة الى أخيه الشريف عبدالمعين حيث أرسله لقتال هادى بن قرملة (٢) ، وابن قطنان (٣) ، وأسند الشريف غالب القيادة الى ناصر بن سليمان فى سنة (١٢٠٠ - ١٧٨٥ م) حيث أمره بقصد من تبع ابن سعود ومنها الثمامية غزا فيها آل روق حيث قتلهم وأخذ ابلهم (٤) . وفى سنة (١٢٠٠ - ١٧٨٥) أوكل الشريف غالب القيادة الى السيد / فهد بن عبدالله بن سعيد وأمره أيضا بمهاجمة القبائل التى دخلت فى طاعة بن سعود ، وقد جاءت هذه الحملة

(١) دحلان - المصدر نفسه ، ص ٢٨٤ .

البقوم : بطن من الأزد القحطانية ، واسمه عامر بن حواله بن الهم بن الأزد . قال عنهم مؤلف لمع الشهاب - مؤلف مجهول ، صفحة ٦٣ بادية يبلغون اربعة آلاف وهم بداءة تربة وملاكها ، خدامهم ومن التحق بهم ، وتربة تقع شرق من حضن وينحدر السيل من تربة من أرض الحجاز ، ولمع الشهاب تم تأليفه سنة ١٢٣٣ هـ وهو معاصر لمؤلف الدر المفاخر . البسام - المصدر السابق ، ص ٨٠ . المعلومات اخذت عن طريق كتاب الدر المفاخر .

عتيبة : احدى القبائل الكبيرة اليوم فى شرق الحجاز ونجد وكانت ديارها حرة الحجاز شمال مكة على مدركة ، ورهاط شرقا وجنوبا الى الطائف وما حولها ، البلادى ، المصدر السابق ص ٢٩٨ .

(٢) دحلان - المصدر السابق ، ص ٢٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٨٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٨٤ .

كرد فعل على الحملة التي قادها سعود الى تربة والتي اعتبرها الشريف
غالبا بمثابة جس النبض (١) . وقد كان هدف فهيد قائد الحملة قبيلة
قحطان التي كانت تقطن آبار المسيل على بعد خمسين ميلا من الدوادمي ،
كما اسند القيادة الى ناصر بن سليمان حيث توجه الى مرات ومنها
الى عفيف (*) ثم سار الى مكان يقال له الشماس (*) فباغتهم جيش ابن
سعود . كما اسند القيادة الى الشريف فهيد بن عبدالله بن سعيد حيث
أرسله في ١٣ ربيع الآخر ١٢١١ - ١٧٩٦م الى الطائف ثم الأخيضر (*) ثم
الى ركة ومنها ارسل قوة الى الخرمة (٢) . أمر عليها السيد/ حسين
ابن غالب . وفي سنة ١٢١٢ - ١٧٩٧م أرسل جيشا أوكل قيادته الى السيد
فهيد بن سعيد وأمره بمهاجمة جماعة حرب في عرين الدسم (٣) . كما كان
من بين قواده السيد / مبارك بن محمد بن مساعد بن سعيد حيث أغار على
جماعة من حرب في سنة (١٢١٢ - ١٧٩٧) ثم أمده بجيش بقيادة سعيد بن
عرمطه حيث التقى الاثنان في صلبة (٤) . وعندما علما بأن السعوديين قد
أعدوا لهم جيشا لا قبل لهما به سار اليهم الشريف غالب بجيش قواده
بنفسه في ١١ شعبان سنة ١٢١١ - ١٧٩٧ . كما لحق به كل من السيد/ مبارك
ابن محمد والسيد سعيد بن عرمطة حيث أغار على قوم من قحطان (٥) ، كما

(١) فيليب عبدالله ، تاريخ نجد : تعريب عمرالديرادي (بيروت ، بدون تاريخ) .
ص ٨٩ ، دحلان - المصدر السابق ص ٢٨٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٨٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٨٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٨٨ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٨٨ .

كان وزيره أحيانا يقوم بقيادة الجيش ، فقد أرسل وزيره فى القنفذة
 أبى بكر بن عثمان الذى اشتهر (١) بالشجاعة ، وأمره أن يعد ما أمكنه
 من الذخائر ويقاتل شيخ محاليل لانضمامه لابن سعود . ورغم هزيمة هؤلاء
 القوم الا أنهم ما لبثوا أن عادوا لطاعة السعوديين فأرسل اليهم مندبل
 ابن أبى طالب . ولا بد أن صدق الدعوة السعودية قد دفع هؤلاء للانضمام
 اليها ، فقد وهب الله أتباع هذه الدعوة الهيبة . (٢)

عندما وصلت الأخبار بدخول حلى فى طاعة السعوديين أرسل غزية
 أخرى بقيادة السيد/ مندبل كما جهز معه جيشا جعل قيادته للسيد ناصر
 ابن مستور حيث هزموا أهالى حلى وباعوا أبناءهم بمكة بيع الرقيق (٣)
 وعندما دخلت قبيلة دمينه وغامد والفرعاء فى طاعة السعوديين أرسل اليهم
 الشريف جيشا بقيادة مجموعة من السادة الأشراف وكان قائدهم السيد/ سعد
 ابن زيد القناوى (٤) . ولم يكن الشريف عبدالمعين بمثابة القائد فقط
 بل نراه أحيانا يقوم بالتفاوض وعقد المصالح فعندما اقترب السعوديون من
 مكة أرسل اليهم الشريف عبدالمعين طالبا عقد المصالح وبالفعل فقد تم
 عقد المصالح بين الطرفين (٥) ، وكان حامل رسالة الشريف هو القائد حامد

-
- (١) ، دحلان ، المصدر السابق ، ص ٢٩١ .
 (٢) بيرين ، جاكليين : اكتشاف جزيرة العرب (ترجمة قدرى قلجى - بيروت
 لبنان ، ١٩٦٥) ، ص ٢٠٢ .
 (٣) دحلان ، المصدر نفسه ، ص ٢٩٢ .
 (٤) المصدر نفسه ، ص ٢٩٣ .
 (٥) ابن بشر : المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

ابن سليم (١)، كما أرسل جيشاً لمحاصرة الطائف اعانة لثقيف أمر عليه السيد ناصر بن أبي طالب فأحاطوا بالطائف وضيّقوا على عثمان (٢) كما نجد من بين قواده القائد أحمد بن مثقال ، كما أرسل القائد مفرح ابن عتيق الوزير ربحان عن طريق البحر الى الليث (*) (٣)، كما أسند القيادة الى الأمير حسن بن زين العابدين بن غالب (٤)، أما جنده من الأتراك فقد كان يتولى قيادتهم قائد من الأتراك حيث أن الجيش الذي أرسله الى الليث كان بقيادة ثلاثة قواد حيث كان قائد الترك حسين أغا تفكجى باشا لكونه مشهوراً بالشجاعة (٥)، كما نجد من بين قواده السيد حسن بن علي بن سعيد (٦) أما السيد شبر بن مبارك (٧) المنعمى فقد أرسله لقتال عسير وكذلك الشريف راجح بن عمرو الشنبري (٨).

(*) الليث : بلدة كبيرة على ساحل البحر الاحمر بين مكة والقنفذه وهى في السابق لبني حسن بطن من اشراف اليمامة ابن بليهد ، محمد بن عبد الله صحيح الاخبار عما في بلاد العرب من الاثار (مطبعة الامام ١٩٥٢ الرياض) ص ٩٧ .

(١) دحلان ، المصدر السابق ص ٢٨٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٨٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٠٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٠٨ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣٠٨ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٣٠٩ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٣٠٩ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ٣١٠ .

٢ - عدد القوات :

كان لدى الشريف غالب قوات نظامية وغير نظامية ، فالقوات غير النظامية تتمثل فى القبائل العربية التى خضعت لامارة مكة ، غير أن اعطاء فكرة عن عدد القادرين على حمل السلاح فى كل قبيلة سوف يساعد على تكوين فكرة واضحة عن حجم هذه القوات ، كما أن الإشارة أحيانا الى ما تمتلكه القبيلة من خيل وجمال توحى بما تقدمه تلك القبيلة من خيالة أو فرسان للإسهام فى المعارك التى تدور بين الشريف وأعدائه - فمثلا نجد أن قبيلة حرب ^(١) وحدها تستطيع أن تزج فى المعركة ما بين ثلاثين الى أربعين ألف محارب وكانت تنقسم الى قسمين قسم مستقر والآخر محارب الا أن الأشنين يتحدان عند الخطر ، وهذه القبيلة تقوم بدور فعال لحماية محملى مصر

(١) حرب : قبيلة يمانية النسب حجازية الوطن هى : حرب بن سعد بن سعد ابن خولان ، وخولان ينتهى الى كهلان ثم الى قحطان . كانت حتى أوائل القرن الثانى الهجرى تقيم فى اليمن حول صعدة ، ثم حدثت حروب طاحنة بين بنى سعد بن سعد والربيعة بن سعد ، فجلت بنو سعد بن سعد بن خولان الى الحجاز سنة ١٣١هـ فنزلت بنو حرب وسط الحجاز : العرج والفرع وما والاها فقاتلت كل من عنزه ومزينه وسليم بن منصور حتى اجلتها من هذه الأراضى ودحرت بعضها وضمت البعض الآخر وما أهل القرن الرابع الهجرى حتى أصبحت حرب تسيطر على قلب الحجاز ، فأصبح الطريق بين مكة والمدينة لا يسير فيه سائر الا بزماء حرب وتحت خفارتهم . وما زالت تحارب من جاورها من القبائل وتتوسع حتى أصبحت تملك قسطنطينا كبيرا من الحجاز وقسما من نجد الى حدود العراق ، فكانت لهم =

والشام أثناء الحج ، وقد تسمى أحيانا سيدة قبائل الحجاز وكانت آخر قبيلة انضمت الى الدولة السعودية . ورغم أن أفرادها لا يمتلكون الا عددا قليلا من الخيول جنوب المدينة الا أنهم اشتهروا بأنهم محاربين من الشيخ الكبير حتى الطفل الصغير . أما ابن بسام فيذكر أن أنهم يملكون اربعين الف مقاتل وعشرة آلاف خيال وهم يسكنون من المدينة الى خيبر . (١)

== أيام دامية مع هذيل ، وسليم ، وعنز ، وجهينه ، ومطير ، وعتيبة ، وغيرها ثم أخذت تقاوم الأشراف فقاتلوها قتالا شديدا ، ثم قاتلت محمد على باشا ، ثم انضمت اليه ، وقد اصبحت حرب اليوم شعبا كبيرا تمتد دياره من القنفذة في جنوب مكة الى حدود العراق ، وتنقسم قبيلة حرب الى فرعين عظيمين هما :

بنو سالم ، ومسروح .

وتنقسم بنو سالم الى :

ميمون ، ومروح .

وتنقسم مسروح الى :

بنو عمرو ، وزبيد ، وعوف ، وبنى على ، وبنى السفر .

وليس صحيحا القول : أن أكثر حرب من العدنانية ، وأنها غير منحدرية من سلالة واحدة ، وهي أقوال درج عليها بعض الباحثين المتأخرين فقالوا : هي مجموعة متحالفة ، وقال بعضهم : هي من هلال بن عامر ، وغير ذلك ، وكل هذه الأقوال غير صحيحة . البلادى - المصدر السابق .

ص ٩٩ - ١٠٠ .

(١) البسام ، مخمد التميمي ، الدر المفخرة في اخبار العرب الاواخر ، (الكويت

١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م) ص ٨٢ .

أما قبائل جهينة^(١) فتقدر قواتها بثمانية آلاف محارب يقتنون بندقية فتيل^(٢) . ومن جنوب مكة الى تهامة عاش بنو فئيم الذين كانوا يزودون مكة بالفحم والأغنام ، وكانوا يتحدثون لغة عربية فصحي أما عدد المقاتلين لديهم فهو ثلاثمائة محارب . أما بنى جحادل فقد أقاموا جنوب بنى فهم فى وادى لملم . وفى وقت السلم كانوا يقومون باصطحاب الحجاج من مكة الى ساحل اليمن^(٣) ، أما قبيلة قريش فلم تملك سوى ثلاثمائة محارب يقيمون بالقرب من جبل عرفات وكانوا يمونون مكة بالحليب والزبد . أما القبيلة التى تلى حرب فى الأهمية فهى قبيلة عدوان ويقدر عدد قواتها خمس وعشرون ألف محارب مائة وثمانية آلاف خيال^(٤) ، غير أن بوكارت يقدر عدد أفرادها بألف محارب ويعزو سبب تناقص عددها الى الحروب المستمرة مع جيرانها ، أما زهران ويقدر عدد قواتها بخمسة وعشرين ألف من المشاة وستة آلاف خيال ، غامد وعدد قواتها^(٥) عشرين ألف محارب وستة آلاف خيال^(٦) .

(١) جهينة : من قبائل الحجاز العظيمة ، تمتد منازلها على الساحل من جنوبى ديرة بلى حتى ينبع تنقسم الى بطنين كبيرين : مالك وموسى ، وهم أبناء جهينة بن زيد بن ليث بن سود بن اسلم بن الحافى بن قضاة من القحطانية وفى هذا الحى بطون كثيرة واجاز منهم أمم الى مصر وانتشروا ما بين صعيد مصر الى الحبشة ، وكثروا هنالك سائر الأمم وغلّبوا على بلاد النوبة وفرقوا كلمتهم ، ونزل بعضهم الكوفة . البسام المصدر السابق ، ص ٧٩ .

(٢) بوكارت ، المصدر السابق ، ص ٢٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٠ .

(٤) البسام ، المصدر السابق ص ٨٥ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٤٥ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٨٢ .

(*) أما قبيلة هذيل ولديها ألف محارب ولديهم قليل من الجمال والأغنام (١) ومنهم بنو خالد . أما ثقيف فقد كانت قبيلة قوية تسكن المناطق الغنية حول الطائف ولها حدائق ولها أعداد قليلة من الإبل إلا أنها تمتلك قطعانا كبيرة من الماشية والأغنام (٢) ، ويقدر عدد مقاتليها بألف محارب وفى الاتجاه الشرقى من الطائف وجدت قبيلة عتيبة (٣) ويقدر عدد مقاتليها حسب رواية ابن بسام بعشرة آلاف محارب وألف خيال وقد تحمل إرداف .

(*) هذيل تقطن ما بين الطائف ومكة وخاصة عند جبل كرا .

(١) بوكارت - المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٤٥ .

(٣) البسام ، المصدر السابق ص ٨٠ .

(٣) الجيش النظامى :

أما فيما يتعلق بالجيش النظامى فلم يكن الشريف يحتفظ بعدد كبير من الجند فى مكة حيث كان عنده ما بين خمسين الى مائة جندي ومثلهم فى كل من جدة وينبع والطائف . لكنه بعد حروبه مع الدولة السعودية الأولى وجد أنه لا بد أن يزيد عدد الجند كما أضاف اليهم عددا من العبيد السود حتى أصبح عددهم ثمانمائة بالإضافة الى عدد آخر من البدو . ففى أول غزوة وجهها ضد الدولة السعودية أرسل مع أخيه عبدالعزيز ستمائة من الجند^(١) فى سنة (١٢٠٥ هـ) وفى الطريق انضم اليها عدد كبير من البدو حيث قدر ابن بشر أن عدد من خرج مع الشريف فى هذه الغزوة عشرة آلاف كما يتفق معه فيلبس فى ذلك . الا أننا نستكثر هذا الرقم لأنه لم يكن هناك احصائية دقيقة اضافة الى هذا أن الدحلان لم يعن بذكر عدد جيش الشريف فى كل غزوة بل كثيرا ما يقول : أرسل عليهم خيلا وركابا وجنودا كثيرة ، وانضم اليهم عدد من القبائل طوائف كثيرة يطول شرحها ، ومن ناحية أخرى فانه عند مجيء محمد على الى الحجاز كان لدى الشريف غالب عساكر نظامية من أهل اليمن وحضرموت والمغرب والسليمانيين يبلغ عددهم ألفين ، مفرقين فى أطراف مكة للمحافظة على الأمن ، وكان عنده من العبيد حوالى ألف للمحافظة على القلاع^(٢) ، كما كان عنده جيش

(١) دحلان ، المصدر السابق ، ص ٢٦٣ ، ابن بشر ، المصدر السابق ، ص ٨٦ .

(٢) دحلان ، المصدر نفسه ، ص ٢٨٦ .

من الأتراك والجراكسة ، إلا أن هذه القوة لم تكن كافية الى الحد الذى يستطيع الشريف بموجبه أن يضمن الأمن لقوافل الحجيج والدفاع عن البلاد فى حال تعرضها لأخطار داخلية وخارجية ، ولم يكن ذلك حال الأشـراف وحدهم بل كان ذلك هو حال سائر الأقطار العربية حتى ذلك الحين^(١). كما جاء فى تقرير الحاج سعد أنه يوجد لدى الشريف من العساكر العرب وأدلاء الأتراك ألف عسكى مشاة وخياله .

وعلى كل فأننا نستطيع أن نتبين قوة الشريف الحقيقية من خلال بعض المعارك العسكرية ، ففي غزوة واحدة للشريف ضد هادى بن قرملة والتي هزم الشريف غالب فيها ، حيث قتل من جيشه نحو ألف ومائتان رجل ، وقتل من العسكر ما ينوف عن الأربعمئة ومن المصارية مائتان ومن المغاربة ثمانون ومن العبيد قتلا وسبيا مائه وخمسون عبدا^(٢).

(١) زين ، المصدر السابق ، ص ١٥ .

(٢) ابن بشر ، المصدر السابق ، ص ١١٣ .

٤ - التحصينات وأساليب الحصار :

كان الشريف غالب يقوم بتحسين المدن باقامة الأسوار حولها فقد أحاط كل من مكة وجدة (١) والطائف بالأسوار (٢) ، فيذكر عبد الشكور فى حوادث ١٢١٥ بأن الشريف غالب عندما وملتة انباء حشود المضايقى أمرالحاكم فى الطائف سليمان بن أحمد الهائفببناء سور حصين يحيط بقرية الطائف وجعل لهذا السور ثلاثة أبواب ، الباب الأول باب السلام ويقال له باب الريح والثانى باب حواية والثالث باب اليمانية كما أمر الشريف غالب أن يحصن بعض جبال مكة بابرار خشبية رغبة وأمنا للسكان ورهبة وتخويفالكل منافق فبنى بقرب المعابدة برجين على رأس جبلين شاهقين وعلى شبه شعبة الجحوف برجين متقابلين وبرج على بئر طوبى وبرجين متقابلين بقرب الشيخ محمود تمنع الداخل مكة عن الورود وأمر ببناء برج على البئر ناحية المنشية .

كما سمح لوزيره بعمل الشئ نفسه فى القنفذة . وكان يقوم فى بعض الأحيان بإنشاء القلاع ففى سنة ١٢٢١هـ أراد أن يبنى له حصنا على رأس الجبل المسمى جبل الهندى وملاّه بالذخيرة والعتاد والرجال . يضاف الى هذا أنه كان ينشئ المراصد بالقرب من الموانئ وبخاصة ميناء جدة وكذلك قام ببناء الأبراج فى المناطق المحيطة بها ، كما يميل

(١) دخلان ، المصدر السابق ، ص ٢٨٦ .

(٢) كما بنى سورا للمدينة ايثياغازى ، مخطوط رقم ٧٨٢ . تاريخ تصويره ١٣٩٦/٧/٦ .

أحيانا الى حفر الخنادق ، كما حدث معه اثناء حصاره للمضائق
 فى بستانه بالأبطح^(١) ، وضمن التحصينات التى يتبعها الشريف غالب
 فى معاركه لجوءه الى الحصار ، كما حدث عند حصاره فى معركة قصر
 الشعراء القرية المعروفة فى أعالي نجد . حيث حاصرها وجعل بين
 رصاص المدافع سلاسل من الحديد ربطوا فيها سلاسل الحديد وضربوا
 بها الحائط ، وبقى الشريف محاصرا لها^(٢) أكثر من شهر ، كما
 كان يستخدم فى كل من مكة والمدينة المتاريس والأبراج^(٣) . ولم
 يكن يتورع عن قطع النخيل والأشجار كما حدث فى رنيه ، كما أحرق
 دور أهل بيشه ودمر الخرمة .^(٤)

-
- (١) وكان الشريف قد أمر ببناء برج على ميناء جدة ٢ جماد أول ١٢٢٠ هـ .
 (٢) ابن بشر ، المصدر السابق ص ١١١ .
 (٣) الوثيقة السابقه رقم ٢/١ .
 (٤) ابن بشر ، المصدر نفسه ص ١٦٣ .

ه - العيون والتجسس

كان يقوم باصدار أوامره الى قواده حتى يقوموا بالاغارة على اعدائه على حين غرة ، كما حدث عندما هاجم فهد بن عبدالله ابن سعيد الخرمة ، كما كان يلجأ للمفاجأة ، فيقوم ببث الجواسيس فى الخامس والعشرين من ربيع ثانى ١٢١٢ - ١٢٩٧ أرسل جيشا بقيادة السيد مبارك بن محمد بن مساعد بن سعيد حيث أغار على قوم من حرب ثم أمده بجيش آخر بقيادة السيد/ سعيد بن سعيد عرمطة فاجتمع الاثنان فى صلبه ثم سارا الى مران، وأرسلوا الجواسيس الذين عادوا وأخبروهم بأن السعوديين قد أعدوا لهم جيشا لا قبل لهم به ، فطلبوا العودة الى مكة الا أن الشريف رفض ذلك وسار اليهم بنفسه.

كما كان يقوم بقتل الدوريات ، فعندما عاد الى السعدية بجيشه قابلته دورية من عسير تبلغ أربعين رجلا قام بقتلهم (١).

(١) دحلان : المصدر السابق ، ص ٢٨٦ .

الفصل الثالث

الحالة الاقتصادية والمالية

أ - النشاط الاقتصادي:

ان الملاحة فى البحر الأحمر محفوفة ببعض المصاعب والأضرار المترتبة عليها ، تستطيع السفن عبور مضائق باب المندب فى طريقها الى المخا ومنها الى جدة والسويس فى فصول معينة من السنة ، ورغم أن البحر الأحمر لا تجوبه سفن قرصنة لها ذات شأن يذكر الا أن الرحلة من المخا الى جدة وعلى الأخص الى السويس باتت فى غاية الصعوبة والخطورة بسبب(*) العديد من الجزر والمياه الضحلة والصخور المغمورة المنتشرة فى البحر الأحمر ، وكذلك بسبب التيارات المتغيرة السائدة فيه . لقد أخذ التبادل التجارى القائم بين مينائى كالكوتيا والمخا وجدة من جهة أخرى يسير نحو التدهور منذ بعض الوقت لقد كانت الكثير من السفن الانجليزية تتردد سنويا فى السابق على ميناء جدة حاملة اليه كميات كبيرة من الواردات التى تحتوى على الموسلين البنغالى الذى كان يباع فى أسواق جدة وكذلك الحرير الهندى والصناعات المصنوعة فى إنجلترا(١) . والأقمشة النفيسة من كل نوع والملبوسات الفخمة والمنسوجات القطنية وكلها سلع تجارية الى أسواق القاهرة ودمشق وحلب وأزمير والقسطنطينية(٢) . ولقد كان الجزء الرئيسى من البضائع المذكورة أعلاه ينقل من جدة الى مكة حيث يعرض للبيع خلال اقامة الحجاج الذين يفدون سنويا الى ذلك المكان . وحسب رأى البريطانيين فان كثيرا من أولئك الحجاج لم يكونوا مدفوعين للقيام برحلة طويلة وخطيرة

(*) المصدر السابق ص ١٧٩ . وثائق وزارة الهند - فاكستورى مصر والبحر الأحمر .

(١) وثائق مارين - ل - ٨٩١ مكتب سجلات الهند وثيقة رقم ٢١ - لندن

(٢) المصدر نفسه ص ٢١

الى قبر النبى محمد صلى الله عليه وسلم لمجرد دوافع الواجب الدينى وبعضهم تجار أثرياء من القسطنطينية وأزمير وحلب ومدن أخرى جهزوا أنفسهم باستثمارات قيمة فى بضائع صالحة لاستهلاك الجزيرة العربية وللأسواق الهندية وبمبالغ كبيرة من النقود بالكراونات الفضية والألمانية ومن ثم يتجهوا صوب دمشق حيث ينضمون هناك الى القافلة الكبرى التى ترحل سنويا الى مكة حاملة المرجان المزيف وحلى أخرى ذات أنسواع مختلفة وأشياء كثيرة أقل أهمية تملح للأسواق الهندية . لقد أصبحت واردات السلع التجارية الهندية تقوم بها فى الوقت الحاضر (١) فى مخا السفن الانجليزية ومن البنغال بواسطة سفن الشحن عائدة الى ساحل مليبار بواسطة قوارب تعود الى عرب مسقط (*)، وتتكون تلك السلع بصفة رئيسية من أقمشة بنغالية خشنة ذات أنواع مختلفة كالسيوف والتنانج البنغالى وغيرها من المنسوجات القطنية والشيلان والفلفل والسكر وسكر النبات والأوانى الصينية والبهارات من جميع الأنواع والمسك والكافور والكرم والنيلة والتبغ وأشياء أخرى كثيرة أقل أهمية وكلها صالحة للاستهلاك ببلاد العرب (٢). وكان سكان سواحل البحر الأحمر مزودين تماما بقوارب قوية بقدر كاف للقيام برحلة من تلك الجهات الى بلاد الهند . وقد اتسم عرب مسقط الذين لهم

-
- (١) - المصدر السابق ، ص ١٨١ ، أى زمن الشريف غالب .
 (*) من هنا نعرف أهمية العلاقة بين الشريف غالب ومسقط حيث كانت علاقة تجارية فى المقام الاول .
 (٢) المصدر نفسه ص ٦٠٦ .

كما سبق أن لوحظ بالفعل نزعة تتم بالنشاط والاقدام ومزودين بسفن جديدة ذات أنواع مختلفة حريصون على أن يواصلوا حتى النهاية تجارة القهوة (*) (البن) التي يجنون منها مزايا لا حدود لها وهم لذلك يولون رحلاتهم الى الهند حق العناية لكي يتمنوا ببضائع أو يستبضعوا بضائع تلائم أسواق المخا والحديد وجدة . بضائع تشكل جزءا رئيسيا من شحنات القوارب التي ترسل سنويا من مسقط الى البحر الأحمر . كما أن عرب مسقط قد وجدوا أخيرا أن من الأسهل والأكثر فائدة أن يجروا مبيعاتهم ومشترياتهم في الحديد بدلا من المخا . فان الجزء الرئيسي من القوارب التي ذكرت آنفا تتردد الآن على الميناء الأول لقد ازدادت واردات ميناء الحديد في خلال هذه السنوات الأخيرة بدرجة كبيرة . أما الموانئ الواقعة على الساحل الغربي للبحر الأحمر فقد أصبحت قليلا ما ترسو فيها السفن البريطانية ولذلك فمن المتيقن افتراقه أنها ترى احتمالا ضئيلا لمزايا تعود على التجار المغامرين من وراء ذلك (١) . سكان بلاد الهند نظرا لكونهم في حالة رثة وغير معقولة فان لهم رغبات قليلة تتجاوز تلك التي يمكن لمنتجات أرضهم المجدية أن تسدها . ومع ذلك فهناك قليل من البضائع الرديئة يباع سنويا للسكان الذين ينتمون الى ذلك الميناء على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر والذي يقع في مواجهة المخا مباشرة ، والذين يقومون بزيارات الى ذلك المكان من حين لآخر حاملين الى هناك امدادات من الأغنام الحبشية (٢) وبما أن اتصالا قد

(*) وهذا أيضا عامل مشترك بين كل من الشريف وامام مسقط .

(١) المصدر السابق ، ص ٨

(٢) وهذه كانت تنقل الى ينبع وكان الشريف غالب قد فرض عليها ضريبة .

تم الابقاء عليه بالقوارب فيما بين جدة والقصير فمن المتيقن افتراضه أن كمية من البضائع المماثلة تجد طريقها الى ذلك المكان وما جاوره أما السفن الانكليزية المذكورة آنفا من البنغال وسفن الشحن السفن العائدة لساحل المليبار فتنقل من المخا الى الهند كمية كافية من بن اليمن (١) لقاء امدادات ذلك البلد من المبالغ الكبيرة من النقود بالعملة الغينية الكروانات الألمانية والحلى الغينية من كافة أنواع القرمز الساسيتى والسلع الأخرى التى تجد طريقها الى جدة عن طريق قافلة دمشق واسطول السويس ، كما تنقل السفن الفرنسية التى تزور المخا كمية كبيرة من البن من هناك الى جزر الموريشيوس - ولم تكن السفن الانكليزية فى الآونة الأخيرة تتردد على جزيرة سقطرة ويفترض أن كمية صغيرة من الأقمشة الهندية الخشنة تقايش هناك سنوياً مع الشراب السقطرى (شراب الصبر السقطرى) ومنذ عدة سنوات أصدرت الحكومة البريطانية توجيهاتها الى حكومة بومباى لانشاء وكالة تجارية (٢) فى المخا . وبناء على تلك التوجيهات تم ارسال السيد جورج فورسلى . وهو رجل ذو مواهب غير عادية الى تلك الجهات برتبة مندوب سام . الا أنه قد تم بعد ذلك إلغاء الوكالة بسهولة على أية حال ويتعين أن انشاءه لم يؤد حينئذ من الناحية المادية الى تحقيق فائدة بالنسبة للحكومة البريطانية والمصالح التجارية فى ذلك الجزء من العالم . وحيث أن الحكومة البريطانية فى

(١) كان الشريف غالب من أكبر المضاربين فى تجارة البن هذه .
 (٢) وهذه كانت سياسة الانكليز فى البحر الأحمر فقد عرضوا اقامة وكالة تجارية فى جدة أى وكالة على الشريف غالب ، كما عرضوا ذلك على امام اليمن والمخا ، كما نرى هنا .

الهند ترغب فى أن تزيد الى أقصى حد ممكن تجارة الشركه ، ونظرا لأنه قد استوقف مؤخرا ما جرت عليه العادة مؤخرا من ارسال سفينة واحدة سنويا من سفن الشركه الأوروبية الى المخا لتحصيل شحنة من البن ، وبما أن الفرنسيين قد فكروا فى هذا الأمر فوجدوا أن من مصلحة بلادهم مرة أخرى أن يعينوا مندوبا ساميا فى المخا^(١) . لذا فقد اعتبر أن انشاء وكالة تجاريه فى تلك البلاد تحت ادارة رجل ذكى متمكن جيد فى الشؤون التجارية ربما أثبت ذلك جدواه كاجراء نفع عظيم ، وهكذا نرى أن تجارة البحر الأحمر كان يسهم فيها الشريف غالب بن مساعد بنصيب وافر لديه تجارة داخلية تتمثل فى المتاجرة مع مناطق المملكة المختلفة فمثلا يحصل على الأغنام الحبشية عن طريق ينبع وجدة وقد فرض عليها ضرائب معينة ويستورد الأغنام من القصيم والتى تزوده بالحبوب الجيدة^(٢) وله تجارة خارجية مع مصر واليمن وغيرها ، يستورد البن مثلا من اليمن ثم يعاود تصديره الى مصر ، وقد بلغت كميته ستمائة غرارة من البن^(٣) سنويا تزيد أو تنقص بحسب الحاجة وكان يحتكر السوق لماله .

-
- (١) وكان الفرنسيون قد أرسلوا من قبلهم الى الشريف مندوبا ، كما أرسلوا الى الامام السعودى الا أن الامام السعودى لم يلتفت اليهم لانشغاله بدعوة التوحيد وكان رسولهم اليه هو لاسكاريس ، انظر سيرة بطل ومولد مملكة لبنوا ميشان بتوا ، تاريخ الطبعة لا توجد ، عبيد العزيز آل سعود ، سيرة بطل ومولد مملكة (دار الكتاب العربى ، بيروت) صفحہ ١٦٨ .
- (٢) داوتى - السفر فى الصحراء العربية ج ٢ / (مطبعة دوفر بنيويورك ، ١٩٧٩) ص ١٢٩ .
- (٣) وثيقة رقم ٨٧٢٥ بدون تاريخ لكن شرحها يدل على أنها زمن الشريف غالب لأنها عبارة عن التماس مقدم من الشريف الى السلطان طالباً اعفاء ستمائة غرارة من البن من الرسوم . دار الملك عبد العزيز الرياض .

(١) أما موازين الذهب التي كانت مستخدمة في تلك الآونة فهي : القيراط السبيكة ، المثقال ، الغازية (٢) ، الدرهم (٣) ، أما النقود فقد كانت عبارة عن القرش (٤) - الليرة الذهبية ، الريال الذي كان يساوي خمسة قروش ، البارة () هي أصغر عملة متداولة في ذلك الزمن والقرش الذي يساوي ٤٠ بارة أربعون بارة ، القنطار (٥) والمشخص(*) والدولار الاسباني وهو يساوي ما بين ٩ - ١٢ قرشا في مكة إلا أنه كان يغير قيمته يوميا وكان القرش يساوي أربعون بارة أو ديوانية(**) ، الرطل أو الروتلو المكاوي يساوي مائة وأربعة وأربعون . والأردب المصري يساوي حوالى خمسة عشر انكليزى . أما في المدينة فقد كان الأردب يساوي ستة وتسعون كيلة أما الرطل في جدة فهو يساوي ضعف الرطل المكاوي .

أما معدل أسعار المواد في مكة عام ١٨١٤م فقد كان كالآتى :

رطل لحم البقر يتراوح ما بين قرشين وإكشتمير أما رطل لحم الغنم فهو بقرشين ، أما رطل لحم الجمل فقد كان بقرش واحد ورطل الزبد بخمسة قروش ورطل الجبن الغير مملح بثلاثة قروش ورطل الفول بستة قروش

-
- (١) وثيقة رقم ٤٣١٣ ، في ١٢٢٠هـ ، داره الملك عبد العزيز - الرياض .
 (٢) نوع من القطع الذهبية
 (٣) وثيقة رقم ٣٧٨٢ في ١٥ ربيع أول ١٢٢٠هـ - داره الملك عبدالعزيز - الرياض .
 (٤) الوثيقة نفسها .
 (٥) الوثيقة نفسها .
 (*) المشخص يساوي أربعة قروش

والبيضة بثمان بارات ورطل الحليب بثمان بارات أيضا ورطل الخضار من السبانخ أو غيرها كالبلبل • بثلاثين بارة^(١) وقرص الخبز بعشرين بارة ورطل من البسكويت الجاف باثنين وثلاثين بارة ورطل العنب المجلوب من الطائف بقرش وعشرين بارة ورطل التمر بخمسة وعشرين بارة ورطل من السكر الهندي بقرشين وعشر بارات ورطل القهوة بقرشين وعشرين بارة والبرتقال بخمسة عشر بارة والليمونة التي تشابه في الحجم الليمون المصري بعشر بارات ورطل الدخان السوري بستة قروش أما الدخان المعتاد فهو بقرش وثلاثين بارة ورطل الدخان الخاص بالغليون الفارسي بثلاث بارات وكيلا الشعير بثلاثة قروش ورطل الدقيق بثلاثة قروش وعشرين بارة والارز الهندي بثلاثة قروش • وقربة الماء بقرش وعشرين بارة وكمية من الفحم تكفى لطبخ طبقين من الطعام بعشرين بارة^(٢) • وحامل الى مسافة نصف ميل الى المدينة بقرش واحد وعربة مع سائق لحمل البضائع والطعام لمدة شهر بثلاثين قرشا •

(*) أما النقود التي استعملها الشريف غالب فهي عبارة عن المشاخص قد صرف لكل واحد منهم ما بين سبعة الى عشرة^(٣) مشاخص ، كما استخدم الريال الفرنسى^(٤) ، والجنيه الاسترلينى^(٥) ، وكذلك القرش^(٦) الا أننا

-
- (١) بوركارت ، المصدر السابق ، ص ٢٤٣ •
 - (٢) البارة أصغر عملة مستخدمة في ذلك الوقت •
 - (٣) دحلان ، المصدر السابق ، ص ٢٨٦ •
 - (٤) المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ •
 - (٥) بوركارت ، المصدر نفسه ص ٢٢٥ •
 - (٦) شكرى ، المصدر السابق ، ص ١٢٦ •

لم نعرف أن الشريف قد ضرب نقودا بأسمه . أما وسائل النقل التى لجأ اليها الشريف ففى المقام الأول الجمال ، حيث استخدمها فى نقل الموءن من جدة الى مكة والطائف . وكان لها دورها الرئيسى حتى كانت السبب الرئيسى فى الخلاف الذى وقع بينه وبين محمد على وأدى الى عزله تليها فى الأهمية الخيول الا أنها لم تكن بالكثرة الوفيرة ولذلك حرص الشريف على حسن المعاملة مع القبائل المالكة لها ، كما استخدم الشريف غالب السفن البحرية لنقل تجارته من جدة الى الهند ومصر واليمن والحبشة ومصوع وكان عنده منها الشئ الكثير بحيث استخدم محمد على بعد مجيئه الى جزيرة العرب جزءا منها فى نقل المتاجر الى السويس وبيع الجزء الباقي (١) .

وتكاد التجارة فى الحجاز أن تكون العمود الفقرى للحياة الاقتصادية وهى تنحصر فيما يحتاجه القاصدون اليها من البلاد الاسلامية من الحاجيات وكلها ترد الى الحجاز من الخارج (٢) ، كما يصدر الحجاز بدوره بعض السلع كالتمر والجلود والصبغ والحناء ولكنها قليلة جدا اذا ما قيست بالواردات ، وتعتبر جدة لقربها من مكة من أهم موانئ الحجاز ، وفى غير مواسم الحج يشغل أهل الحجاز بالتجارة مع كل من سوريا ، ومصر ، والهند ، وأفريقيا ، حيث يجلب اليه الخير الهندى الممنوع وغيره (٣) . وتعتبر مكة من أعرق بلاد الحجاز فى التجارة طوال مختلف العصور التى مرت بها .

(١) وثيقة رقم ١٩٦٦٦ فى ٥ جمادى الثانية ١٢٢٩ جهة الامدار والى مصر ضمن مجموعة الوثائق التركيه ، دائرة الملك عبد العزيز - الرياض .
(٢) العامودى ، محمد سعيد : من تاريخنا . (جده ١٣٨٧ ، ١٩٦٧) ص ١٧١ .
(٣) حافظ ، حافظ الحج الى مكة (لندن ، لا يوجد تاريخ الطبع) ص ٨٥ .

كما احتلت مهنة المطوفين أهمية خاصة نظرا لحاجة الحجاج الى دليل أو ادلاء اثناء الحج ولم تكن مهنة المطوف قاصرة على الادعية وزيارة الأماكن المقدسة فقد كان المطوف يقوم بتوفير كل ما يحتاجه الحجاج من السكن والمأكل وغير ذلك وينقل الحجاج من جدة الى مكة بالشقاف^(١) ، وكان الحجاج الأتراك يملون عن طريق جدة فى مجموعات صغيرة من ثمانية الى عشرة أشخاص يتولى أمرهم دليل كمجموعة ويتقاسم الجميع دفع النفقات ، وعند عودة الحجيج يأخذون اسم الدليل وبعد ذلك يأتى الحجاج ويسألون عن اسم الشخص المذكور بحيث يستقبلهم فى جدة ومن ثم يأخذهم الى كل من مكة والمدينة ، وكان هؤلاء الادلاء يعاملونهم بطريقة تتسم بالأدب والاحترام فلم يجد الحجاج الأتراك أو الذين لا يجيدون كلمة واحدة من اللغة العربية صعوبة فى أداء مناسكهم كما كان لكل دليل مكتب خاص به والمجتمع المكي ينقسم الى طبقات فالطبقة الأولى تتمثل فى أثري الأثرياء ثم تليها طبقة التجار ثم العاملين فى خدمتهم . ومن المعروف أن أشهر الحج تعتبر موسما ، وبعد ذلك أى فى شهر محرم عندما يترك الحجاج مكة تبدأ الاحتفالات .

(١) حافظ ، المصدر السابق، ص ٨٦

ب. - موارد الشريف غالب المالية :

اعتمدت الناحية المالية فى عهد الشريف غالب على ما كانت تعتمد عليه من الموارد فى عهد من سبقه من الأشراف مع ظهور
إضافة مصادر التجارة إليها .

وقد ظلت هذه الموارد مستمرة إلا أنها انقطعت فى فترة من
الفترات خلال حروب الشريف غالب مع الدولة السعودية الأولى وكانت
هذه الموارد من الأهمية بمكان بالنسبة للحجاز فهو يعتمد على ما
يرده من الخارج لأن بلاده قاحلة وغير ذات زرع بالمعنى الذى نفهمه
اليوم ، ولم تكن لهم ميزانية سوى ميزانية الشريف وأهله
بيته (١) ، فلم يذكر لنا المؤرخون أن الأشراف قد عنوا بالصناعة
مثلاً أو التعليم أو غيره ، وقد تمثلت أولى تلك المصادر والموارد
فى الصدقات التى كانت تمثل المصدر الأول سواء من مصر أو من
الهند أو غيرها من البلاد وهى عبارة عن صدقة القمح التى عين
إرسالها السلطان سليم فى مبالغ عظيمة توزع كمخصصات على سكان
الحرمين (٢) ، وكانت هذه الحبوب تصل من ميناء السويس إلى ميناء

(١) بوركارند المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .

(*) كانت أولى محاولات الانكليز مع الشريف غالب هى إقامة وكالة تجارية
فى جدة ، إلا أن ذلك لم يتم . راجع علاقات الشريف غالب

(٢) النهر والى ، قطب الدين محمد بن أحمد ، أخبار مكة المشرفة ، ج ٣ ،
(مكتبة خياط ، بيروت ، لا يوجد تاريخ الطبع) ص ٢٨٧ .

جدة بواسطة السفن ، وكان يرسلها الى جدة نائب السلطان فى مصر
وهى عبارة عن سبعة آلاف أردب منها خمسة آلاف لأهل مكة وألفان لأهل
المدينة . ثم درج السلاطين العثمانيون بعد ذلك على زيادة هذه
الجراية مع تخصيص مبالغ معينة من المال ترسل من خزينة مصر
للأشراف وفقراء الحرمين . ثم يأتى فى المقام الثانى طريق الحجاج
وقد بقى طريق الحجاج كما كان يأخذ طريقه من العقبة الى الشام أو
مصر ، وقد عنى بنو عثمان بمحطاته على طول الطريق ، وكانوا
ينفقون على تحصين القلاع فى العقبة والمويلح وضبا والوجه من
أموال الخزينة التركية ، أما المحامل فقد كانت تمثل مصدرا من
مصادر الدخل للدولة بما تحمله من خلع وهدايا وأموال^(١) . وقد
حرص العثمانيون على ارسال محمل^(*) من مصر وآخر من الشام منذ
بداية وصول نفوذهم الى الحرمين سنة (٩١٣) وقد جرت العادة أن يخرج
الشرىف بنفسه لاستقبال هذين المحملين منذ الشرىف بركات حتى عهد
الشرىف غالب بن مساعد ، وفى سنة ٩٦٣ هـ عرض الوزير مصطفى باشا
المتولى على اليمن على السلطان العثمانى أن يحدث محملا يأتى به
من اليمن ، فأذن له واستمر مجيء هذا المحمل الى سنة ١٠٤٠ هـ ثم

(١) السباعى - المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٥ .
(*) قوافل الحجيج الأربع هى : قافلة الحج الشامى ، وتضم حجاج بلاد الشام
والجزيرة وكردستان ، واذربيجان ، والقوقاز ، والقرم ، والاناضول ،
والبلقان ، وحجاج استانبول نفسها . وكان عددها يتراوح بين ثلاثين
وخمسين الفا . قافلة الحج المصرى وتضم حجيج مصر وشمالى أفريقيا
قافلة حجاج العراق وفارس . قافلة الحج اليمنى : وتضم حجيج اليمن
والهند ، وماليزيا ، واندونيسيا .

انقطعت أخباره بعد ذلك ، وإضافة إلى هذه الموارد كانت للأشراف أملاك في كل من المدينة وجدة والطائف ، وكانت لهم بساتين بالمدينة كالدأودية وغيرها (١) . كما كانت ضرائب ميناء جدة تمثل مصدرا آخر حيث لم تكن تحول لصالح الحكومة التركية فقط بل كان يتقاسمها الشريف والباشا في جده إلا أن هذا الأمر قد تغير بعد مجيء محمد علي إلى الحجاز حيث أصبح يستحوذ عليها كلها (٢) . وقد كانت ضرائب ميناء جده مثلها كأي جزء آخر في الامبراطورية إلا أنها ازدادت في عهد الشريف غالب نظرا لنشاط التجارة في هذا الميناء أولا ولأن الشريف نفسه كان يشارك فيه ، فقد كانت لديه ثمانية مراكب تعمل في نقل البن وتجارته بين اليمن وجدة ، وعندما ينخفض سعره كان الشريف غالب يرغم التجار على شراء البن العائد له بسعر السوق ليتمكن من إرسال ثمنه في الحال إلى اليمن (٣) ، وكانت له سفينتان كبيرتان أحدهما عرفت باسم " بمباي " لها رحلات اعتيادية إلى شرق الهند وهي عبارة عن سفينة مبنية بطريقة سفينة انجليزية تحمل ما بين ثلاثة إلى أربعة أطنان ، والأخرى " كارجوس " التي كانت تحمل بضائع للحجاج في مكة وتستخدم في نقل الحجاج من جدة واليه (٤) .

وبالإضافة إلى دخل ميناء جدة فقد كان هناك دخل ميناء ينبع حيث كان للشريف حاكم هناك يقوم بنفس الأعمال تقريبا . حيث وضع ضرائب

(١) رفعت ، المصدر السابق ، ص ٣٠٥ .

(٢) بوركارت - المصدر السابق ، ص ٢٤٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٤٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٤٥ .

على قطعان المواشى والمؤمن التى كانت تأتى من الداخل الى جدة ومنها
تحمل بعد ذلك الى مكة والطائف وينبع . أما الأشياء التى كانت تصل
برفقة قوافل الحجاج من الشمال فقد كانت معفية من الضرائب ، وكان
سكان مكة وجده لا يدفعون أكثر من هذه الضرائب التى ذكرت فقد كانت
ممتلكاتهم ، منازلهم تخلو من كل أنواع الضرائب بحيث جعلتهم مختلفين
عن جيرانهم فى سوريا ، كما كانت كل من مكة والمدينة معفيتين من
الضرائب سوى ما فرضه الشريف على الأغنام فى ميناء ينبع وعلاوة على أن
هاتين المدينتين كانتا معفيتين من الضرائب الا أن الصرة السنوية كانت
تصلهما بانتظام^(١) ، ولم يكن لدى الشريف أى غضاضة فى قبول هذه المدقات
فها هو الشريف سرور يتلقى هدية أو صدقة فى عام (١٢٠١ هـ) من الهند
تبلغ أربعة وعشرين ألف شخص وصدقة أخرى من سلطان المغرب وثالثة من
محمد خان من الهند^(٢) .

كما كان للشريف غالب قوافل يستخدمها لنقل الأجانب وكان كل مصدر
للتجارة لا بد وأن يكون للشريف غالب نفوذ عليه فقد كان اهتمامه منصباً
على التجارة وكان معدل ثروته فى أوج عظمته حوالى خمسة وثلاثين ألف جنيه
أسترلينى ، ولكن منذ دخول السعوديين انخفض الرقم الى النصف تقريباً ،
وللشريف دخل من بيع المواد الغذائية ، حيث كان يحصل على مبالغ ضخمة
من هذه التجارة^(٣) كما يضاف الى هذه الموارد ضريبة الحجاج الإيرانيين

(١) هوجارت ، المصدر السابق ص ١٤ .

(٢) دى قورى - المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .

(٣) بوركارت - المصدر السابق ، ص ٢٤٥ .

القادمين عن طريق البر من بغداد أو عن طريق البحر الأحمر واليمن
 أما أهم مصادر الشريف فقد كانت عبارة عن تجارة البن فيها هو يكتب الى
 الدولة العثمانية التماسا يطلب فيه اعفاءه من الرسوم الجمركية على
 ستمائة غرارة بن كان يرسلها الى مصر كل عام . فاذا دققنا النظر
 لأدركنا ضخامة هذه الكمية لمصر وحدها في كل عام بحيث طلب ان تخفض هذه
 الرسوم بحيث تدفع على ثلاثمائة غراره فقط . الا أن حاكم مصر لم يوافق
 على ذلك لأن هذا سيؤدي الى نقص في إيرادات ولاية مصر ، كما أنه في
 حالة قبول التماسه فانه سيسعى من جانبه الى التخلص من الرسوم على
 الثلاثمائة غرارة الأخرى .

ويظهر أن المؤرخين قد أخطأوا في تقدير عدد ما لدى الشريف
 غالب من السفن بحيث يتضح لنا من خلال الوثيقة التي حررها محمد على الى
 السلطان العثماني مفيدا بأنه يرغب في شراء سفن الشريف الموجودة عنده
 لأنها من النوع المالح لنقل الغلال عليها . لذلك فهو يعرض عليه شرائها
 من قبله . وأما غير المالحة منها فانه يرى أن تباع للراغبين في شرائها
 كما سيتم اعداد سفن من سفن الشريف ولوازم لنقل حريمه من جدة الى مصر (٢)

(١) وثيقة رقم ٨٧٢٥ مجموعة الوثائق التركية - بدون تاريخ - مسودة
 للسلطان العثماني - دارة الملك عبدالعزيز - الرياض .

(٢) وثيقة رقم ٨٦٤٢ مجموعة الوثائق التركية - رسالة محررة من والى
 مصر الى السلطان العثماني بتاريخ ١٩ ربيع ثاني ١٢١١ دارة الملك
 عبدالعزيز - الرياض .

كما كان الشريف غالب رغم ثرائه هذا لا يتورع عن الكتابة الى
السلطان العثماني بالحاج لتسديد مخصصاته السنوية ، طلبا لجلب دعاء
أهالى الحرمين للسلطان . (١)

وللشريف غالب عامل فى ميناء مصوع يقال له ادريس ، الا أن الأهالى
قد شاروا عليه وطرده فبعث اليهم بعابدى أغا ومعه مائتين من الأتراك
ساعدوا على إعادة الأمور الى سابق عهدا وجلبوا معهم ما كان للشريف من
جوامك (*) من الميناء المذكور ، كما أرسل الشريف أحمد أغا الأسكلى
الطويل ومعه مائتان من الأتراك الى سواكن لجمع ما يتحصل منها من تلك
المناطق وكان ذلك فى ٢١ محرم من دخول السعوديين مكة وهو سنة ١٢١٨ هـ -
١٨٠٣ م . (٢)

كما قام الشريف غالب بوضع رسوم سماها رسوم (وطأ الأرض) على
الحجاج القادمين فى البحر حسب ما يذكره محمد على نفسه (٣) . كما كان
بعض الأشراف يلجأون الى فرض غرامات على السكان فى بعض الأحيان ، وقد
شكلت هذه الضرائب موردا آخر للشريف ، كما كان يصرف للشريف راتب من

(١) الوثيقة السابقة .
(*) جوامك : كلمة تركية وهى تعنى مرتب خدام الدولة من العسكرية
والملكية .
(٢) غازى ، المخطوط السابق . شريط ميكروفيلم .
(٣) عبدالرحيم ، عبدالرحيم : محمد على وشبه الجزيرة العربية (ج/٢) . القاهرة
١٩٨١ م ، ص ٧٧ .

خزينة مكة ، ومصروف جيب بلغ فى عهد الشريف يحيى بن سرور مائة ألف قرش تصرف له من خزينة مصر^(١) . ولذلك تعددت ثروات الأشراف واستطاعوا تكوين ثروات ضخمة نتيجة لتعدد مصادر دخلهم كما رأينا عند الشريف غالب^(٢) .

وكان المعتاد أن يرسل من مصر مبلغ خمسة وعشرون ألف قرش عطية الا أن الأغا قد أخذ من هذا المبلغ أيضا ما مقداره خمسة آلاف قرش وصرفها وأفاد الشريف بأنه من العسير استعادة المبلغ كما يطلب ارساله فيما بعد مع أمناء الصرة ، وحيث أن هذه العطية أيضا قد تعرضت للنقص لذلك فان الشريف يقترح عدم اعطاء أى مبالغ بعد ذلك الا الى أمناء الصرة فقط . أما ما وصل من قبل عبدالله باشا فقد بلغ خمسون ألفا .

كما كانت تصرف للشريف من مصر مبلغ ثلاثة آلاف قرش كمدقة لعين عرفات ، كما تصرف لأهالى الحرمين " علوفات " أى رواتب وهى تصرف من ميناء جدة والتى كان يصرفها الولاية ويجب أن تودى الى اصحابها شهريا منذ ١٠ - ١٥ سنة الا أنها قد أصبحت تتناقص بحيث وصلت فى بعض الأحيان الى رواتب خمسة الى ستة شهور فقط ، ومنذ ثلاث الى أربع سنوات من هذا التاريخ^(٣) أصبحت لا تزيد عن شهرين اثنين ولذلك فاذا حسبنا المتوسط نجد

(١) بوركارت - المصدر السابق ، صفحة ٢٤٥ .

(٢) وثيقة رقم ١٢-٢/١ فى ٤ جمادى الأولى ١٢١٥ هـ دارة الملك عبدالعزيز - الرياض .

(٣) أى ١٢١٥ هـ .

أنها قد تدنت أيضا الى شهر ونصف . الا أن هذه الصرة كانت تتوقف أحيانا لسبب أو لآخر فعندما غزا الفرنسيون مصر فقد توقف (١) ارسال كسوة الكعبة (٢) الشريفة وكذلك الصرة وصنعت كسوة الكعبة في اسطنبول في مسجد الامام أحمد كما نلاحظ أن هذه الأموال كانت عرضة للنقص (*) فقد ذهب الى استانبول سليم أغا ومعه مراسلات من شيخ الحرم عنبر أغا موضحا فيها بأنه نظرا لأن البعض قد أشاع بأنه قد تجاسر على بيع بعض الأشياء المطهرة من الروضة الشريفة هو من باب الافتراء (٣) ، كما أضاف بأن المبلغ الذى أرسل من الدولة العثمانية والذي هو عبارة عن (٢٥٠) مائتين وخمسين كيس ذهب قد أخذ شيخ الحرم منها خمسون كيسا وأن المائتين الباقية وزعت على الفقراء وأن (٣٤) كيسا من الزيادة ظهر فيها نقص مقداره أربعة أكياس فأخذ هذا من المبلغ كما سلم لسليم المذكور ستة عشر كيسا مصاريف سفر وأن ثمانية عشر كيسا أعطيت مصروف رئيس السقاه كما صرفت سبعة أكياس للضيافة في الشام وأما ما بقى وهو ثلاثون كيسا من المال فقد أخذ منها صورا وهدايا وأنه صرف على ذلك ما مقداره ألف وخمسمائة كيس ذهب صرفها في هذا الشأن . وكانت الصرة تتكون من ١١٠٠٠ (احدى عشر ألف ذهب نجومى) كل واحدة بعشرة قروش وكان يصرف منها للخياطة

(١) تاريخ جودت ، ج ٦ صفحة ٢٩٢ .

(٢) أى سنة ١٢١٣ هـ .

(*) كما أن ما يأخذه الفرد كذلك كان يتعرض للنقص فقد يأخذ خمسة بدلا من ستة قروش ، وثيقة رقم ٣٧٨٧ فى ١٥ ربيع الأول ١٢٢٠هـ حيث تدمر الضعفاء فحبس أمين الصرة .

(٣) وثيقة رقم ٤٣١٣ ، ١٢٢٠هـ مجموعة الوثائق التركية - دار الملك عبدالعزيز - الرياض .

عدد ثلاثة أكياس ، والقاضى والمفتى أربعة أكياس أما وكيل القاضى
والمفتى فقد أخذوا سلسلة مقدارها مائة وسبعون درهما كما وزعت
الأكياس لبشير أغا أمين خزانة الحرم خمسة أكياس^(١) ، لكاتب السلطان
كيس واحد ، لكاتب شيخ الحرم كيس واحد ، لكاتب الشريف كيس واحد ،
ونقيب الأشراف والشرفاء خمسة أكياس ، ولشيخ الخطباء كيسان ولأغوات
الحرم الشريف عشرون كيسا وللموذن والرؤساء كيسان ولعبد العين كيسان
ولمفتى الشوافع كيس واحد .^(٢)

(١) الوثيقة السابقة .

(٢) الوثيقة نفسها .

جـ - أوجه الصرف

أما الأموال التي كانت ترسل من اسطنبول الى مكة فقد كان يذهب جزء كبير منها الى خزينة الشريف نفسه^(١)، وعلاوة على ما كان لدى الشريف غالب من ممتلكات في مكة وجدة وما كان لديه من مزارع في وادي فاطمه والطائف، وما كان له من دخل من رواج تجارته مع اليمن^(٢)، إلا أنه لم يكن يتورع عن أخذ أكثر الأموال التي ترسل الى مكة مثلاً كما حدث عندما كان محمد علي يرسل المؤن الى مكة ومن ضمنها زيت القناديل لاضافة المسجد الحرام، كان الشريف غالب يأخذ أكثر ذلك الزيت لاضافة قناديل منزله في حين لا يصرف للمسجد الحرام الا الشيء القليل^(٣). وقد كان ذلك من ضمن الأسباب التي أدت الى سوء علاقته مع محمد علي نفسه فيما يتعلق بامور الصرف.

(١) بوركارت، المصدر السابق، ص ٢٣٠.

وقد يأخذ الشريف معظم تلك الأموال متعللاً بكساد التجارة وغيرها وثيقة رقم ٤٥١٩ تاريخ ٤ جمادى الأول ١٢١٥ هـ، دارة الملك عبدالعزيز بالرياض.

(٢) وثيقة رقم ١٩٦٨ تاريخ ١٢٢٨ هـ، والى مصر محمد علي، دارة الملك عبدالعزيز بالرياض.

(٣) رغم كثرة ما كان يصدر الشريف لمصر من بن اليمن الا أنه كان يطالب الحكومة العثمانية باعفاء ما يصدره لمصر من الرسوم - وثيقة رقم ٨٧٢٥ بدون تاريخ.

وعندما استطاع الباشا (*) أن يستحوذ على السلطة من الشريف كان يصرف له فى عام ١٢٢٨هـ - ١٨١٣م ما بين ثمانمائة جنيه لتموين اساطيله ومستلزماته (١).

وعندما وردته الصرة (**) كما حدث عام ١٢١٥هـ قام بصرف مبلغ أربعة وعشرين ألفا للتجار نظرا لتظلمهم من كثرة ما أخذوا وأبقى لهم بعض الشيء فى ذمته . كما صرف ستة آلاف رواتب سنه لأمير البناء والباقي أى عشرون ألفا أبقاها لاصلاح مجارى المياه نظرا لأنها بحاجة الى تعمير . (***)

وكان الشريف ينفق على منزله يوميا أردب من الحنطة وعدد اثنين من الغنم ، ولا بد أن مثل هذا العدد كان يعتبر ضخما فى ذلك الوقت .

وينفق الشريف من هذه الأموال على الجند ، خاصة خلال حروبه مع الدولة السعودية الأولى (٢).

(*) أى باشا جده

(١) شكرى - المصدر السابق ص ٢٧ ،

(**) وكان منصب أمين الصرة مهما بحيث يملك حق الوساطة بين الشريف ، وأمير الحج ، كما كانت النقود تتعرض أحيانا للنقص اذا لم تسلم بواسطة أمين خاص لها . وثيقة رقم ١٢/٢/١ .

(***) وكانت المياه قد انقطعت خلال اشهر الحج ، كما أشار الشريف بأنه سوف يبدأ فى التعمير ابتداء من شهر محرم ١٠٠٠ ما زاد عن ذلك فيبقى لرواتبه . الوثيقة السابقة .

(٢) الوثيقة نفسها .

أما موظفو الحكومة فيحصلون على رواتبهم من الصرة^(١) التى ترسل من مصر أو الشام التى يأمر بإرسالها السلطان العثمانى من اسطنبول ويخصص جزء منها للفقراء بل حتى لأغنى اغنياء مكة والمدينة وكان المرء فى سبيل حصوله على نصيبه منها يحصل على ورقة موقعة من القاضى والشريف وكاتب الصرة ويدون اسمه فى سجلات خاصة بالصرة حيث ترسل الى اسطنبول ليتم التصديق عليها ومن ثم يرسل الاسم ضمن الكتاب الخاص بالصرة ويعاد الفائض منها الى اسطنبول ، وكان بعض أموال الصرة يأتى بها من مصر ، الا أن غالبيتها تأتى من اسطنبول وقليل من الشام وكان لكل قافلة من قوافل الحج كاتب للصرة^(٢) ، الذى كان يقوم بتدوين سائر الأموال التى تعطى للبدو والعربان فى طريقها الى مكة . وكانت الصرة الخاصة بالمكيين توزع عن طريق القاضى من خلال نافذة بيته وكان أكبر قدر يمكن اعطاؤه هو ما بين عشرة الى اثنى عشر قرشا بالنسبة للفرد وقد تحصل الأسرة على الفى قرش الا أن هذه الورقة قد تستبدل ، وقد تعطى لاشخاص^(٣) آخرين ويقوم القاضى والشريف بالتوقيع على من يستحقها بعد ذلك عن طريق هذه البطاقة الا أن هذه البطاقات قد تكون خالية من الفائدة فعندما توقف ارسال الصرة خلال حروب الشريف غالب مع الدولة السعودية الأولى أصبح وجود هذه البطاقات لا يعنى الزاما بالدفع ، وقد استمر ذلك مدة ثمان سنوات .

(١) وثيقة رقم ٤٣١٣ فى ١١٢٠هـ ، دار الملك عبدالعزيز - الرياض .
 (٢) الا أن هذا الكاتب قد يكون احيانا مصدر شك كما توضح ذلك الوثيقة رقم ٤٣١٣ فى ١٢٢٠هـ ، حيث تلاعب فى الصرة الخاصة بالمدينة المنورة دار الملك عبدالعزيز - الرياض .
 (٣) بوكارت ، المصدر السابق ، ص ١٩٣ .

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية والثقافية

لقد عاش فى كل من مكة وجدة اناس من طبقة واحدة ، اخلاقهم وعاداتهم متشابهة ، فقد كان للأغنياء المكيين منازل فى جدة والنظام الاقتصادى فى كلا البلدين متشابه ، ومعظم المكيين من الاجانب باستثناء بعض الأسر البدوية القليلة ممن كانت لها اصول استقرت هناك كتبيلة قريش القديمة التى سكنت مكة ثم امتدت الى ما حولها بالاضافة الى بعض المجاورين الذين تخلفوا بعد الحج حيث يعملون فى الدكاكين أو التجارة والطوافه وبالطبع فى كل الأعمال وخاصة من لهم آباء فى مكة وهؤلاء مزيج من الأجناس المختلفة من اليمنيين ، والحضرميين ، والهنود ، ومصر ، وسوريا والمغاربة والعثمانيين . وكان من بين المكيين من يعود فى أصله الى فارس ومنهم من التتار وبخارى (*) والأكراد والأفغان وبعض الأسر التى تعود فى أصلها الى الرسول صلى الله عليه وسلم من مختلف البلدان وقد تأقلم هؤلاء مع عادات وتقاليد أهل الحجاز حتى نسوا لغتهم الأصلية . وهناك عدد قليل من السكان الأصليين يتمثل فى الأشراف الذين يعودون فى أصلهم الى الحسن والحسين وبعضهم من أشراف اليمن والبعض الآخر من أشراف الحجاز الذين انقسموا الى عدة قبائل وكانت تسميات الأشراف تختلف باختلاف المهنة التى يزاولونها فبيناك من

(١) بوركارت - المصدر السابق ، ص ١٨١ .
 (*) فقد كان المطوف أحمد تركى ، من بخارى -

هو فى سلك التعليم والقانون ، ويستخدمون فى الغالب المسجد ، حيث يسمى الواحد سيداً أما من يخدمون فى الجندية فيعرفون بالأشراف . أما السادة فكانوا يشتغلون بالشئون الدينية ، وكانت عادة المكيين أن يرث الابن مهنة والده (١) . وكانت أسرة الأشراف تمثل قمة أهل المدينة (٢) ، قبل مجيء الدولة العثمانية .

كما كان هؤلاء الأجانب فى مكة يتركون عاداتهم ويتبعون التقاليد المتبعة فى الحجاز حيث ينشأ أطفالهم ويربون على نفس التقاليد . أما الوانهم فانها تتراوح بين السمرة والمفرة ويميلون بالأحرى نحو السواد تبعاً للبلاد التى ينتمون اليها ، وكان الأشراف يمتازون بعيون وانوف تشبه البدو الى حد كبير تليهم طبقة كبار التجار (٣) والتى كان من بين أفرادها الشيخ أحمد تركى نفسه . وعلى الرغم من فقر البدو المحيطين بمكة إلا أنهم كانوا أكثر صحة من أهل مكة . ومن عادة المكيين الذهاب بالمولود بعد ميلاده بأربعين يوماً الى المسجد ، وهى نفس العادة التى كانت متبعة فى المدينة حسب ما أفاد به المعمرون . (٤)

وقد عمل المكيون فى مهنتين - التجارة أو خدمة بيت الله الحرام وهؤلاء هم من العلماء وأهم ما يميز الحياة فى مكة هو اعتماد السكان

(١) بوركارت - المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

(٢) غازى - المصدر السابق .

(٣) المصدر نفسه . .

(٤) بوركارت - المصدر نفسه ، ص ٢٢٥ .

سواء في مكة أو جدة على ما يردهم من الخارج ولذلك أملت الضرورة على مكة نظاما اقتصاديا اجنبيا ، ويظهر بصورة واضحة خلال أشهر الحج ، حيث يحضر أثرياء الحجاج منتوجات بلدانهم الى جدة بواسطة البحر أو عن طريق الصحراء من دمشق واليمن ، حيث يتم التبادل التجاري هنا بأوسع صورته .

وخلال أشهر الحج تصبح مكة من أهم البلدان في الشرق خاصة لاختلاف الجنسيات^(١) التي تردّها من سائر انحاء العالم الاسلامي ولبضائع مكة خاصة أهمية كبرى بالنسبة للحجاج حيث تأخذ طريقها الى اليمن أو الهند عن طريق تجارة هذه البلاد بنسبة بسيطة أما الجزء الأكبر فيحظى به المكيون أنفسهم ، فقد كان التجار يجلبون بضائعهم الى جدة ومنها الى مكة حيث يربحون من عشرين الى ثلاثين الى خمسين أو المائة في المائة خلال موسم الحج ، ولذلك فيمكن القول بأن سائر أهالي مكة يعملون بالتجارة ومن عاداتهم أن يأخذ كل واحد منهم بضع مئات من الدولارات ليعمل بها في التجارة خلال موسم الحج . وعندما تصل قوافل^(٢) الحجيج سالمة ترسل الى مكة عن طريق بعض التجار الذين يتولون نقل هذه القوافل خلال^(٣) الصحراء أو أخذهم عن طريق جدة من طريق البحر أما بالنسبة لسائر حجاج افريقيا وتركيا فكان هؤلاء يدفعون

(١) بوركارت - المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٧ .

(٣) حافظ - المصدر السابق ، ينقل الحجاج من جدة الى مكة عن طريق

الشقاف ، ص ١٧٠ .

ضريبة مضاعفة عن غيرهم ، وعندما جاء محمد على الى الحجاز كان يحصل على جميع الضرائب . ومن عادة الحجاج قضاء بضعة أيام فى الحجاز قبل موسم الحج . أما فى وقت السلم فان التجارة تنشط مع بادية الحجاز . وخاصة سكان نجد ، حيث يتبادلون معهم البضائع المطلوبة من الهند ومصر واليمن وغيرها ، وخاصة القهوة التى تستخدم كثيرا فى الصحراء والتى يرسل كبار التجار قوافلهم الخاصة الى اليمن لجلبها . أما صغار التجار ومن لا يملكون نقدا كبيرا فقد كانوا يقومون ببيع القمح بين مكة وجدة . وقبل موسم الحج يصبح لكل شىء أهمية خاصة ، ويزاولون جميع أنواع التجارة وتمتلىء المخازن بالأرز والقمح والبسكويت ، وكان عدد الحجيج يصل الى ستين ألفا وعدد الجمال الى عشرين ألفا بالإضافة الى احتياج هؤلاء وأولئك الى مواد تموينية فى طريق العودة ، وكل مكي يملك بضع دولارات يستبدلها بمواد مختلفة (١) .

وهكذا حظى سوق مكة بحركة دائمة ، ارتبط السكان فى جدة بمكة ، فقد كان لهم فيها منازل وتتبادل فيها البضائع .

والمكيون ينفقون كثيرا على منازلهم فهى مغطاه بالسجاد ومجهزة بالأرائك التى كانت تجلب من الصين وغيرها (٢) . وقد كانت الحياة

(١) بوركارت ، المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩٧ .

الاجتماعية فى مكة نشطة فمن عادة نساء مكة زيارة بعضهن مرة على الأقل كل اسبوع ومن عادة المكيين أن يكون هناك خادمة من العباسيين أو السود المجلوبين من الحبشة فى منازل الأسر فى الحجاز أو من أى منطقة أخرى فى آسيا وكان التجار يعيشون حياة سعيدة فيبعد انقضاء أشهر الحج يذهبون الى جدة لطلب بضائعهم أما فى الصيف فهم يذهبون الى الطائف لقضاء أشهر الصيف وبالطبع يعودون فى أشهر الحج الى مكة ويصطحبون الحجاج الى وادى منى . أما فى شهر رجب فقد جرت العادة أن تسير قافلة من مكة الى المدينة ينضم اليها الأعراب على الطريق ومن سائر أهالى الحجاز ونجد حيث يسرون على الجمال الى المدينة فيما يسمى بركب (١) المدينة (*) حيث يبقون فى المدينة مدة خمسة عشر الى عشرين يوما .

أهم ما يميز المجتمع المكى أنه يشبه الى حد السكان فى تركيا فقد كانت الحياة العامة بعيدة عن الخداع والسرقة وقد حظى الخدم بمعاملة حسنة فى عهد الشريف غالب ، فلم يسمع لهم أى عقاب . وكانت لديهم معرفة بالموسيقى ، وان كانت تختلف عن تلك التى كانت معروفة فى الشام أو مصر . وكانت آلاتهم عبارة عن الربابة (٢) ، والنأى (**) ،

(١) بوركارت المقدّر السابق ص ٢٠٠ .

(*) كلمة ركب كانت معروفة لدى أهالى الحجاز ، فقد كانوا يطلقون على قافلة الحج القادمة من بغداد ركب بغداد أو ركب العراق وركب الشام .

(٢) دى قورى - المصدر السابق، ص ١٢٥ .

(**) الربابة : نوع من انواع القيتار .

والطمبور ، وكانت الاغانى تسمع ليلا فى دكاكين القهوة . وكان لدى الشريف مجموعة من الموسيقيين تشبه تلك التى كانت لدى الباشا . وكانت تضرب موسيقاها مرتين فى اليوم عند بابه ولمدة ساعة عند مطلع القمر كل شهر . وكانت الأفراح تقام بمغنيات موهلات لذلك . والغناء يسمع فى كل الطرقات . كما كانت هناك فئة معينة لسقاية الماء وهم من يعرفون بالسقايين وهؤلاء يحملون الماء فى القرب الى المنازل .

كما أن الناظر فى تاريخ مكة قديما وحديثا . يجد أن مكة بمفحة خاصة والحجاز بصورة عامة قد تأثر تأثرا كبيرا بعبادات المصريين سواء فى المأكل والملبس أو حتى اللغة نفسها ، فهناك بعض الألفاظ التى لا تزال باقية الى اليوم وخاصة فى مناطق الوجه وبلاد الشمال من الحجاز (١) .

وقد درج استخدام الخدم لدى أهل مكة وكان العبيد الذين يربون على الخدمة فى مكة يعتبرون أجود أنواع العبيد . وكان من عادة الأشراف أن يكون فى بيت كل شريف بين (٣٠ - ٤٠) عبدا مسلحا عدا الخدم والأقارب ومن يمت اليه بصلة القرابة من البدو الذين يعيشون من تربية الغنم والابل وعطايا الحجاج .

(١) السباعي ، المصدر السابق، ج ١ ، ص ٨٢ .

وقد شغف الأشراف بحب الترف والأبهة والمظاهر . وكانت لهم
أملاك وبساتين من أشهرها الداودية للمعتوقي داود باشا والسبيل
وبضيعة للسادة الأسعدية وسواله للشريف شحات وأخيه ناصر، والشدة
معظمها لآل حماد والحمرة للشريف منصور والقائم للشريف عون أمير
مكة (١).

ففى الاحتفال بالعمرة الرجبية مثلاً تمتلئ شوارع مكة بالهوادج
المشدودة على الابل مكسوة بالحرير وغيره بحسب حالة أهلها، وقد زينت
الابل تحتها بأنواع التزيين وأشعرت بقلائد رائعة المنظر بل ان استار
تلك الابل ربما طالت حتى أنها تسحب اذيالها على الأرض . وقد أسهب
ابن جبير فى وصف هودج الشريفة جمانة بنت فليته عمه الأمير مكث حيث
كانت اذيال هودجها تسحب لمسافة طويلة على الأرض . وكذلك حرم الأمير
وحرم قواده ، كما كانت النيران تشعل لضاءة الطريق على الجهتين ويوقد
الشمع بين يدي الابل التى عليها هوادج من يشار إليها من عقائل نساء
مكة . ثم يمتلئ المسجد الحرام كله وينار جميعه وعندما تثبت روية
الهلال تضرب الطبول والدفادب والبوقات أشعاراً بأنها ليلة الموسم (٢)
ثم يصف لنا ما يقوم به أهل مكة صبيحة تلك الليلة فهم يخرجون فى
احتفال عظيم يختشد له أهل مكة عن بكرة أبيهم كل على حسب مرتبته
قبيلة قبيلة وحارة حارة شاكين أسلحتهم من الفرسان والرجالة حتى
يجتمع منهم عدد لا يحصى . وكان لهم ترتيب معين بحيث يخرج الفرسان

(١) رفعت ، المصدر السابق ، ص ٣٥٥ .

(٢) ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

منهم ويلعبون بالأسلحة يليهم الرجال حيث يلعبون بالسلاح والحرب
ثم يخرج الأمير يحيط به رجال قومه ، ومعظمهم فى سن الشباب وأمامه
الاعلام وتضرب بين يديه الطبول والدباب وتمتلئ الجبال والطرق
والثنيات بالنظارة من جميع المجاورين . ويسير الأمير فى استعراض
عسكرى كما نسميه فى العصر الحاضر أو مهرجان . كما يخص اليوم
التاسع والعشرين من الشهر لطواف النساء . وكما كان المكيون
يحتفلون بالغمرة الرجبية كذلك أفانهم يحتفلون بغسل الكعبة ، وليلة النصف
من شعبان وليلة عيد الفطر ، بل أن بعض الأشراف احتفل بختان ابنه
مدة سبعة عشر يوما^(١) . فقد احتفل الشريف سرور سنة (١٢٠٢) بختان
بعض أولاده وأولاد أخيه فاستمر الحفل سبعة عشر يوما كانت عيداً اشترك
فيه أهل الحارات جميعهم بالعابهم ومزاميرهم^(*) ، كما اشترك الجند
ورجال الحرس بموسيقاهم التى يسمونها النوبة . وكان بداية ذلك
الختان والفرج فى اليوم العاشر من ربيع أول من العام نفسه وتم فى
هذا الفرج ما لم يسبق له مثيل فقد ألبس الناس الملابس الفاخرة لكل
من حضر الختان ونثر الذهب والفضة على الحاضرين . كما كان أهل
الحارات يقومون باستعراض عظيم يتم بعده الانعام عليهم بالملابس والعطايا
الجزيلة ، وبعد صلاة المغرب ينصب الديوان بالعساكر وتأخذ الموسيقى
فى العزف بالضرب على الدباب ويتم استعراض السادة الأشراف ويتم
الباسهم ملابس فاخرة . كما ينعمون على أهل البادية وتقام الولائم

(١) دحلان - المصدر السابق، ص ٢٢٤ .

(*) وحدث الشيء نفسه لأبناء الشريف غالب . دحلان ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٥ .

للسادة والعلماء وأعيان اهل مكة حيث تحفل الموائد بما لذ وطاب من أنواع الطعام والشراب . وفى نهاية مدة الاحتفال البالغة سبعة عشر يوما يأمر الشريف عساكره بالطواف فى سائر انحاء مكة ، وهم يضربون الطبول والدبابت فيعم الناس الفرح العظيم . كما أقام الشريف سرور فرحا آخر فى غرة ربيع ثانى خاص بالنساء وصنع لهن وليمة دعا فيها المغنيات والبسمن أفخر أنواع اللباس وأخذن يصدحن بالغناء مدة ثلاثة أيام .

وكان الشريف غالب كعادة الأشراف مولع بالترف أيضا فمثلا كانت له مقصورة خاصة عليها عدد من العبيد . وكان منزله يحوى العديد من الخدم للأشراف على تربية الاطفال ، علما بأن هؤلاء الأشراف كانوا يعهدون بأبنائهم الى البدو ليتولوا رعايتهم حتى سن الثالثة عشر أو الرابعة عشر لينشأوا محاربين أقوياء . (١)

أما الألعاب التى كانت منتشرة فى مكة فى ذلك الحين ، فقد كان الزبائن يلعبون بالمنقل أو الداما لأن معظمهم من تجار المنسف الثالث ، ومن البحارة ، أما الأشراف فلا يلعبون الا بالشطرنج وفى منازلهم . (٢)

(١) بوكارت - المصدر السابق ، ٢٦٤

(٢) بيرين - المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .

١ - الملابس :

كان لباس كبار القوم عبارة عن الجبة فى الشتاء ، كما كان الحال فى سائر اقسام الامبراطورية ، وشال من الكشمير ، وتربان من الموسلين وصندل أصفر ، أما فى الصيف فقد كانوا يرتدون ملابس خفيفة من الحرير صناعة الهند . أما الطبقة العليا فقد اتخذت الطراز التركى فى الملابس ، أما لباس الطبقة الوسطى فهو عبارة عن لباس من الموسلين الهندى ، أما الطبقة الفقيرة فكانت ترتدى قطعة صفراء من صناعة الهند أو مصر ، وكلا الطبقتين الفقيره والوسطى ترتدى الصنادل عوضا عن الأحذية وأما أفضل الصنادل تأتى من اليمن حيث تأتى سائر الصناعات الجلدية الا أن اهم ما يميز المكيون نظافتهم التى لا توجد فى أى مكان آخر (١).

والفرد الذى لا يستطيع شراء ملابس لمناسبات معينة يستطيع أن يستأجرها لمدة يومين أو ثلاثة بحوالى مائة قرش فى حين يكون ثمنها الأسمى ما بين خمسمائة الى الف قرش . أما خلال الاحتفالات فقد كان المكيون يرتدون شيلانا من الكشمير وبعد ذلك تحفظ الملابس الى حين الاحتفالات ونساء مكة وجده يرتدين الحرير المطرز بالفضة وعليه حبرة (٢) سوداء وعليه ملاءة صناعة الهند ويضعون على وجوههن البراقع فى حين يسمح للأطفال باللعب فى الشارع . (٣)

-
- (١) بوركارت ، المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .
 (٢) الحبرة ، نوع من القماش كان يعرف فى تلك الفترة وهو يشبه الحرير الأسود المستخدم فى مصر أو الشام .
 (٣) المصدر نفسه ٢٢٥ .

وكان الشريف يرتدى الملابس التى يرتديها كبار أهل مكة وعلى رأسه غطاء من الحرير وعليه عباءة صناعة الاحساء وشال من الكشمير وصندل أصفر . أما موظفو الدولة فقد كانوا يرتدون معطفا أخضر ويحملون السلاح حيث يطلق عليهم المكيون الأشراف . أما التجار ومن يعملون فى القانون والمسجد فيربطون عمامة صغيرة من الحرير على طواقيهم^(١) . وكان الشريف يضع طربوشا أخضرا وعليه قماش من المسلمين الأبيض أو الشال الكشميرى . حيث تحمى وجه مرتديها من أشعة الشمس . وكان يسمح لكبار التجار بعمل الشئ نفسه . الا أن ذلك لم يكن منظرا مألوفا للجميع^(٢) ، وعندما يخرج الشريف من منزله يحمل فى يده عصاة صغيرة ملساء تسمى مطرق كالبدو .

(١) دى قورى ، المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

(٢) بوركارت ، المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .

٢- عادات الزواج :

كما أن المتتبع للحياة الاجتماعية التي كانت عليها مكة زمن الأشراف يجد كثيرا من العادات والتقاليد التي كانت سائدة بين الأشراف أنفسهم أو بين أهل مكة خاصة وقد بقى بعض هذه العادات وأندثر معظمها ومع أن المؤرخين العرب الذين خاضوا في تاريخ مكة لم يذكروا لنا الكثير منها . إلا أن دى قورى أفرد لها فصلا في كتابه ونحن مع أننا لا نأخذ برأيه كحكم قاطع ، إلا أننا نجد أن معظم ما ذكره عن حياتهم كان منه شيء كثير في الحجاز حتى عهد قريب ، فقد حدثنا به الأقدمون والمعمرون وهو يبدأ أول حديثه عن حياة تلك الأسرة المحمدية بشيء من التجنى على الأشراف وخدمهم بل على المسلمين عامة حين يحاول أن يقدم للقارئ الأوروبي الراغب في معرفة تلك الصور الاجتماعية بتسمية ذلك المنزل الذى يضم نساء الشريف وخدمه بأنه نوع من أنواع السجن^(١) . حيث يضم المنزل أربع زوجات وعدد من العبيد لا يعلم عدده سوى الله . وأن حديث الشريف عن حريمه كان يعنى زوجته ومن داخل منزله من الذين تربطهم به صلة القرابة أو الخدم حيث كانت تخصص أماكن خاصة للنساء وأخرى للرجال فلم يكن هناك اختلاط بين الجنسين في أماكن الأثرياء ، كما درجت العادة بالتدخين ، كما أنه في حالة انفصال الزوجين فإن أحد أقارب الزوج أو الزوجة يتحمل كامل المسؤولية ، وهذا ما يخفف خطورة

(١) دى قورى ، المصدر السابق ، ص ٨٣ .

الطلاق . كما أن الزواج كان يتم بواسطة اختيار الأهل للزوجة وموافقة أقارب الزوجة على الزوج ، وكان الزوج يتكفل بالانفاق على الزوجة فى المأكل والملبس كما يضاف اليها وجود خادم أو خادمة لتقوم بالخدمة ، كما كان الزوج يتكفل بكل ذلك فى حين أنه ليس له الحق فى أن يملك فلسا من نقودها (١) . كما أنه حتى فى حالة الطلاق فإنه شرعا يكون على الزوج حق تأمين المسكن والانفاق لـها ولأولاده . وكانت معاملة الزوج تنطوى على ضرورة المعاملة الحسنة عملا بالآية الكريمة "عاشروهن بالمعروف الخ الآية (٢) .

مع أن معظم المكيات فى ذلك الوقت لم تكن تتجاوز فى تعليمها معرفة سورة الفاتحة . كما كان ذهاب الزوج للحج يتم بعد أخذ إذن الزوجة كما كانت العادة عند المكيات أن يسافر الزوج الى مناطق بينما تبقى المرأة فى مكة . ولكنها لم تكن تعمل مع زوجها فى موسم الحج فقط بل كانت تبذل كل مساعدة له باخلاص كامل . وكان الزوج احيانا يتناول طعامه فى الخارج مع اصدقائه ، الا أن مكة كغيرها من المدن قد تغيرت فالمرأة فيها كانت تحرص على لبس الذهب والفضة ووضع المدورة (٣) اسوة بغيرها من النساء ، كما كانت المرأة تفضل ان تخبىء

(١) دى قورى ، المصدر السابق ، ص ٨٥ .

(٢) الآية (١٩) سورة النساء .

(٣) المدورة : غطاء تضعه السيدات على رؤوسهن من الحرير الخالص الشفاف مربع الشكل مطبوع عليه نوع معين من الزخرفة .

نقودها فى حفرة من الأرض أو تضعها عند أحد الزوجين ، ولكن الزواج فى مكة امتاز بأن الزوجين كانا يتقاسمان معا الحياة بخلوها ومرها (بما معناه)^(١) .

وكان الأغنياء يفضلون تزويج ابنائهم فى سن الثالثة عشرة للاستفادة منهم فى التجارة والبقاء فى المنزل ، وقد كانت لهم احتفالات كثيرة فمثلا احتفالات الزواج يبالغ فيها بحيث ترتدى العروس عدة اشكال من الملابس فى نفس الاحتفال ، أما فى حالة الطلاق فقد كان الزوج يلزم بدفع ما بين ١٠ - ١٢ دولار للزوجة لمدة ثلاثة أشهر فيما يسمى بنفقة العدة ، أما خطبة العروس فقد كانت تتم عن طريق ذهاب والدة العريس والاطلاع على اخلاق وتصرفات المرأة ومن ثم اذا رأتها مناسبة لابنها تبدأ فى الحديث مع أهل العروس وتبدى رغبتها ... الخ^(٢) ، واذا تمت الموافقة يحضر والد العريس ووالد العروسة ومن ثم تتم قراءة الفاتحة ويتم تحديد يوم الملكة^(٣) ، حيث يعرض فيه أثاث العروس وتوزع على الحاضرين علب الحلوى من نوع معين خاص بهذه المناسبة بعد أن يكون قد تم الاتفاق مسبقا على المهر والذى كان الوالد يضيف اليه الشيء الكثير أما بالنسبة للطبقة الوسطى فلم يكن المهر يتجاوز بضع مئات من الدولارات ويحضر الى والد العروس محمولا على صينية فضية مغطاة بالشاش أو بالموسلين والقصب .

(١) دى قورى ، المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٥ .

(٣) يوم الملكة : هو اليوم الذى يتم فيه كتابة عقد القران .

وفى يوم الزواج تعد العروس بعد وضع الحناء فى يديها وهو ما يسمى بيوم الغمره ثم يتبعها وضع خيوط من الفضة فى شعرها معلقة فى الغوازى^(١) وهو ما يعرف الآن بالشرعة " وأعتقد انه تقليد تركى " ، كما يعلق فى شعرها أيضا المحموديات^(٢) والمشاخص وهو ما يعرف بيوم الدخلة^{(٣)*} ، يتلوه فى صباح اليوم الثانى الصبحة، أما صبيحة يوم العرس فتقدم الزلابية كطعام ويستمر الاحتفال الى المساء .

كما كان التعليم يكلف كثيرا اذا ما قيس بدخل أبناء الطبقة الوسطى ، لذلك يعهد ببعض الأبناء الى المطوفين حتى يقوموا بتعليمهم المهنة ، ولم تكن هذه المهنة شيئا سهلا ، فقد كان على المطوف أو من يساعده أن يؤدى سائر الخدمات للحجاج ، وقد يتطلب ذلك جهدا شاقا وعند زيارة الطفل للمدينة والعودة منها تعمل له سرارة بأن يركب على الخيل ويرتدى أجمل الثياب ومن ثم يطاف به فى شوارع مكة أو المدينة^(٤) وقد اعتمد المكيون فى جزء من دخلهم على الحجاج سواء فى موسم الحج

(١) الغوازى : مفردا غازية ، عملة ذهبية تعود الى أيام السلطان محمود ، ويظهر عليها تاريخ هو ١٢٢٣هـ (١٨٠٨ - ١٨٠٩ م) وهى تساوى حوالى دولار .

(٢) المحموديات : وهى تساوى حوالى أربع دولارات .

(٣)* يوم الدخلة : هو يوم الزفاف ، دى قورى ، المصدر السابق ، ص ١٢٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٢١ .

أو العمرة أو الزيارة ، ومن بين تلك العادات التي كانت منتشرة في تلك الفترة عادة الاحتفال بالمولد النبوي حيث يعمل نوع خاص من الأرز وأنواع متعددة من الحلوى ، ويزور الأهل بعضهم بعضا احتفالاً بالمولد النبوي .

كانت مهنة الطب في مكة يتوارثها الأبناء والأحفاد . وكان القائم بأعمال الطب يقوم بفحص المريض بعد النظر في عينيه وفمه ومن ثم يصف له الدواء معتمدا على خبرته في الموضوع فمثلا يقول عندك نوازل أو قبض أو غير ذلك وتكون بداية العلاج قائمة على الحمية كتناول أشياء باردة أو ساخنة أو أخذ فطيرة خبز حسب نوع المرض وغالبا ما توصف الشربة (١) كعلاج ومن ثم يعطيه علاجا قام هو بأعداده (٢) . (وفي رأيي أن مثل هذا الأمر لا زال موجودا عند بعد العامة في بلادنا مع الأسف رغم ما تقوم به الدولة من تقديم أفضل الخدمات الصحية بدون مقابل ومتاحة للجميع) كما يتقاضى في مقابل ذلك أجرا مرتفعا ، ويتم تجبير الكسور عن طريق لف الأخشاب حولها ، كما تعالج أمراض المعدة عن طريق أخذ النانخه (٣) ، وأنه بالرغم من وجود طبيب تركي في ذلك الحين إلا أن الفرق بينه وبين هؤلاء المطبيين لا يعدو درجة واحدة ، كما أنه وجد صعوبة في تغيير فهم العامة لما اعتادوا عليه فقد يقع في حيره عندما يحدثونه عن الجن والزار وغير ذلك وكان المكيون يلجأون إلى مسلمي تونس والجزائر والمغرب ليجدوا عندهم بعض الشفاء عن طريق السحر ولم تكن فكرة السحر عند العامة فقط ، بل كانت منتشرة لدى جند الشريف

(١) أي المسهل .

(٢) دى قورى ، المصدر السابق ، ص ٩٦ .

(٣) النانخه : نوع من أنواع البهارات

نفسه ، وكان المرء يلاحظ أن بعض المكيين يضعون انواعا من التماائم لحمايةهم من كل أنواع الشياطين ، كما كانت التماائم تعلق على صدور الأطفال داخل صناديق صغيرة أو توضع فى سلسلة حول العنق ، كما يقومون بتشريط خدود الأطفال فيما يعرف بالمشالى لحمايةهم من عيون الشياطين (١)

كما كان بعض المكيين يرتدون خاتما فضيا فى أصابعهم لحمايةهم من الامراض وأنه لو حصل أن مرض الشخص بالرغم من ارتدائه تلك الدبله فان الزوجة سوف تقوم باشعال البخور وتدعو للرسول فاذا فشلت كل تلك المحاولات لجأت الى الشيخ ليكتب لها رسائل أو كلمات تحرقها فى النار ومن ثم تعطى رمادها للمريض بعد مزجه فى الماء ، ويكون المريض قد أعد لذلك نفسيا وبعد فشل كل تلك المحاولات يتم الذهاب الى الطبيب . وكانت الأم تقوم بوضع أقراص (أى أقراص من الخبز) تحت رأس الطفل وبعد أن ينام عليها الطفل ليلة تعطيها فى الصباح للكلاب ، كما تقوم بتبخيره بالفاصوخ بعد مزجه مع الملح حيث يمر عليها سبع مرات لحماية من العين ، ويتم تعليق صندل قديم أو غيره لجذب الانتباه والحمايه من الحسد كما كان تغيير اسم الجارية الجميلة بعد شرائها ضرورة لأن فى ذلك حماية لها من الجن وكان الأطفال أيضا يفتقدون العناية الصحية وتتم مداواتهم بأساليب قديمة فاذا مرض الطفل لجأت الأم الى تنويمه عن طريق اعطائه بعضا من مغلى بذر أبو النوم (بذر الخشخاش) وقد كانت هذه الأمور متبعة الى عهد قريب . (٢)

(١) دى قورى ، المصدر السابق ، ص ٩٧ .

(٢) الفاصوخ : نوع من أنواع البخور .

٤- علاقة الشريف غالب بالقبائل

وكانت من عادات أشراف مكة أن يعهدوا بأبنائهم الى البدو ليقوموا بتربيتهم ، وقد سار الشريف غالب على نفس السياسة فبعد ولادة الطفل بسبعة أيام أو ثمانية على أقصى حد يؤخذ من أمه ويرسل الى البادية حيث ينشأ مع أبناء البدو متشربا طبائعهم متسما بروح الصحراء ويبقى هناك الى أن يبلغ ثمان أو عشرة سنوات لا يزور فيها والديه الا زيارات قصيرة فى فترات متباعدة ولم يكن هذا التقليد متبعاً لدى الذكور فقط بل حتى الاناث بعد ولادتهن كان يعهد بهن الى البدو ليقوموا بتربيتهن وتنشئتهن وبعد بلوغهن العاشرة يعدن لمنازل أسرهم. (١)

واحتفظ الاشراف بحسن العلاقة مع هؤلاء البدو واعتبروهم أصدقاءهم بل كثيراً ما سمح لذكور الأشراف بالتزواج مع هؤلاء البدو وكان الغرض من ذلك هو أخذهم اللغة العربية الفصحى من

(١) بوركارى ، المصدر السابق ، ص ٢٢٩ .

أهلها بطلاقة ، كذلك الرغبة فى تنشئة اجسامهم قوية كى تمكنهم من مراعاة تقاليد الصحراء عند تعاملهم مع البدو . وكان أبناء الأشراف الذين يولدون نتيجة هذا التزاوج يعهد بهم الى قبائل عدوان لتقوم بتعليمهم نظرا لما عرف عن هذه القبيلة من الاشتهار بالشجاعة والكرم .

وكان الشريف الذى ينشأ فى خيام هؤلاء البدو يناديهم بأبى وأمى وأخوتى ويحترمهم كما لو كانوا والديه فعلا ويستمع لنصائحهم ، وعندما يعود الشريف الى اسرته تبقى تلك العلاقة بينه وبين من نشأ بينهم فهم يزورونه فى مكة حيث يستقبلهم فى نفس المكان الذى يستقبل فيه الآخرين ويقبل هداياهم ولا يسمح لهم بالعودة قبل تزويدهم بالهدايا من قبل ابنهم . كما كانوا يطلقون عليهم الأرحام لارتباطهم بهم عن طريق الصداقة ويصغون لمشورتهم ، ولم يكن الشريف لينسى مطلقا تلك الخيام التى نشأ بين أهلها وكان يطلق على أهلها عشيرته . ولم يكن ينس زيارتهم فى الربيع أو فى أى وقت عندما يعن له ذلك ، وأحيانا يشاركهم تجوالهم وحروبهم .

وقد أظهر الشريف^(١) غالب وده العميق لآبائه من البدو ، فعندما يزورونه كان يقف احتراما لهم ويقبلهم ، بل الأكثر من ذلك انه لم يكن

(١) بوركارت ، المصدر السابق ، ص ٢٣ .

من السهل على أبناء الأشراف بعد العودة من البادية التعرف على آبائهم الأصليين ، وكثيرا ما كانوا يهربون الى البادية وينضمون الى أصدقاء طفولتهم أى البدو فى الصحراء (١)* .

وقد سار الأشراف من بعده على تلك السنة المحمدية . الا أنهم الأعراب الوحيدون فى الجزيرة الذين لا زالوا يتبعون تلك العادة وكانوا يسمون البدو (الموالى) وكان الشئ نفسه ينطبق على قبيلة البوتنت حيث يعهد عندهم بالقائد الى قبائل أخرى لتقوم بتنشئته . وقـــد استطاع الأشراف أن يستفيدوا من تعاليمهم البدوية ليس فقط الحيوية والنشاط والميل الى الحرية كعادة أهل البادية بل اكتساب صلاية البيئة بالاضافة الى صفاء الروح والكرم أكثر مما لو نشأوا فى مكة نفسها .

ومن هنا اتسمت تصرفات الأشراف تجاه تلك القبائل بالود والمداقة ولم تقتصر علاقة الشريف بالقبائل على حسن المعاملة والمداقة فقط ، بل كانت هذه القبائل مهمة للشريف فى عهد السلم عند الاستعانة بها لتولى الامارة فكلما تولى الامارة أمير من الأشراف استمال اليه مجموعة من القبائل (٢) . وكما كانت هذه القبائل مصدر قوة فقد كانت مصدر خطر أيضا فقد كتب الشريف سرور فى عام (١٢٠١ - ١٧٨٦) الى حاكم

(١) بور كارت ، المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .

(*) ويظهر ان هذه العادة قديمة جدا فى الجزيرة العربية وقد عهد بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم الى الأعراب من بنى سعد ليقوموا بتنشئته .

(٢) المصــــدر نفسه ، ص ٢٣٠ .

مصر (أى قبل أن يلى الشريف غالب بفترة وجيزة فقط) يخبره فيها عن عصيان قبائل حرب وغيرهم ، ولذلك يجب أن يكون أمير الحج لديه قوة لأن الحرب قائمة بينهم وبينه وأنه قد خرج عليهم فى نحو خمسة عشر ألفا (١) ، ولا نستبعد أن يكون ذلك بتدبير من الشريف غالب .

وكان الشريف غالب يحرص على أن يكون له مجموعة موالية لـه فعندما حارب الشريف بيته فى عام (١٢١٢) والذى انتصر عليهم وذلك بسبب وجود بطانة له منهم مالت معه . ونظرا لأهمية هذه القبائل فى حماية الشريف والدفاع عنه نرى أن الأتراك يدركون هذه الأهمية فقد اعتمدوا على رأى القبائل فى تزكية الشخص المراد تنصيبه ، بل انهم وضعوهم فى المقدمة كما حدث ذلك عند تعيين عنبر أغا الصغير شيخا لحرم المدينة ، فقد طلب الى الوالى فى المدينة الوقوف على حال وحركات شيخ الحرم وأخذ رأى الأهالى والعربان فى المقدمة (٢) . وعندما تعرضت المدينتين المقدستين لبعض الاضطرابات نتيجة لسوء تصرف الشريف غالب كتبت الدولة العثمانية الى كل من بدای شيخ حرب والى الامام عبدالعزيز تطلب رأيهما انه فى حالة اقضاء الشريف غالب هل سيكون لهما مطلب غير ذلك (٣) .

كما كان لهذه القبائل دور فى تأمين الطرق التجارية ، مثال ذلك عندما اشتد القحط على مكة سنة ١٢٢٠ هـ وعانت الحجاز من نقص المؤن

(١) الجبرتى ، المصدر السابق ج/٢ ،

(٢) الوثيقة السابقة رقم ١/٢/١

(٣) الوثيقة نفسها .

بسبب انضمام قبائل الحجاز وعسير وتهامة الى ابن سعود حتى بلغت كيلة
الأرز والحب فى مكة ستة أربل (١) ، وكان نقل المؤن بين مكة وجده
والطائف والمدينة يتم بواسطة القبائل .

وهكذا كان لهذه القبائل دور فى الاقتصاد القومى أو الوطنى بما
تقدمه من المواشى والمواد ، فعندما انضمت قبائل غامد وزهران للواء
الدولة السعودية الأولى أثرت على الاقتصاد فى الحجاز باعتبارها بوابة
رئيسية لمرور المؤن الغذائية والسلع الاستهلاكية الى اقليم الحجاز ،
كما لعبت هذه القبائل دورا فى تزويد مدن الحجاز بما تحتاجه من القمح
والذرة والشعير وغيره فى ايام السلم والحرب . (٢)

(١) الدحلان ، المصدر السابق ، ص ٢٦٢ .

(٢) داوتى ، المصدر السابق ص ٧٩ ، ١٥٧ .

ثانيها: التعليم زمن الشريف هالب

=====

المصادر التي بين أيدينا لا تشير بوضوح الى الحياة العلمية في عهد الشريف غالب ، لكن من المؤكد أن المسجد الحرام يمثل المدرسة الأولى بل كان يمثل الجامعة الوحيدة في مكة . وكان يصرف للعلماء من جهات مختلفة ، فالمفتون ينالون أجرا أكثر من المعلمين ، ولذلك كثيرا ما كان المعلمون يلجأون للتجارة لتأمين مصدر معيشتهم وكان الأشراف ينفقون على التعليم بما يتلقونه من معونات سنوية من مصر وغيرها من البلدان كاليهند مثلا في شكل صدقات لأهل البيت وكان على السلطان التركي أن يضمن وصول المعونة السنوية الى كل من مكة والمدينة لأن عدم وصولها في حينها يؤثر على سمعة السلطان نفسه ، وكانت المعونة تتكون من النقود والذرة وترسل من مصر وكان أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء يحصل على نصيبه من تلك المعونة في حدود (٢٠٢) رطل من الحنطة المصرية . (١)

وكان المفتى يتولى الافتاء ، وكان شيخ العلماء يمثل سلطة الحكومة ويجتمع بالعلماء في الحرم بعد صلاة العشاء ليتدارسوا أمورهم وكانوا يستخدمون دواة للكتابة وأقلاما خشبية وكان عدد الطلبة الذين يحضرون الدروس الصباحية يتراوح بين ١٠ - ٦٠ طالبا .

(١) دى قورى ، المصدر السابق، ص ١٧٩ .

وكان المذهب الشافعى هو الغالب فى مكة فى حين ان الحكومة العثمانية لم تهمل المذاهب الأخرى ، وكان علماء الحنفية يحصلون على اكبر اجر فى مكة وبعضهم يتلقون تعليمهم فى الجامع الازهر فى مصر ، وتضم مجالس العلماء هذه مختلف الفئات من البالغين . (١)

كان كل شىء فى مكة خاضعا للتعاليم الاسلامية الا فيما يتعارض مع المصلحة فعندئذ يلجأ المرء الى الفتوى ، وكان وقت الدرس مرهون بحالة الطقس ، ففي الصيف مثلا تخفف دروس بعد الظهر وكان العلماء من جنسيات مختلفة وكانت بداية التعليم تتم بعد اتقان اللغة العربية وستظل مكة فى كل الأوقات مركزا للعلم لكل العالم الاسلامي (٢) ، الا أن انتشار التعليم والعلوم لم يحظ بعناية كبرى ، وسبب ذلك يعود لانشغال الناس بأمور معيشتهم ، ولذلك لم يزدهر العلم ، كما ازدهر فى مصر أو الشام وقد اقتصر التعليم على التدريس فى المسجد الحرام فى حلقات تعقد بعد صلاة الظهر يحضرها طلبة من الهند واليمن وأفريقيا ونسبة ضئيلة من أهالى مكة ، وكان التلاميذ يتعلمون القراءة والكتابة وبعض الأمور الدينية ، وكانت كتابتهم تختلف عن تلك التى كانت شائعة فى مصر أو الشام ، بل ان الكتابة كانت تختلف ما بين منطقة وأخرى من المناطق كما كانت اللغة التركية مهمة بالنسبة لهم لارشاد حجاج الأتراك (٣) . أما

(١) دى قورى ، المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢١٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٢٥ .

أول ما يتعلمه الطفل فهو القرآن الكريم حيث يؤخذ الأطفال الذين يقدر آباؤهم على دفع تلك المصاريف البسيطة الى الكتاب حيث يقوم الفقيه أو المعلم بتعليمهم القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة على الواح من الخشب تنظف بعد كل استعمال ، وكان أفضل الأطفال هو من يستطيع أن يحفظ أكبر قدر من القرآن حيث يسمى حافظ^(١) . أما الأطفال الذين لم يكن آباؤهم يرغبون في اختلاطهم بالآخرين فقد كان يتم استئجار الفقيه ليحضر الى المنزل ليعلم الطفل تعليما خاصا ، وكانت البنات تذهبن مع الصبيان حتى سن الثامنة ثم تحفظ الفتاة في المنزل أو ترسل الى سيدة فقيهه ، وبعد أن ينهى الطفل حفظ جزء معين من القرآن تعمل له وليمة حيث يحصل بعدها الأستاذ على ما يعادل ثلاث دولارات ، وقد تسمى اصرافه ، وهذا النوع ايضا كان موجودا بالمدينة المنورة الى عهد قريب قبل افتتاح المدارس ، وكلما زاد عدد الأجزاء التي تم حفظها كلما حصل الفقيه على مبلغ أكثر قد يصل الى ثلاثين دولارا أو بدلية وجبة وكان من بين تلك الاحتفالات كذلك الاحتفال بانتهاء الطفل حفظ كتاب الله كاملا في وليمة أكبر .

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٢٥ .

الفصل الخامس

—٠—

علاقات الشريف غالب بالدول العربية والإسلامية

الدولة السعودية الاولى

لا نعرف سوى القليل عن الاحداث التي سبقت قيام التحالف بين كل من محمد بن سعود وبين الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وذلك لان اهل نجد وعلماءها لم تكن لهم عناية بتدوين تاريخ تلك المنطقة او سرد ما مر عليها من الاحداث بصورة جلية . بل ما وجد من تاريخهم لا يشفى الغليل (١) اذا ما قيس بتاريخ غيرهم ، وكل ما نعرفه هو انه في الفترة التي بدأ فيها ظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، كان محمد بن سعود يحكم فـي الدرعية . فقد ولد الشيخ في بلدة العيينة سنة (١١١٥ - ١٢٠٣) وتوفي سنة (١٢٠٦ - ١٢٩١م) وكان والده يعمل قاضيا لدى عبد الله بن معمر وقد نشأ الشيخ نشأة دينية ، كما قام بعدة رحلات الى مكة والمدينة والبصرة للاستزادة من العلم ، وكانت الجزيرة قد انتشر فيها كثير من البدع والخرافات . وكثر الاعتقاد في الاشجار والاحجار والقبور والبناء عليها والتبرك بها . وكانت زيارة الشيخ لمكة وهو لم يبلغ العشرين كما قصد المدينة حيث اخذ عن الشيخ عبد الله بن سيف . عاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى نجد بعد رحلة لم تكلل بالنجاح الى البصرة كما زار الاحساء . وفي سنة (١١٥٣ - ١٢٤٠م) صمم الشيخ محمد بن عبد الوهاب على ترك جانب الحذر ، وخرج يندد باعمال الشرك التي كان يمارسها الاهالي فاعتنق بعض اهالي حريملاء المبيـداً الذي انتهى الى كان يدعوا اليها . (٢)

(١) ابن بشر ، المصدر السابق ص ١١ .

(٢) فيلبس . سنت جون المعروف بعبد الله ، تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن

عبد الوهاب السلفية ، تعريب عمر الديراوى (منشورات المكتبة الاهلية

بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٥٥ .

وهنا اشتد اعداؤه فأضطر الى مغادرة حريملاء والعودة الى مدينة العيينة لان اميرها عثمان بن معمر قد تفهم دعوة الشيخ ورحب به . فذعر ابـن غرير لذلك وكتب الى عثمان بن معمر يطلب منه ايقاف اعمال الشيخ محمد بن عبد الوهاب والحكم عليه بالموت ، والافانة سمنع من تقديم المـوئ والاموال التى اعتاد تقديمها الى العيينة في كل سنة ، وكانت هذه المنح بمثابة مبالغ تدفع الى امير العيينة ، لتأمين حقوق تجارة الساحل في المتاجره مع المنطقة الداخلية وتأمين سلامتهم ، وهى عبارة عن الف ومائتى (١) قطعة ذهبية (احمر) مع كمية مساوية من الاطعمة والبضائع . فلم يكن امام امير العيينة سوى ان يخير صديقه بين الرحيل او كتمان الدعوة لعدم رغبته في ضياع ما يوؤديه له بنو خالد . فلم يجد الشيخ بدا من الرحيل الى الدرعية ، وحين وصلها قصد بيت محمد بن سويلم العرينى ، فوجل منه خشية معرفة ابن سعود بالامر الا ان بعض اهل الدرعية قصدوا زوجة محمد ابن سعود واعلموها بأمره ، فطلبت من زوجها ان يناصره ويأخذ بيده فسار اليه محمد بن سعود ماشيا وبشره ببلاد خير من بلاده وعز بأذن الله . كما استفسر منه عن دعوته فلما شرحها له الشيخ تم الاتفاق بين الاثنين على النصرة واعلاء كلمة الدين الا ان ابن سعود اشترط على الشيخ شرطين وهما : اولهما الا يرحل عنهم ان هم ناصروه ، والثانى انه يأخذ مالا من اهل الدرعية على الثمار وخشى ان يمنعه محمد بن عبد الوهاب من اخذه . الا ان الاخير طمأنه وان الله سيعوضه عن ذلك خيرا كثيرا . (٢) وهكذا تم التحالق بين كل من الامير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب الذى كان في العقد السابع من العمر عندما بايع ابن سعود . وقد تم ذلك الاتفاق

(١) ابن بشر ، المصدر السابق ص ١٠ .

(٢) ابن بشر ، المصدر نفسه ص ١٢ .

بين الامير والامام سنة (١١٥٨ - ١٢٤٥ م) (١) وقد كانت الدرعية آنذاك ، ذات موارد ضئيلة لدرجة ان طلاب الشيخ محمد بن عبد الوهاب اضطروا للعمل ليلاً كي يوءمنوا معيشتهم . وقد اقام الشيخ في ضاحية البجيرى ، اما امراء آل سعود واتباعهم فكانوا في قلعة طريف وآمست البجيرى هذه المركز الثقافى للعاصمة . هكذا بداية انطلاق الحركة الاصلاحية التى وصلت موجتها الى اقصى البلاد العربية .

اخذ شأن الدرعية يعلو وكثر فيها الاموال والرجال والسلاح المحلى بالذهب والفضة الذى لا مثيل له (٢) . فخشى امراء القرى والبلدان المجاورة في اقليم نجد بأس هذه الدولة الفتية .

اما ما يهمنا هنا فهو الجانب الاخر وهو بداية العلاقة بين الاشراف في الحجاز والدولة السعودية الاولى .

علاقة الاشراف في الحجاز بالسلفيين : -

اعتبر الشيخ محمد بن عبد الوهاب بأن ما كان يسود الحجاز من الخرافات والبدع لا يمت للدين الاسلامى بصله ، ومن ناحية اخرى اعتبر الاشراف اتباع الدعوة السلفية خصوما للدين . تجددت المراسلات بين مكة والدرعية في عهد الشريـف احمد بن سعيد (١١٨٥ - ١٢٧١ م) الذى ارسل الى الامير عبد العزيز بن محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب يطلب منهما ارسال احد علمائهم ليوضح لـه

(١) الريحانى ، امين نجد وملحقاته (مؤسسة دار الريحانى ، بيروت ط/٤، ١٩٧٢) ص ٤٤

(٢) ابن بشر ، المصدر السابق ، ص ١٣ .

ولعلماء الحجاز حقيقة ما يدعو ان اليه . فأجاباه الى طلبه وارسلا اليه الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الحصين (١) مزودا منهما برسالة وهدايا للشريف احمد . موضحين في رسالتهم انهما لا يدعو ان الى دين جديد بل عودة الى الدين الصحيح كما جاء به اجداده . وبالفعل فقد وصل مبعوث آل سعود الى مكة ، واجتمع بعلمائها وناظرهم ودار بين الفريقين جدال ونقاش حول حقيقة مبادئ الدعوة واحتكم الفريقان الى كتب الحنابلة ، ولكن لم يتم الاتفاق بين كل من مكة والدرعية (٢) . ولم توضح لنا المصادر عن قيام اية محاولة للتفاهم مع الدرعية ، بل ان الشريف احمد نفسه لم يسمح لاحد من اهل نجد بأداء فريضة الحج .

وبعد انتهاء فترة حكم الشريف احمد بن سعيد وقيام الشريف سرور بن مساعد مكانه ، الذي آلت اليه الامارة سنة (١١٨٦ - ١٧٧٢م) ارسلت اليه الدرعية تطلب السماح لاهل نجد بأداء فريضة الحج . فأشترط سرور ان يدفع النجديون ضريبة اسوة بالحجاج الايرانيين . فرفض سعود ذلك ولم يتمكن احد من اهل نجد من اداء فريضة الحج الا خفية . (٣) وهكذا استمرت العلاقات بين كل من آل سعود والاشراف بعد ذلك قرابة عشرين عاما يسودها الركود وعدم التفاهم حتى تولى امر شرافة مكة الشريف غالب بن مساعد (١٢٠٢ - ١٧٨٧م) الذي لعب دورا بارزا في العلاقات السعودية الحجازية ، ففى عهده اخذت هذه العلاقة تتسم بطابع مميز فلم تقتصر على المراسلات بين الطرفين بل ادت الى قيام معارك حربية هائلة جرت بلدانا اخرى في اطارها .

(١) ابن بشر ، المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(٢) ابن غنام ، المصدر السابق ص ١٣١ - ١٣٣ .

(٣) السباعي ، المصدر السابق ح/ ١ ص ٣٤٥ .

العلاقة بين الشريف غالب والسلفيين

نجد آل سعود في توحيد اقليم نجد وامتد نفوذهم الى مشارف الخليج العربي ، في الوقت الذي تسربت فيه مبادئ الدعوة السلفية الى الحجاز واعتنقها بعض الاعراب فذعر الشريف غالب من اخبار هذه القوة التي وصلت اليها الدرعية . فقام بارسال كتاب الى كم من الامير عبد العزيز بن محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب طالبا ارسال احد علماء الدعوة فأرسلا اليه عبد العزيز الحمين ومعه كتاب يبين مبادئ الدعوة وان اهلها على مذهب الامام احمد بن حنبل (١) . وقد وصل مبعوث الدرعية الى مكة واجتمع بالشريف غالب عدة مرات وطلب مناظرة علماء مكة الا ان العلماء رفضوا عقد المناظرة واوغروا صدر الشريف ضد آل سعود ، وانتهت المهمة دون الوصول الى اتفاق . بل عجلت بالمواجهة بين الطرفين (٢) .

رغم ان آل سعود لم يكونوا قد فكروا في مناهضة الاشراف او مبادرتهم بالحرب ، وكان الشريف غالب هو الذي بدأ بالهجوم فقد كان قادرا على تكوين جيوش كبيره ، فقد ارسل عام (١٢٠٥ - ١٧٩٠م) جيشا بقيادة اخيه عبد العزيز وصل الى قصر بسام ، الا ان هذا الجيش قد منى بالفشل رغم طول مدة الحصار وقلة عدد المهاجمين مما حدا بالشريف غالب ان يسيّر بنفسه على رأس جيش كبير لمساعدة اخيه الشريف عبد العزيز الا انه رغم ذلك لم يقدر لاي من جيش الشريف النصر ومنيت حملاته بالفشل عند

(١) عبد الرحيم ، المصدر السابق ص ١٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٠ .

قصر الشعراء (*) بعد حصار استمر حوالى شهر ، مما جعله يتخلى نهائيا عن فكرة احتلال نجد . وانسحب عائدا الى مكة وكان لذلك اثر كبير في تدعيم القوات السعودية التى احرزت النصر على قوات الاشراف حتى ان الامير سعود بن عبد العزيز قام بعمليات تأديبية ضد القبائل التى ساندت قوات الاشراف مثل قبائل مطير وشمر .^(١) وهكذا انتهت المرحلة الاولى من الصدام بين الشريف وآل سعود ، ولكن ترى ما الذى جعل الشريف غالى يفشل من اول معركتين ، هل كانت قوة الحجاز ضعيفة بحيث انها لن تستطيع الصمود امام آل سعود ، ام انها كغيرها من الدول العربية الخاضعة للعثمانيين في الواقع كان الحجاز كغيره من الاقطار العربية يعاني من الجهل والانحطاط^(٢) . فقد كان العالم العربى خاضعا لسلفه الاتراك خضوعا نابعا من اعتقاده بان السلطان العثمانى المسلم حامى المسلمين وانه لا يحق الخروج عليه . كما كانت قوتهم محدودة . لذلك فشلت حملات غالب ، بل الانكى من ذلك ان الاشراف لم يكونوا قادرين على فرص الا من خارج حدود امارتهم ، فقد عرفنا الكثير عن خروج رجال القبائل وقطعهم الطريق ونهب الحاج وما كان الشريف يقوم باكثر من ردع هذه القبائل ولكن لفترة محدودة ثم لا تلبث ان تمارس نشاطها . في حين امتاز اتباع الدعوة السلفية بالصرامة في تطبيق مبادئ الدعوة والاستبسال في الدفاع عنها مما وهبهم الهيبة وساعدهم على النصر ضد اعدائهم .

(*) الشعراء : هى بلدة معروفة بهذا الاسم في عالية نجد ، شرقى جبل فهلان بهما مزارع ونخيل ، ابن بليهد ، محمد بن عبد الله . صحيح الاخبار عما في بلاد العرب من الاثار (مطبعة الامام ، الرياض ، ١٩٥٣) .

(١) ابن بشر ، المصدر السابق ، ص ٨٧ .

(٢) زين ، المصدر السابق ، ص ١٥ .

وتغير موقف كل من الطرفين المتحاربين فأخذت قوات الدرعية خطة الهجوم لا الدفاع (١). وقد كان لذلك اسبابه التي من اهمها انضمام بعض القبائل الحجازية في تربة ورنية وبيشة الى الدعوة السلفية رغم محاربة الشريف غالب لهذه القبائل . كما انضمت قبائل عسير وتهامة الى لواء الدعوة وفي الوقت الذي تمكن السعوديون من احكام سيطرتهم على الاحساء اصبحت فيه سلطه الاشراف مهددة من الداخل والخارج . فطلب الشريف غالب النجدة عام ١٢٠٧ - ١٧٩٢م ولكن دون جدوى (٢)، وارسل لذلك السيد / محسن بن عبد الله الحمودي والسيد / حسين مفتي المالكية (٣) . وقد كان لموقف الدولة العثمانية اثر كبير في اضعاف جانب الشريف في الوقت الذي قوى فيه مركز الدرعية واخذت تركز هجماتها الى جهة الغرب واخضاع الحجاز " الذي يادرها بالهجوم " لسلطانها ، خاصة بعد امتداد سلطانها الى الشرق . (٤) تابع الامير سعود تقدمه حتى وصل سنة (١٢٠٩ - ١٧٩٤م) بالقرب من تربه ، الا انه لم يتوغل في الاراض الحجازية . وفي الواقع فقد أخطأ الشريف غالب الذي حكم هو واسلافه الحجاز منذ القرن الرابع العاشر الميلادي حين ظن في بادى الامر ان باستطاعته ان يقضى وحده على الدولة السعودية الناشئة (٥) . وقد حاول الشريف غالب ان يرد على تلك الهجمات ، فقام باعداد جيش جعل قيادته للشريف ناصر بن يحيى وسار به الى منطقة " ماء

(١) عبد الرحيم ، المصدر السابق ص ١٣٤

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٤

(٣) دحلان ، المصدر السابق ص ٢١٦

(٤) عبد الرحيم ، المصدر نفسه ص ١٣٥

(٥) بروكلمان ، كارل - تاريخ الشعوب الاسلامية نقله الى العربية نبيه امين

فارس - منير البعلبكي ط ٥ / (بيروت ١٩٦٨) ص ٥٥١

الجمانية " بعالية نجد الا ان القوات السعودية تمكنت من هزيمة هذا الجيش (١) وكثر القتلى في الفريقين (٢) . وواقعت بجيش الشريف خسائر كبيرة . في الوقت الذى قررت فيه قوات الدرعية ان تقوم بهجوم شامل على اطراف الاراضى الحجازية ، سنة (١٢١١ - ١٧٩٦) حيث اغارت على فريق من اعراب شـهـر وسارت الى بيشة حتى وصلت الى رنية وبعد ان تم اخضاعها جعل امارتها لمحمد بن سعيد بن قطنان حيث اصبح بذلك ممثلا لسلطة آل سعود في تلك الناحية . وقد كان لتلك الاعمال الناجحة اثر كبير على السكان الذين سارعوا باعلان خضوعهم للدولة السعودية في حين اخذ موقف الشريف غالب يضعف خاصة بعد انضمام القبائل التى كانت تسانده في قتاله ضد الدرعية مثل مطير وقحطان وعتيبه الى لواء السعوديين في الوقت الذى كان يخشى عزله من قبل الدوله العثمانية التى لم تبد اى محاولة لمساعدته . وازداد الوضع الاقتمسادى سوءا في الحجاز بسبب الحصار الذى كانت تفرقه القوات السعودية على كثير من الطرق الرئيسية الموصلة الى كل من مكة والمدينة والطائف . (٣) وقد حارب الشريف غالب هذه القبائل التى اعلنت خضوعها للدرعية ولكن دون جدوى وارسل الشيخ احمد تركى للدولة العثمانية ١٢١٢ - ١٧٩٧ فلم تكثر له . في حين سارعت القبائل التى تقطن حول مكة وخاصة قبائل العتيبان الى ارسال حمود بن ربيعان مندوبا عنهم الى الدرعية لمبايعة الامير عبد العزيز بن محمد بن سعود ، واعتناق مبادئ الدعوة السلفية . وقد رحب الامير بذلك

(١) عبد الرحيم ، المصدر السابق ص ١٣٦

(٢) ابن بشر ، المصدر السابق ، ص ١٠٤

(٣) عبد الرحيم ، المصدر نفسه ص ١٣٧

واجهابهم الى طلبهم (١). وهذا يدل على مدى تغلغل النفوذ السعودي داخل الاراضى الحجازية ، فقد تمكنت من هزيمة الجيش الذى قاده الشريف غالب بنفسه عند الخرمة (٢). ولم يقم الشريف بعد ذلك بأى عمل ضد آل سعود كما ان الدولة العثمانية ارسلت اليه بضرورة تحصين الحرمين الشريفين ضد الفرنسيين ، وطلب في الوقت نفسه عقد صلح مع الدرعية . وقد دامت مدة هذا الصلح ست سنوات ، اضافة الى ان نفوذ آل سعود قد امتد على معظم الاراضى الحجازية واصبح معترفا به من جانب الاشراف ، كما نودى في مكة بعقد الصلح وعدم التعرض لآل سعود واتباعهم باليد او اللسان ودخل حجاج الدرعية مكة (١٢١٤ ، ١٧٩٩) . وظل الامير طوال مدة الصلح يحج الى مكة . الا ان هذا الصلح ما لبث ان انتقص بعد انضمام القبائل التى كانت تابعة للشريف الى لواء الدولة السعودية (٣) . كما اتيم الشريف الدولة السعودية بافساد هذه القبائل ورأى في هذه الاعمال نقضا للصلح (٤). وقد رد الامير عبد العزيز على الوفد الحجازى بأنه سيعمل على انتهاء هذا الامر ، الا ان الموقف ازداد تدهور بانضمام عثمان المضائف* الى جانب الدرعية . حيث بايع الامير عبد العزيز بن محمد بن سعود حلى دين الله

(١) عبد الرحيم ، المصدر السابق ص ١٣٨

(٢) الخرمة : بضم الخاء وفتح الميم اخرها هاء بلدة يتبعها عدد من القرى وهى مرتبطة بامارة مكة المكرمة .

(٣) دحلان : المصدر السابق ص ٢٦٨

(٤) المصدر نفسه ص ٢٦٧

* المضائف : هو عثمان بن عبد الرحمن صهر الشريف غالب ومن خاصته بمنزلة الوزير ولكنه اختلف عليه وانضم الى جانب الامير عبد العزيز بن محمد بن سعود وقد قبض عليه الجيش التركى وقتل سنة (١٢٨٨ - ١٨١٣ م) الزركلى ، المصدر السابق

ورسوله والسمع والطاعة (١). ثم تبع ذلك انضمام كثير من قبائل الحجاز التي اعلنت خروجها عن طاعة الشريف فأرسل عثمان يطلب العون من الدرعية ضد الشريف غالب (٢). وتمكنت القوات السعودية من الاستيلاء على الطائف سنة (١٢١٧ - ١٨٠٢) وتولى عثمان امانة الطائف والحجاز (٣).

مكة تحت النفوذ السعودي :

وقد تبع ذلك قيام الامير سعود بقيادة جيش كبير الى مكة . قد حاول الشريف غالب الكتابة للدولة العثمانية محدودا ، كما استعان بأمرء الحج الا ان الجميع اثر العودة الى بلاده سالما ، وانسحب غالب الى جده (٤). ودخل الامير سعود مكة معلنا الامان لاهلها ، كما امر بتطبيق مبادئ الدعوة السلفية . ثم وضع حامية سعودية في مكة وعاد الى الدرعية ، فأسرع الشريف غالب بمهاجمتها واستردها سنة (١٢١٨ هـ) وما أن وصل الامر الى الامير سعود الذي آل اليه الحكم بعد اغتيال والده حتى امر ببناء قلعة عسكرية في وادي فاطمة كما صدرت اوامره الى عبد الوهاب ابو نقطة امير المع وعسير وتهامه بأن ينضم الى الجيش الذي سيحارب الشريف غالب ، وتمكنت القوات السعودية من هزيمة الشريف وواصلت التقدم نحو مكة ، وقد ساعد سوء الاحوال الاقتصادية

(١) ابن بشر ، المصدر السابق ص ١٢٢

(٢) عبد الرحيم ، المصدر السابق ص ١٤٤

(٣) ابن بشر ، المصدر نفسه ص ١٢٣

(٤) عبد الرحيم ، المصدر نفسه ص ١٤٥

على انضمام كثير من الاشراف تحت طاعة السعوديين (١). وهنا ادرك انه لم يعد قادرا على التمدد للسعوديين فأرسل يطلب الملح على ان يبقى في امارته تابعا للسعوديين، وتم الملح بين الطرفين، ودخلت القوات السعودية مكة وفتحت الطرق وعم الرخاء، وبذلك تم لآل سعود الامر في جميع انحاء الحجاز، ودخل الحرمان في حوزة الدولة العربية الجديدة (٢).

(١) عبد الرحيم، المصدر السابق ص ١٤٧

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٨

ثانياً : علاقة الشريف غالب بمصر

لقد ازدادت علاقة الشريف غالب بمصر نتيجة لازدياد نشاط تجارته فى البحر الأحمر ، فقد كان يصدر لمصر ما مقداره ستمائة غرارة من البن كل عام ، مما دفعه الى طلب تخفيض ما يدفعه من رسوم جمركية لحاكم مصر . فقد كتب الى السلطان العثمانى التماساً بذلك^(١) . وقد أرسله عن طريق حاكم مصر نظراً لأن الدولة العثمانية كانت تركز الى ما كان يبديه حاكم مصر من آراء تجاه منطقة الحجاز نظراً لقربه منها^(*) ، ولمعرفته بما يدور داخلها من أحداث مع بعد مركز السلطنة عنها . وقد تجلت هذه العلاقة فى عهد الشريف غالب بن مساعد الذى كان يسعى للحصول على معونة منها عندما علم غالب بأن محمد على يعد العدة لغزو الحجاز ، وانه يعد حملة ضخمة لم يأت بمثلها أى باشا من الباشوات الذين حاربوا الدولة السعودية من قبل فالحكمة تقضى أن يبدأ اتصالات سرية مع محمد على - وأعداً إياه بالتخلى عن ولائته للسعوديين حال رؤيته جيوش عثمانية كبيرة تظهر على شواطئ الحجاز ومن خلال هذه الاتصالات زود الباشا بعلومات كثيرة عن السعوديين والحجاز والقبائل ونقاط الضعف والقوة وأى الطرق يسلكها فى الهجوم عليهم . وكان السيد محمد المحروقى رئيس تجار مصر

(١) وثيقة رقم ٨٧٢٥ التاريخ غير موجود مرسله من الشريف غالب الى السلطان العثمانى عن طريق حاكم مصر ، دارة الملك عبدالعزيز ، الرياض

(*) أى لقرب حاكم مصر منها أى من منطقة الحجاز .

(٢) دى قورى ، المصدر السابق ، ص ١٩١

الذى سبق له أن حضر الى مكة يعتبر ضمن من لهم دراية بالتجارة فى البحر الأحمر لذا أسند اليه أمر تدبير الأمور مع بدو الساحل أى ساحل البحر الأحمر . لكن محمد على كان يشاوره الشك من جراء سلوك الشريف ، كما كان يخشى الا ينظر الشريف بعين الارتياح لتدخله (*) فى الحجاز . ولذلك اعطاه الوعود الكثيرة لتأمين جانبىه وأول تلك الوعود أن سلطته فى الحجاز ستحترم ، وأن دخل جمارك جده مورده الأساسى للانفاق سيبقى فى يده ، وفى نفس الوقت عمل محمد على على نشر تقارير سرية بين الجنود المصريين تفيد بأن قوات الشريف ستنضم اليهم حال وصولهم الى الحجاز . الا أنه رغم كل المراسيم التى اتبعت عند استقبال محمد على لدى وصوله الى جده فى ٣ شعبان ١٢٢٨ - ٢٨ أغسطس ١٨١٣) والذى استقبله الشريف غالب فى السفينة مصحوبا بطوسون واطلاق المدافع تحية لـ (١) ، فإن الخلاف ما لبث أن دب بين محمد على وغالب على دخل جمارك جدة يضاف الى هذا أن محمد على قد قام بتوزيع مبالغ جسيمة من المال على العربان عن طريق غالب الا أن الأخير لم ينف بالتزاماته . وهنا يتفق الكاتب مع ابن بشر فى أن غالب كان يخدع ويخون . وفى الوقت الذى كان يتظاهر لمحمد على بالولاء الا أنه كان يداخله الشك نحوه . كما فعل سابقا مع ابن سعود فكان يظهر له الود ويراسل المصريين سرا . وفى رأينا أن الشريف

(*) أى لتدخل محمد على فى الحجاز .
 (١) جـــــــــــــــــوان - المصدر السابق ، ص ٤١٦ .

الحرمين ، وبما أنه قد حصل ارسال الجيش من قبل الدولة العثمانية الى جهة الحرمين في حين جمع ابن سعود قواته . لذلك أصبح لا مفر أمامه من اندلاع نار الحرب في الأراضي المقدسة ، ونظرا الى ما عرف للجميع من أهل الحرمين أنفسهم فقراء لا يستطيعون الدفاع ولا يقدرّون على محاربة الدولة السعودية ، ونظرا الى أن جيش ابن سعود قد أصبح من الكثرة بحيث لم يعد الشريف قادرا على مواجهته لذلك يرى أن يتوسط هذا المحب العدائى أى الشريف بين الدولة وبين ابن سعود ليقوم الحجاج كما هو معتاد منذ القدم بسلوك طريقهم وهم في أمان (١) ، وأن يعقد الصلح حالا مع ابن سعود وتوقف فتنة الحرب والجدال ، وأن تعطى الأموال المجهزة مع الصرة لعشائر العربان حتى لا يقوم أى فرد من العربان بمطالبة الحجاج بشيء ، كما يتعهد في مقابل ذلك بتأمين الطريق الواقعة في ذهاب وإياب الحجاج ، طالبا رأى السلطان في ذلك ووضع هذه الشروط في صيغة معاهدة للصلح على أن يكون ذلك عاجلا ليتمكن الشريف من اختيار من يثق فيهم لذلك ، وإذا رأى السلطان العثماني أمرا آخر فليكتسب ذلك تماما (٢) . إذ أن تجمع هؤلاء فيما بين مكة ووادي فاطمة قد صدر به أمر ابن سعود . ونظرا الى أن المحافظين الذين أوكل اليهم أمر المحافظة على المدينة بعيدون عن الشريف ولا يعلم من أمرهم أى شيء كما أنه يلتمس من السلطان ابداء الرأى فيما يراه . كما يفيد به بأنه

(١) الوثيقة السابقة

(٢) وثيقة رقم ١٩٦٨٤ في ١٢٢٨ جهة الاصدار والى مصر - دارة الملك عبدالعزيز . الرياض .

غالب لم يكن يخدع سوى نفسه فقد حاول اللعب بأكثر من عصا فلم يخسر سوى عصاته فقد تأرجحت مواقفه مع السعوديين والمصريين وكان اعتقاده فى ولاء المصريين له على خطأ . وكان الأجدر بغالب أن يضع يده فى يد ابن سعود وأن يؤسّس الاثنان دولة اسلامية داخل الجزيرة تمتد من الخليج الى البحر الأحمر ، فتتمدد للتدخل الأجنبى . فها نحن نرى الشريف غالب يكتب الى طوسون أحمد باشا (١) . طالبا منه عرض الأمر على والده بحيث يتبع نفس الخطة التى سبق أن سار عليها فى مواجهته لابن جبارة بحيث يمكن القضاء على تمرد قبائل جهينة كما يطلب منه أن يرسل جنودا الى قلعة الوجه حيث يقصدون غزو ابن جبارة يعد تحالفهم مع بعض مشايخ جهينة ، كما يرسل نحو ينبع البحر اربعمئة جندي ممن الجنود حتى يتمكن من المحافظة على الاماكن المهمة بالنسبة للعربان ، ثم يتبع ذلك بمائة خيال ليكونوا لهم مددا وعندما يعود طوسون ممن غزواته الموفقة الى (بئر الشيخ) يكون قد أحاط بالاشقياء يميناً وشمالاً . كما يفيد به بأن الغلال الموجودة فى ميناء ينبع قليلة ولذلك يرجوه أن يجعلها منامضة بينه وبين الشريف ، على أن يتبع هذا الاسلوب فى كل ما يرد من ذخائر على هذا الوجه الذى يراه الشريف حتى يكون ممثنا دائما ، كما يكرر شرح مواقفه بأن كل ما يلتزمه هو القضاء على الدولة السعودية بأن يحشد لها الجند من الأطراف الثلاثة لابعادها عن

(١) وثيقة رقم ١٩٥٩٥ فى ١٢٢٧ وهى نموذج دراسة الوثيقة رقم ١٩٥٩٥ ضمن مجموعة الوثائق التركية - دارة الملك عبدالعزيز - الرياض .

قد سبق له أن أشعره بشأن (رعية الجادلة) وخسارتهم فى طريق البحر ، وحيث ذكر أنه كان يتقصدهم بالسوء فقد غادروا بكافة سفنهم من هذه المرافئ باتجاه لحية وجازان فى جهات اليمن ولم يبق لهم هنا أى صلة (١).

الا أننا نرى أن هذه الاخبار التى كان الشريف يبعثها لمحمد على لم تقف حائلا فى عزله ، ومن خلال الوثائق تتضح لنا أسباب هذا العزل حسب ما يبيده محمد على نفسه (٢) فى رسالته التى بعث بها الى القائم مقام (نائب المدر الأعظم السابق) رشدى باشا حيث ذكر فيها بعد التقديم بأنه قد سبق له أن حرر الى نجيب أفندى رسالتين اشعارا عن الأطوار غير المرضية للشريف غالب أمير مكة المكرمة ، وما هو عليه من اساءة وارتكاب للكذب (٣). ونظرا الى أنه يوشك أن يتحرك من مصر الى الدرعية على رأس جيش الخيالة والمشاه المزودين بالعتاد ، ونظرا الى أنه لم يلتفت الى ما صرف من المال فى هذا الصدد راغبا فى أن يكون ذلك عائدا الى حسن الختام فى سبيل مصلحة السلطان العثمانى ، ونظرا الى أنه قد أكد للشريف وشدد عليه بأن يتدارك له الجمال بالأجرة أو بالثمن اللائق الا أنه عندما وصل جدة فى ٣ ذى القعدة جاءه الشريف بالسفينة لاستقباله مع ولده طوسون أحمد باشا وتم اللقاء بينهما ، وتطرقا للحديث عن موضوع الابل التى تعهد الشريف بتجهيزها بالأجرة أو بالشراء . وأفاد الشريف بأنه لم يتمكن من تجهيزها (٤). وأبدى محمد على تذمره من ان الشريف لم

(١) الوثيقة السابقة

(٢) الوثيقة نفسها .

(٣) الوثيقة نفسها .

(٤) دى قورى ، المصدر السابق ص ١٩١ .

يقدم أى مساعدة لابنه طوسون باشا وغيره من القواد المكلفين بأمر
الحجاز ، كـمـيـنـا تطرق فى حديثه مع الشريف الى كل الامور
الا أن الأخير كان يضع العقبات أمامه وكانت أقواله جميعها تقود الى
اليأس وتؤدى الى الفتور وكأنى بالشريف يود لو أن محمد على
وابنه وجيوشه قد غادرت الحجاز وعادت من حيث أتت
كميـنـا أن الشريف نفسه كان يود لو أن الحجاز بقى فى يـمـنـد
السعوديين على أن يكون فى طرف الدولة العثمانية . كما يغيد بأن الشريف
قد أخبره بأن تأمين الجمال لن يؤول الى مصلحة خيرية ، وبقي على
هذا رأى رغم مرور الوقت ظانا بأن اليأس سوف يسيطر عليهم فيعودون
الى مصر حيث أن هذا ما أراده الشريف وما فهمه محمد على (١) ، من
أقواله وأفعاله وأدركه لبفسسته ، لكن محمد على اعتقد بأن حديثه
مع الشريف سوف يؤثر عليه فتتغير اخلاقه الذميمة بالحميدة خدمة
للدولة العثمانية بحيث ينال شرف البقاء فى مقامه ، وقد نمحه وعاهده
على ذلك ، الا أن الشريف أصر على ما جبل عليه من الحيل والخديعة
والمراوغة وأراد أن يعامل محمد على بمثل ما واجه به الوزراء
العظام من التحايل . ولذلك قرر محمد على على أن بقاء المشار اليه
فى مقامه لن يجعل قضية الدرعية تصل الى نتيجة حاسمة . حيث أنه
يتحرك بما لا يليق بشفافة مكة ويمس بالضرر غيره وعساكر الدولة
فقد ملأ قلعة مكة المكرمة الصعبة المنال بكميات وافرة من الذخائر

(١) الوثيقة السابقة .

المرسلة اليها ، وحشد فيها اكثر من الفى جندى مغربى ويمنى
وسليماني وأخذ يتفوه بأنه سيحارب وهو معتمد على عشرين ألفاً .
ثم أنه لم يسرج قنديلا واحدا فى بيت الله الحرام وخصص الزيت
لقصره كما أنه صار يأخذ ضريبة باسم وطأ الأرض من الحجاج
القادمين عن طريق البحر . وبذلك أوجد أمورا لم يحدثها
احد قبله .

ونظرا الى أن لوازمه من المعدات والأموال والعساكر الوفيرة
والأموال الموجودة فى ظل السلطان كافية لأموال الحجاز فيما عدا
حاجته الى الجمال ، والى امكانية تدارك ذلك بالأجرة أو
بالشراء ، والى أن الشريف قد أغض طرفه عن ذلك بغرض عرقلة
شأن الدرعية ، فان محمد على اصدر امره بعزل الشريف فى
٢٠ ذى القعدة وارسله الى مصر .

ولما رفع محمد على ما فرضه الشريف من ضرائب ابتهج أهل
مكة ، ولما كان لا بد من تعيين أمير بدل الأمير المعزول فقد جمع
محمد على صديق افندى والعلماء والأشراف وتشاؤروا فيمن تكون له
امارة مكة المكرمة من الشرفاء السعداء ، ونظرا الى أن الشريف
سرور قد جبل على الظلم ، كما أن الشريف يحيى عابد صالح وبناء عليه
فقد نصب الشريف يحيى وألبس الخلعة لأهمية وجود الشريف لتأثيره
فى القبائل فان محمد على يرجو السلطان اصدار أمره الجليل بذلك ،

كما يفيد بأن سائر أموال الشريف المعزول لم يؤخذ منها شيء وأن القاضي قد ختم على قصره وأنه سيفرز لعياله وأولاده وجواريه من الملابس ، وحيث أن ذلك يحتاج إلى خمسة عشر يوما بسبب وجود مشكلة الدرعية وحلول موسم الحج ، لذلك فسيتم أرجاء ذلك إلى ما بعد الحج حيث تدون تلك الأشياء بموجب الشرع وينظم بها دفتر وترسل^(١) . كما يفيد محمد على في وثيقة أخرى^(٢) إلى أنه وفقا لرغبة السلطان فقد أعيدت سائر أموال الشريف وأشياءه بتمامها إليه وذلك من قبل الشرع وفق دفتر وسلمت إلى الرجال وكلاء بناته . أما النقود الموجودة والمعروف مقدارها فقد صرفها محمد على عن طريق الاستدانة من أجل تأمين احتياجات السفر . وقطعة تحويل دين أرسلت إلى المشار إليه ، كما أبلغ رئيس حجاب محمد على بأن يسلم الشريف مبلغ ثلاثمائة كيس من النقود تحت الحساب وما يتبقى يسلمه له محمد على بعد أن يصل إلى مصر . حيث صدر الأمر بأن يرسل إليه نساؤه ، ولما كن من ذوات العقل الناقص من النساء اللواتي يبلغن الـ ١٥٠ وأكثريتهن من الجوارى السود والأحباش ، فقد وجد أن إرسالهن لا يليق بشأن الدولة العثمانية ولذلك يقترح محمد على أن يكتب إلى الشريف بأسلوب مؤدب حتى يبعث من قبله رجلا لمرافقتهن في السفر^(٣) . أما السفن الموجودة في جدة والعائدة للشريف فأن محمد على بحاجة لها لنقل المومن وهو سيقوم بشرائها أما ما عدا ذلك فتباع إلى الراغبين فيها . وهكذا دارت الدائرة على الشريف غالب . وأهله قبل أن يقوم محمد على بهدم الدرعية .

(١) وثيقة رقم ١٩٦٦٦ في جمادى الثانية ١٢٢٩ هـ جهة الاصدار وإلى مصر .
دارة الملك عبد العزيز - الرياض .

(٢) الوثيقة نفسها .

(٣) الوثيقة نفسها .

ثالثا : علاقة الشريف غالب بالدولة العثمانية

=====

سبق أن ذكرنا أنه في بداية إمارة الشريف غالب بمكة ، وبعد تنازل ابن سرور لعمه غالب حرر الأشراف رسالة الى الدولة العثمانية بطلب الموافقة على تعيين الشريف غالب فوافاهم التأييد ولبس الشريف غالب^(١) الخلعة بعد قراءة المرسوم في الحطيم وأجرى المراسم المعتادة في مثل هذه الحالة بأن منح لكل شخص ما يخصه ، وقد ابقى على الدعاء للسلطان العثماني كما يتضح ذلك من خلال الرسالة التي بعثها الى السلطان سليم الثالث بواسطة أمين المرة حيث يذكر الشريف بأنه يتفق الأموال ويبذل أقصى طاقته واهتمامه من أجل تأمين الطرق في الاقطار الحجازية وراحة أهالي الحرمين الشريفين ، ونظرا لكونه مستمر في بذل أقصى طاعته وولائه للدولة العثمانية ، فقد فتح الرسالة السلطانية المرسله اليه وقرأها فبعثت فيه العزة والفخر ، ونظرا الى أنه مواظب على الدعاء للسلطان بطول العمر ودوام دولته والنصر لجنوده مع مباحاته بالتشريفات الملكية الممنوحة له ، وحيث انه يوزع على الفقراء في الحرمين ويقسم بينهم بموجب قائمة جريا على العادة بحضور السادة قضاة مكة المكرمة والمدينة المنورة بقصد جلب الدعاء للسلطان ، ونظرا لأنه يوفى بشروط الحج ويسعى لتقديم مستلزماته ويجتهد

(١) المحلان ، المصدر السابق ، ص ٢٨١ .

فى توفير الأمن والسلامة لكل حجاج المسلمين (١) . الا أن وقوع الحرب بينه وبين الدولة السعودية وهزيمته فى معركة قصر الشعراء قد جعلته يدرك بما لا يقبل الشك أن الدعوة السلفية سوف تتغلغل بين صفوف القبائل الحجازية . كما أدرك أنه لا يستطيع بمفرده كسر ذلك الطوق الذى أحكم حوله الا اذا مدت له الدولة العثمانية يد المساعدة فأعانتة بحيث يستطيع إعادة تلك القبائل الى طاعته بعد أن تمردت عليه وبايعت لعبد العزيز على السمع والطاعة .

وقد بالغ غالب فى تصوير الخطر السلفى على الحرمين سواء بالنسبة لأهالى البلدين الشريفين أو بالنسبة للدولة العثمانية ليدفع السلطان العثمانى وولاته فى الشام والعراق ومصر الى التدخل لمصلحته فجمع الشريف علماء كل من مكة والمدينة وحرر رسائل الى السلطان العثمانى يطلب فيها النجدة لانقاذ البلاد المقدسة وأهلها من خطر السلفيين وكرر يقول انه اذا لم يساعد السلطان العثمانى الشريف غالب فان حكومة الدرعية لا محالة سوف تستولى على الحرمين الشريفين وقد أرسل الشريف غالب فى شعبان من سنة ١٢٠٧هـ - ١٧٩٢م مندوبين عنه هما محسن الحمودى وحسين مفتى المالكية الى اسطنبول لمقابلة السلطان وأصحاب الشأن وتحريضهم على السلفيين ، الا أن أحدا لم يكثرث لهما (٢)

(١) وثيقة رقم ٨٦٤٢ فى ١٩ ربيع ثانى ١٢١١هـ من الشريف غالب الى السلطان العثمانى سليم الثانى - دارة الملك عبدالعزيز بالرياض .

(٢) دحلان ، المصدر السابق ، ص ٣٨٤ .

ويقول المؤرخ التركي جودت باشا أنه عندما حج الجزائر سنة ١٢٠٨هـ أخبره الشريف غالب بما يعانيه من صعوبات ومتاعب بسبب اعتداءات السلفيين المتزايدة على المناطق الخاضعة لسلطانه ونفوذه منذ القديم ، فأشار عليه الجزائر باشا بأن يكتب كل ذلك فى تقرير مفصل ويبعث به الى الدولة العثمانية ، فقام بالتحريض للدولة العثمانية شارحا ما يعانيه من ضيق الموارد الاقتصادية وتمرد القبائل ونقص الذخيرة . ونظرا الى أنه حتى هذا التاريخ لم تكن الدولة العثمانية حتى هذه الآونة قد فكرت فى امكانية استخدام شريف مكة كقوة عسكرية تحارب ضد الدولة السعودية الناشئة (١) . خاصة أن ما توفر لديها من معلومات لم تكن تشير قلقها الى الحد الذى نرى فيه تلك الخطورة المتوقعة من ابن سعود ولا ترى أن ذلك يستلزم ارسال مساعدات عسكرية الى الشريف غالب بن مساعد نظرا لوقوع القتال بين الطرفين وحيث أن الدولة العثمانية قد أحيطت علما بأن هذا الشيخ أى ابن سعود من مقيمى البادية بأراضى نجد وأنه لم يثبت أنه قد تعرض للحاج (٢) أو غير ذلك فان الدولة العثمانية ترى بأنه لا يليق بشريف مكة أن يريق دماء فى الأماكن المقدسة ، كما أن التخاصم مع ابن سعود لا يليق مع منصب شريف مكة ، لذلك يجب عليه إنهاء الخصام وابداء الأساليب التى تؤدى الى علاقات حسن الجوار حتى لا تؤدى الى الحرب كما أنه

(١) وثيقة رقم ٤/٢ - ٧ ، بدون تاريخ - دارة الملك عبدالعزيز ، الرياض ، ضمن مجموعة الوثائق التركية .

(٢) الوثيقة نفسها .

لا يليق أن يمنع حجاج الشيخ من أداء الفريضة ، كما تفيده بأنها قد أرسلت يوسف باشا وإلى جدة المكلف بالاقامة في المدينة المنورة لتقديس النصح اللازم للشيخ المذكور من أجل عقد الصلح بين الطرفين ، كما حررت إلى سعادة عبدالله باشا وإلى الشام للعمل مع يوسف باشا لوضع حد لهذه المشاحنات لأن ذلك مهم لتأمين الحرمين كما يفيد بأنه بعد الاستئذان من الدولة العثمانية قد حرروا خطابا عربى العبارة ردا على الكتاب الذى أرسله الشيخ المذكور إلى اسطنبول وقد جاء فيه :

" أنه نظرا لكون الشريف غالب ذو نسب ويحق له أن يفخر بامارة مكة المكرمة ويجب أن يحترمه الجميع حفاظا على تأمين طريق الحجاج (١) واعادة العربان إلى سلطة الشريف . "

وكان يوسف باشا قد كتب بأنه لا يمكن إيقاف درجة الخصومة بين الشيخ والشريف المشار إليه رغم ورود موضوع المصالحة ، كما يفيد بغضب الشريف من يوسف باشا وأن الكتاب الذى أرسله الشيخ (أى ابن سعود) برفقة أحد رجاله كما يطلب نقل يوسف باشا وتعيين آخر مكانه حيث ورد فى هذا الكتاب تفصيل لكيفية الحرب مع الشريف غالب وأما ما ذكره الشريف من نهب للأموال ما هو إلا افك وافتراء بحق الشيخ (٢) . لذلك فإن الصلح بين الطرفين غير ممكن ، كما أن الشريف

(١) الوثيقة السابقة .

(٢) الوثيقة نفسها .

لم يستمع لتلك المراسلات ، وأنه يجب عليه إيقاف هجماته ، كما تفيد بأن شيخ المنتفك قد هجم على ابن سعود مكلفا من قبل والى بغداد وبعد ذلك رفع والى بغداد يده عن التدخل^(١) فغضب الشريف واتهم سليمان باشا بالخيانة وفى نهاية شهر رمضان وردت كتب بأن الشيخ المذكور مجبور على تجهيز العسكر بقصد الدفاع^(٢) عن نفسه ، وقد تابع غالب الكتابة الى الدولة العثمانية عن حروبه مع ابن سعود مهولا الأمر ، فقد حرر فى عام (١٢١٩ - ١٨٠٤) الى الدولة العثمانية مفيدا عن أحوال مكة وجدة وينبع فى تقرير حرره احمد أفندى حامل سلاح الشريف حيث طلب الشريف جنودا وذخيرة فى مراسلاته المؤرخة فى ١٣ محر و ٢١ ربيع ثانى شارحا ما هم فيه من الضيق وكان خورشيد باشا قد ذكر بأنه قد أرسل على أغا مزودا بالعساكر ، وأن هذه القوة قد وصلت الى ينبع^(٣) ، وقد تم فتح ينبع كما أنه يجب الاهتمام بأحوال الحرمين ، وعدم الاصغاء للأقوال المسلية وقد تم فتح ينبع وأزيل الضيق والبأس عنها ، وخلال شهرين يعمل محمد باشا (يقصد به والى جدة) وأن أحمد أفندى قد خرج من مكة الى مصر . كما أرسل من مصر الى ينبع ستمائة من المشاه ومائة من الخيالة ومدافع وعين على أغا محتسب

(١) الوثيقة السابقة .

(٢) الوثيقة نفسها .

(٣) وثيقة رقم ٣٧٥٦ فى ١٥ جمادى الثانية ١٢١٩هـ ، جهة الاصدار ، رئيس الكتاب الى السلطان العثمانى .دارة الملك عبد العزيز - الرياض

(١)

مصر وأمير خور سابقا قائد بطوخييه* لهذه القوات، وفي ١٠ جماد الأول ابحر من موقع الفيل، كما أن خورشيد باشا مهتم بأمور الحرمين وقد جهز ثمانية آلاف أردب من الغلال ترسل من السويس الى الحجاز . الا أنه بعد ذلك بعدة سنوات وبعد خسائر الشريف مع ابن سعود في حروبهما نراه في ١٢٢٣هـ يحرر الى طوسون باشا طالبا منه أن يتوسط لدى والده لعقد الصلح مع السعوديين ضمانا لتمكين الحجاج من أداء فريضة الحج، كما يعلمه بضرورة التحالف مع مشايخ جهينه . كما يفيد به بأن الغلال المرسله الى ينبع قليلة وهو يطلب جعلها مناصفة بينه وبين الشريف حتى يكون الشريف ممثنا، كما يعرض خطة للقضاء على الدولة السعودية بأن يحشد لها العساكر من الأطراف الثلاثة، ونظرا لأن ابن سعود قد جمع قواته فان الحرب لا مناص منها . ولما كان المعروف عن أهالي الحرمين أنفسهم أنهم فقراء لا يقدرون على الدفاع ولا على مواجهة السعوديين، فقد رأى الشريف أن يتوسط طوسون لعقد الصلح بين الطرفين حتى يتمكن الحجاج من سلوك طريقهم وهم في مأمن وأن يعقد الصلح حالا وتوقف فتنة الحرب والقتال وأن تعطى الأموال المعدة مع الصرة لعشائر العربان . كما يطلب منه افادته عن الجواب على ذلك .

(١*) شارة لمرتبة عسكرية .

طوغ - طوخ : إشارة كانت تصنع من شعر ذيل الخيل ثم تزيين اطرافها بالذهب وتدل على الاصاله والنجابة ، وقد عرفها الهنود والصينيون كما عرفها الترك وتستخدم للدلالة على الرتبة العسكرية في تشكيلات الجيش العثماني . مجلة الدارة ، الممدر السابق،

كما يفيدده بأنه فى حالة اقبال الفاشقى من طرف شكبان ومن قبل عثمان المضائى وقبائل عسير أربعة آلاف شقى (على حد تعبيره) فان الوضع حينئذ يستدعى اعداد المحافظين للمدينة المنورة حيث أن تجمع قوات ابن سعود فيما بين مكة ووادى فاطمة الذى أمر به ابن سعود ونظرا الى أن المحافظين الذين سيقصدون المدينة المنورة بعيدون عنهم فانه لا يعلم من أمرهم شىء . كما يفيدده بشأن رعية الجحادلــــة وخسارتهم فى البحر حيث أنهم أفادوا بأن الشريف يريد بهم السوء (١) لذلك فقد أبحروا باتجاه موانئ لحية وجازان فى جهات اليمن . ولم يبق لهم أى صلة . وقد تطورت هذه العلاقة بين الشريف والدولة العثمانية الا أن الأخيرة قد أوكلت أمره الى حاكم مصر فيما بعد الذى اتسمت العلاقة بينه وبين الشريف بنوع من المصالح المتعارضة أدت فى النهاية الى عزل الشريف غالب وترحيله من مكة (وهو ما أوضحناه فى علاقته مع محمد على) (٢) .

ومن خلال ما لدينا من وثائق نلاحظ أن الشريف غالب قد غضب غضبا شديدا عندما عقد سليمان باشا والى بغداد الصلح مع ابن سعود خاصة بعد وصوله عام (١٢١٣ - ١٧٩٨) الى الاحساء . وأنه كان ينبغى لباشا بغداد مواصلة حربه ضد الدولة السعودية الأولى ، رغم فشل حملته الأولى لأن ذلك سيوفر على الشريف طلب الامدادات العسكرية والذخائر

(١) الوثيقة السابقة .

(٢) الوثيقة نفسها .

وبالتالى يخفف الضغط الواقع عليه من جانب الدولة السعودية ويوفر عليه مشقة الحرب ضدها . كما أنه لن يوءدى بالدولة العثمانية الى التفكير فى ارسال الجيوش من مصر أو الشام الى الحجاز لمحاربة الدولة السعودية (١) وهو الأمر الذى كان الشريف غالب نفسه يخشاه فى كل تصرفاته اذ كان حريصا على ألا يحول أراضى الحرمين الى ساحة قتال (٢) . صحيح أنه كان يطلب من الدولة العثمانية امدادات من الذخيرة والقنابل والجنود ولكن لم يثبت انه طلب جيوشا لتساعده أو تحافظ عليه لأنه كان يعلم أن وجود قوات عثمانية تآتمر بأمره قائدها التركى أو الوالى الذى أرسلها ولا يملك هو نفسه السيطرة عليها لأنها سوف تتآمر عليه حتما (٣) . وخاصة اذا علمنا ان تلك كانت طريقة الدولة العثمانية فى بقية ولاياتها ، وقد أثبتت الأحداث صحة ذلك بدليل أنه عندما وصل طوسون الى ينبع بعد ذلك باثنتى عشرة سنة كتب اليه الشريف غالب ينمحه بعقد الملح مع السعوديين بدلا من الحرب (٤) فما كاد محمد على يصل بقواته أرض الحجاز حتى دبر خلع الشريف .

ولم تكن تلك المخاوف بعيدة عن نفس الشريف التى اتسمت بطابع التقلب والخوف فتارة نراه يستنجد بالعثمانيين ويضخم أمر السعوديين

(١) الوثيقة رقم ٥٤٧ ص ٦٧ سجلات وزارة الهند .

(٢) ، مرسى احمد الدارة (العدد الاول السنة ٢٦ ربيع الاول ١٣٩٦هـ، مارس ١٩٧٦م) ص ١٥٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٣٥ .

(٤) الوثيقة السابقة رقم ١٩٥٩٥ .

وخطورة الموقف وأخرى يكتب الى السلطان بتاريخ ٢٣ ذى الحجة ١٢١٤ هـ يخبره بأنه لا يحتاج الى مدد وأنه استطاع أن يحج الناس رغم وجود السعوديين معه فى عرفات وأنه قد قام بتحسين مكة واستمال العشائر بالعطايا (١) . وذلك لكى يشعر السلطان العثمانى بأنه يملك زمام (*) الحرمين بمفرده دون حاجة الى عون خارجى . وقد ظهر هذا الاستقلال للشريف بصورة أوضح عندما عارض تعيين محافظ على ينبع ، كما عارض تحرك قوات من مصر الى الحجاز وأعلن اعتزاه منعها بالقوة من النزول الى البر بل اكثر من ذلك عندما كتب الى السلطان العثمانى يطلب ضم اىالة جدة اليه فى جمادى الأولى عام ١٢١٥ مقابل جزية سنوية مقدارها ٥٠٠٠٠٠٠٠ خمسة آلاف قرش ، الا أن هذه العلاقة كانت أشبه بالمد والجزر فعندما انتهى الصلح الذى كان بين الشريف وبين الامام عبدالعزيز عام (١٢١٧ هـ - ١٨٠٢ م) بعد انضمام المضائف الى الامام عبدالعزيز وهزيمة الشريف فى معركة تربه ومن ثم حصار الطائف والذى أدى الى انسحاب الشريف الى مكة وترك الطائف للمضائف وجموعه ، وعندما نزل الأمير سعود بن عبدالعزيز العقيق فى وقت الحج انسحب الشريف الى جدة ومعه أمواله ومتاعه تاركاً شقيقه عبدالمعين فى مكة ، وقد وجدها فرصة مناسبة لدخول مكة حيث عين الأمير عبدالمعين أميراً عليها (٢) . وأخذ الشريف غالب يراسل السعوديين فى مكة ويطلب الصلح ويبذل المال وفى

(١) الوثيقة السابقة .

(*) أى الشريف غالب بن مساعد .

(٢) وثيقة رقم ١/٥ - ١٠٤ تركى مجموعة والى مصردارة الملكعبدالعزیز- الرياض .

(**) أى الأمير السعودى .

نفس الوقت يقوم بتحسين جدة ويراسل الدولة العثمانية من جهة أخرى شارحا للسلطان العثماني الطريقة التي يمكن بواسطتها سيطرة السعوديين على الحرمين الشريفين مبينا أن خطرهم لن يقف عند احتلال الحرمين ، وهنا يقرر السلطان العثماني عرض الأمر على مجلس الشورى العثماني لبدء الرأي فاجتمع المجلس وقرر تعيين وال لجدة ومحافظ للمدينة المنورة وكذلك الكتابة الى والى بغداد ليعث من عنده قاضى بغداد الشيخ هبة الله فى مهمة الى الدرعية لمقابلة الامام عبدالعزيز لمعرفة قصده . على أنه بعد رحيل الأمير سعود من مكة عام ١٢١٨ هـ ، عاد الشريف غالب الى مكة واشتبك بالحامية السعودية الموجودة بها وأخرجها منها بالآمان ، وبذلك عادت مكة الى حكم الشريف مرة أخرى، الا أن الأمير سعود كتب الى عبدالوهاب أبى نقطة وأمره بغزو جده فلما وصل الأخير الى السعدية (*) قرب ساحل البحر الأحمر سار اليه الشريف غالب بجيش يقدر بعشرة آلاف رجل ، وقد لحقت الهزيمة بالشريف غالب وقواته ، وأمام هذه القلائل أرسل أهل المدينة المنورة شخص يدعى احمد الياس الى الدولة العثمانية (†) ، حيث رفع الى الصدر الأعظم فى ١٥ ربيع الأول ١٢١٩ هـ تقريراً يفيد بأن الحرب لا زالت مستمرة بين الشريف غالب والدولة السعودية وشيخ الحرم يميل نحو الشريف ، وكما هو معروف بأن شيخ الحرم لا يملك قوة عسكرية ، ولذلك فعزله هين أما عزل الشريف

* السعدية : ميناء قرب ساحل البحر الأحمر ، معروف منه احرام اهل اليمن . ابن بشر ، المصدر السابق ص ١٧٤ .

(†) وثيقة رقم ٢/١ - ١٨ تركى مجموعة رئيس الوزراء التركى ، دائرة الملك عبد العزيز - الرياض .

فى موسم الحج فقد يسبب ذلك بعض الحرج للسلطة العثمانية، واذا أريد عزل الشريف فيجب اسناد هذه المهمة لأمير الحج اذا كان قويا على أن يأخذ الشريف بالمهادنة حتى لا يشعر بما هو مدبر له ، وبعد انتهاء الحج يقابل الشريف ويطلعه على قرار العزل ، وبذلك سيجد نفسه مضطرا للقبول لأنه لا يوجد لديه وقت كاف للتحرك ، ولم يكن ذلك ليخفى على الشريف غالب الذى أصبح فى وضع لا يحسد عليه . فلو أنه هادن الأمير السعودى ووافق على أن يبقى فى حكمه تابعا للسعوديين لو فر على نفسه عناء كثيرا ، خاصة أن السعوديين من جانبهم قد أبدوا له مساعدة ولم يرفضوا بقاءه فى حكم مكة لولا مراوغاته المتعددة وأساليبه التى أخذ بواسطتها يحاول اللعب بأكثر من عصى فكسرت عصاته . وهكذا وجد الشريف نفسه بين قوة الدولة السعودية الأولى التى فضحت مؤامراته من جهة (١)، ونية الدولة العثمانية فى عزله من ناحية أخرى (٢). وقد زاد الضغط على الشريف بعد أن أرسل اليه الأمير سعود جيشا يتكون من عبدالوهاب أبو نقطة أمير عسير وسالم بن شكبان أمير بيشه وعثمان المضائفى بأهل الحجاز عام ١٢٢٠هـ حيث حاصرت هذه الجيوش الثلاثة مكة المكرمة وعندما اشتدت وطأة الحصار أرسل الشريف الى السعوديين طالبا الصلح ومبايعة سعود على السمع والطاعة فصالحوه وكان هذا الحصار الأخير هو الحد الفاصل الذى اقنع الشريف بعدم جدوى الحرب ضد

(١) ابن بشر ، المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

(٢) وثيقة رقم ٢/١ - ٢٩ ، تركى مجموعة رئيس الوزراء ، دار الملك عبدالعزيز ، الرياض ، ضمن مجموعة الوثائق التركية .

السعوديين ومن الأفضل له أن يجنح الى السلم وأن يظهر ولاءه للامام سعود بن عبدالعزيز ، وقد حرر بذلك خطابا الى الأمير سعود حيث جاء فيه : (١)

(من غالب بن مساعد الى سعود بن عبدالعزيز ، ليسلمه حضرة الله تعالى من جميع الآفات ويستعمله فى الصالحات .. وبعد ذلك يذكر الأمور التالية ، وهى أولا أنه قد سبق له أن كتب للامام سعود عن أخبار الأقطار الحجازية والأموال الا أنه قد ترك موضوع الحجيج . وبعد ذلك قدم الحجاج وأدوا الفريضة وكان أمير الحج هو عبدالله العظم الذى جاء مع والى جدة عابدين باشا وكان عكر عبدالله باشا يبلغون نحواً من ألفين (٢٠٠٠) فى حين أن الخيالة الذين كانوا يرافقون والى جدة يبلغون خمسمائة ، وقد سعى الشريف لتفريق عسكر والى جدة من حوله بالتعريض بالقول تارة وارسال البعض الآخر نحو البحر لـم يتبق له فى مكة الا ما يزيد عن عشرة أشخاص . وأن الحجاج فى طريقهم الى العودة بعد يوم أو اثنين ، كما يفيد به بأن أمير الحج الشامى قد اتخذ له طرفاً منفرداً بين الحجاج المسلمين وطلب أن يكون لقادة الابل المرافقين له مكاناً وسطاً بين الحجيج وأمرأء المسلمين فاعتذر له الشريف عن عدم امكانية ذلك . أما الموضوع الثانى فهو موضوع عثمان ابن عبدالرحمن المضائى حيث أنه منذ نزل المسلمون الى مكة وهو لم يستقر على حال وقد أظهر من العداوة الشئ الكثير وغير خاف على الأمير

(١) الوثيقة رقم ١/٢ - ١٦ تركى ، مجموعة شريف مكة ، ١٢٠٠هـ ، دار الملك عبدالعزيز ، الرياض .

سعود ما قام به المضائق سابقا ، ثم يذكر له بأنه أخ للأمير سعود وأنه لو لم يشرح الله صدره لما قام بذلك ثم يشرح له سبب دفاعه عن مكة لأن بها سكنه وسكن أهله ، وهى عبارة عن قصور من الحجر أما غير ذلك فهو معروف لأن مكة كما قال ابراهيم عليه السلام " واد غير ذى زرع " وأن النفس امارة بالسوء ، ولذلك فالشريف قانع بما اختاره له الله من الهداية بعد ما صدر منه من الأعمال وأن ما صار اليه حال عثمان سوف يشرح له فيما بعد ، كما يفيدده بأنه لا ينافق ولا يداهن^(١) كغيره من الناس الا أنه قد اقتنع بتعاليم الدعوة السلفية اقتناعا نابعا من اعتقاده بصحة ما دعت اليه الدعوة السلفية . ثم يوضح له بعد ذلك الأقاليم التى كانت تابعة له منذ القدم وهى مكة والطائف وجدة والحجاز وحرب وجهينة ومن الحجاز الى البحر الأحمر حيث الموانئ والقبائل المعروفة فى حكمه والملحقة به كالتى فى جدة . الزبيدية والينبع وجهينة وفى الساحل القنفذة حتى الطائف ، الحجاز وما يتبعها . وأنه اذا ترك ابن سعود تلك المناطق فى يد الشريف غالب وترك مهام ادارتها مدة شهرين أو ثلاثة شهور وأنه اذا بقى ذلك تحت سلطته فإنه يصبح بإمكان الشريف أن يحارب برا وبحرا فى كل من مصر والشام واليمن بحيث لا تستطيع الدولة العثمانية الدفاع عنها . ثم يطلب من الأمير سعود أن يشارطه على نفسه بأن أى قرية يفتحها بالاشتراك مع المسلمين يكون قائما عليها فى جميع أمورها نيابة عن الأمير سعود وما يصرفه من مجهود يكون للأمير على أن لا يعارضه فى ذلك أحد سواء أمير أو حقير

(١) الوثيقة السابقة .

وذلك لعلمه بأخلاق الناس أكثر من الآخرين . كما يطلب منه أن يتخذه كولد من أولاده ، وقد جرب الأمير عداوة الشريف والآن يطلب منه أن يجرب صداقته وأن مقدرته على تسيير الأمور سوف تظهر له ، كما أن ورقة من الأمير سعود تؤخره وتقدم سواه . وأن قصد الشريف من ذلك أن يستبدل النية السيئة بالحسنة ، كما يطلب منه أن أراد عمل لعثمان لديه فلا مانع ، كما لا تكون لغير الأمير سعود أى سلطة على الشريف فيكون بذلك وكيلا عنه فى تصريف الأمور . كما يكرر افادته له بظهور العداوة من عثمان بحيث أظهر العداوة جهارا . كما أخذه من الأشياء الوافرة المبالغ كما يتعهد للأمير سعود أن بإمكانه اثبات ذلك. أما الأمر الثالث فهو طلبه أوراق الامان من قبل الأمير سعود لكل من موانئ جده وينبع والسواحل وغيرها على أحوال السكان وتجارة الموانئ وما يرد اليها من السفن الخاصة بالمسيحيين الذميين - والحريين وغيرها من دول العالم وعندها سيبذل جهده أى الشريف لاصلاح الأمور ، كما يفيد فى آخر الرسالة بأن حامل رسالته وهو عبدالعزيز رجل يمتاز بالغباء لا يعنى مما تضمنته الرسالة شيئا وهو يطلب من الأمير الرد سريعا (١). وقد وصلت تلك الرسالة الى الأمير سعود فما كان منه الا أن كتب على ظهرها رسالة منه الى على باشا والى بغداد - لا لقلّة فى الورق لديه - ولكن ليطلع والى بغداد وعن طريقه الدولة العثمانية والتأكيد أن منطقة الحجاز وبالتالى حاكمها الشريف غالب قد أصبحت تحت نفوذ الدولة السعودية . وقد جاء فى تلك الرسالة دعوة والى بغداد الى الدخول فى طاعة الله وعبادته دون سواه لأن ذلك هو مطلب الامام

سعود القائم على الدعوة لعبادة الله وحده لا شريك له حتى يكون ذلك بمثابة عهد بين الامام ووالى بغداد . ثم يفيد به بأن الحرمين بفضل الله قد أصبحت تحت طاعته فأمنهما وكما يفيد به بأن الدعوة السلفية قد انتشرت حتى بلغت الأماكن والجبال . كما يوضح له بأن الورقة التى بعث بها اليه هى نفس ورقة الشريف غالب وقد بعثها بصورتها تلك ليطلع والى بغداد على ما حرره له الشريف غالب . كما يفيد به بأن الفرصة لم تسنح له لرؤية والى لأنه لم يكن ضمن من وصلوا الى النجف . كما يعرض عليه فى حالة دخوله تحت لواء الأمير سعود فسيكون فى خدمته مائتا ألف من الرجال (٢٠٠ ألف) لا يلتزم والى بالانفاق عليهم ويكونون تحت تصرف والى بغداد يوجههم حيث يريد كما يوضح له بأن الشام قد دخلت فى الدعوة كما دخل عبدالله باشا العظم فيها أيضا . وما أن وصلت تلك الرسالة الى والى بغداد حتى قام بارسالها الى الحكومة العثمانية وهذا ما قصده الأمير سعود أساسا من ارسال تلك الرسالة محررة خلف رسالة الشريف لأن على باشا لا بد أنه كان قد علم بدخول الشريف غالب فى طاعة السعوديين فقد كان قريبا من نجد أولا ولأن الأحداث كانت توحى بذلك ، ولقد كان هدف سعود من وراء ارسال تلك الرسالة أن يقوم على باشا بإبلاغ الدولة العثمانية بانتهاج سيادتها على كل أرض الجزيرة العربية بل واستعداده لمحاربة الدولة بجيش قوامه مائتى ألف رجل تخرج من العراق لغزو الدولة . ولا نستبعد أن تكون أخبار تلك الرسالة قد بلغت مسامع محمد على فى مصر . على أنه

(١) المفصافنى ، المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

ما أن وصلت تلك الرسالة الى السلطان حتى أمر بعقد مجلس الشورى لدى شيخ الاسلام لبحث ما كتبه الشريف غالب للأمير سعود وبالتالي ما دونه الأمير سعود على ظهرها وكان من أهم الأمور التي اتضحت للمجلس من خلال تلك الرسالة أن الشريف غالب قد دخل فى طاعة الدولة السعودية كما كانت مع تلك الرسالة رسالة أخرى من والى بغداد ضمنها ما لديه من أخبار الحرب عن السعوديين . وقد تبين لأعضاء المجلس بالإضافة الى خضوع الشريف غالب للسعوديين أن الحجاز عامة قد أصبحت منقاداً اليه وفهم الحاضرون بأن ثمة اتفاقية قد تمت بين كل (١) من الأمير سعود والشريف غالب . الا أن الحاضرين تساءلوا عن السبب الذى رعى اليه الأمير سعود من ارسال نفس الرسالة الى والى العثمانى وحاولوا ايجاد الجواب بأن يقارنوا ختم الرسالة بختم الشريف المعتاد لديهم فوجدوه مختلفاً عن الأوراق الأخرى التى ارسلها الى اسطنبول . وهذا يدل على أن الشريف نفسه قد خامره الشك باحتمال وقوع الرسالة فى أيدي الدولة العثمانية ، فاحتاط للأمر وختمها بخاتم مغاير للختم المعروف لدى الدولة - غير أن اسلوب الرسالة والاملاء وتنسيق العبارات قد أبطل الشك فى كون الورقة هى ورقة الشريف غالب وأن مسيرته لابن سعود ضرورة اوجدتها الظروف التى كانت تحيط بالشريف غالب والتى سبق له أن اوضحها فى خطابه السابقة التى أرسلها من مكة (٢) .

(١) المصنف، المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

(٢) وثيقة رقم ٢/١ - ٤٧٠ تدون تاريخ معية تركى .

كما تساءل أعضاء المجلس عن معنى غزو الشريف بجيشه العراق واليمن الا أن نقاشهم أسفر عن أن الشريف غالب قد خضع لأن الدولة لم تقدم له أى مساعدة تذكر ، وهكذا قد غلب على أمره فما عساه أن يفعل لأن وصول الدولة السعودية الى ما وصلت اليه من القوة يجعل ممن المستحيل انتصار الشريف عليها فقد ذكر ذلك الامام سعود نفسه لوالى بغداد وحده بأنه فى حالة انضمامه للامام سعود فسوف يوفر له الأخير عدد مائتى ألف من الجند مع ما تكفل به من مؤونة هذا الجيش ولا بد أنه سيوجهه ضد الدولة العثمانية ، كما تساءل المجتمعون عن موقف والى بغداد خاصة بعد استعراضهم رده على الامام سعود وقد أدركوا انه لم يكن بإمكانه تحرير غير ذلك فقد كانت الظروف المحيطة به خاصة من جانب ايران غير مواتية (١) .

ونظرا لاضطراب سلوك الشريف ومراوغته فقد كان الامام سعود نفسه وما أظهره الشريف قد أكد لديه ضرورة اعلام الدولة العثمانية عما يقوم به الشريف غالب من اتصالات بدول لا تمت لمكة بصلة كما وضع الأمير سعود خطة لمنع أية قوة عثمانية من الوصول الى مكة سواء كانت محاربة أو مرافقة للحج . ولذلك أصدر أوامره عام ١٢٢١هـ الى كل من عبدالوهاب بن عامر أمير عسير ورجال ألمع ، وفهاد بن سالم بن شكيان أمير بيشه وعثمان المضائفى فى الطائف وتهامة وكذلك حجيلان بن حممد على أهل القصيم ، ومحمد بن عبدالمحسن على أهل شمر والوشم ، وكان

(١) الوثيقة السابقة .

مكان لقاء هذا الجمع المدينة المنورة حيث التقوا بقبائل
حـبـر ، وجابر بن جـبـارة (١) ، بينما سار
سعود الى مكة وأرسل خراج ابن شرعان العتيبي الى المدينة مع رجاله
مزودا بالأوامر التي تنص على منع الحجاج الذي يأتون عن طريق الشام
واسطنبول ، وعندما حضر محمل الحج الشامي بقيادة عبدالله العظم ،
أخبره الأمراء بأنه ان أراد الحج فعليه التخلي عما يحمله من سلاح
فآثر العودة من حيث أتى . وهنا عزل الشريف غالب تماما عن الدولة
العثمانية ولم يجد مفرًا من اعلان تبعيته للسعوديين ريثما تتضح له
الأمور وخلال أربع سنوات كان يقابل الأمير سعود ويجتمع به ويـزوره
برفقة رجل أو اثنين من رجاله مظنرا الود والصداقة (٢) الى أن حج
سعود حجته التاسعة واجتمع بالشريف غالب عام ١٢٢٧هـ - ١٨١٢م الا أنه
فى هذا العام كان أمر حرب الدولة السعودية الذى آل الى محمد على
قد بدأ تنفيذه ، حيث وصلت قوات الدولة العثمانية بقيادة طوسون باشا
الى ينبع والمدينة المنورة ، واستعدت للسير نحو مكة وفى المقابل
استعد الأمير سعود للقاء هذا الجيش فوضع جزءا من جنده فى مكة ،
وهنا لا زال الشريف يتملق للأمير سعود ويعدده بأنه سيقف الى جانبه فى
وجه تلك القوات الغازية . الا أنه ما كادت قوات طوسوت تقترب من
مكة حتى نكث الشريف وعده لابن سعود وأعلن عداؤه للسعوديين وللقوات
المتركزة فى مكة . وهنا سارع الأمير عبدالله بن سعود بسحب قواته

(١) الوثيقة السابقة .

(٢) ابن بشر الممدد السابق ص ١٨٢ .

الى الريعان فالعبيلا ثم الخرمة ^(١) ودخلت قوات طوسون مكة فى رجب عام ١٢٢٨هـ - ١٨١٣م لتجد أن الشريف غالب فى استقبالها مرحبا مهللا. وهنا تغير حال الشريف غالب فانقلب من تابع للأمير سعود الى تابع لطوسون وأخذت سمات الغدر المختزنة فى نفسه ضد صهره وعدوه القديم عثمان المضاعفى تنجلى ، بل قام بقيادة قوات الدولة العثمانية التى هجم بها على الطائف حيث حاصر المضاعفى فى قصر بسل الى أن أمسك به جماعة من عتيبة وسلموه للشريف فما كان منه الا أن بعث به الى طوسون الذى أرسله بدوره الى مصر ومن مصر أرسل الى اسطنبول حيث قتل هناك ^(٢) ولم يكن الشريف غالب يعلم أن مصيره قادم اليه بعد فترة وجيزة فما أن دخلت قوات طوسون وتلتها جيوش محمد على حتى حدث ما كان يخشاه الشريف غالب وهو عزله عن اماره مكة وهو ما سنوضحه فى تفصيلنا لعلاقاته بمصر ^(٣).

وهناك وثائق ^(٤) تفيد بأن المشاحنات التى مار لها مدة طويلة بين كل من الأمير عبدالعزيز حاكم نجد وبين الشريف غالب أمير مكة المكرمة ، قد أدت الى القتال بين الطرفين ونظرا الى أن الأمير ابن

(١) المصطفى ، المصدر المصدق ، ص ١٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٦ .

(٣) حيث كانت لذلك العزل اسباب سبق شرحها فى علاقة الشريف غالب بمصر .

(٤) وثيقة رقم ٧/٤/٢ بدون تاريخ دارة الملك عبدالعزيز بالرياض وهى ضمن الوثائق التركية .

سعود مقيم بنجد لذلك لا يصح أن تدور رحى الحرب بين الطرفين . كما تلوم الشريف في الوقت نفسه على منعه حجاج نجد من أداء فريضة الحج أو التعرض لأحد من أتباعه ، كما تفيد بأن الدولة العثمانية قد حررت الى يوسف باشا والى جدة المكلف بالاقامة في المدينة المنورة بضرورة تقديم النصيحة للشريف المشار اليه والتوسط لدى الشيخ من أجل اتمام الصلح بين الاثنين ، كما حررت الى عبدالله باشا والى الشام ليعمل مع يوسف باشا المشار اليه ، ليعمل الاثنان على رفع الشقاق بين الاثنين نظرا لأن الشيخ من مقيمي البادية ولا تظهر لديه أغراض توسعية وافهام الطرفين بضرورة مراعاة أمن وأمان الحرمين . كما تفيد بأن الدولة العثمانية قد حررت خطابا للأمير ردا على خطابه الذي^(١) بعثه الى اسطنبول حيث أفادوا فيه بأن الشريف المذكور صار يباهى بأنه أمير مكة المكرمة ويجب بذل الاحترام والرعاية له حتى يتم الصلح . وكان يوسف باشا قد كتب ما معناه أنه لا يمكن عقد الصلح بين الطرفين لما دار بينهما من حروب . أما عن رد العربان الى الشريف فقد بعث الشيخ بخطاب مع أحد رجاله بعد غضب الشريف من يوسف باشا موضحا فيه أن الأقوال التي ذكرت بحقه غير صادقة ، موضحا كيفية البدء في القتال ، كما يفيد بأن الاصلاح بين الطرفين غير ممكن لأن الشريف لم يستمع لمراسلات الشيخ وأنه لا بد من رفع تعدى الشريف المشار اليه^(٢) . فقد هجم شيخ المنتفك على الشيخ المذكور مكلفا من قبل والى بغداد

(١) الوثيقة السابقة .

(٢) الوثيقة نفسها .

وقام بمحاربته ثم رفع والى بغداد يده عن التدخل فى هذا الأمر الا أنه أخذت كتب الشريف تتوالى شارحا فيها تحركات الشيخ أى ابن سعود وأن الشريف يجد نفسه مجبورا على تجهيز الجيوش للدفاع عن نفسه . وهكذا نرى بأن الدولة العثمانية نفسها لم تكن ترغب فى اراقة الدماء والسير بالقضية الى ما وصلت اليه بعد ذلك . واستمر غالب فى محاولاته غير مقتنع بما أبدته الدولة من الأمور فكانت أولى محاولاته الاستعانة بأمرء الحج . كما أن الشريف نظرا لما قام به من حشد للعربان فى الأطراف الأربعة ، ولما انفقه فى سبيل حفر الخنادق ومحاربة (١) السعوديين فقد أصبح غريق الديون ويطلب معونتهم بأمر من الدولة العثمانية كما أنه حصن جدة بالبناء واحاطها بخندق ، ومنع الغرباء والمسافرين من أهل نجد من دخولها . وبقي فيها معظم ايامه وبقيت عنده الجيوش الى وقت الحج (٢) . كما بايع أهل المدينة المنورة سعودا على دين الله قبل مبايعة غالب وعاهدوه على السمع والطاعة ، وتم هدم جميع القباب وبذلك اصبح ملك الأمير سعود يضم كلا من نجد والحجاز واليمن . وفى الوقت الذى كان غالب يتظاهر فيه بالولاء للسعوديين كان يضر فى نفسه شيئا آخر ، وكان يرسل (٣) ، (٤) ، (٥) المصريين سرا .

(١) الوثيقة السابقة ، رقم ٤٥١٩ .
 (٢) ابن بشر ، المصدر السابق ص ١٣٦ .
 (٣) رافق ، عبد الكريم : العرب والعثمانيون (دمشق ١٩٧٤م) ، ص ١١٤ .
 (٤) جوان ، المصدر السابق ، ص ٤١٦ .
 (٥) جتى ، المصدر السابق ص ٨٣٩ .

الفصل السادس

علاقات الشريف غالب بالدول الاجنبية

هلافة الشريف غالب ببريطانيا

نظرا لنشاط التجارة البريطانية فى البحر الأحمر خلال القرن الثامن عشر ، فقد كان موضوع نقل الارساليات البريدية بين انجلترا والهند عن طريق البحر الأحمر ومصر من الأمور البالغة الأهمية (١) . إلا أن هناك عقبات واعتراضات تقف حائلا فى هذا السبيل ، فمن الناحية الفنية البحتة نجد أن الرحلة من بومباى الى البحر الأحمر كانت متعذرة على السفن الشراعية لعدة أشهر من السنة بسبب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، كما أن هناك اسبابا دينية فالسفن المسيحية كانت ممنوعة لسنوات عديدة من الابحار لأبعد من جدة (٢) . أما من الناحية السياسية فقد كانت تلك الفترة فترة عدم استقرار فى مصر لأن حكام المماليك كانوا يحاولون اقامة دولتهم المستقلة عن الدولة العثمانية وكان الوباء منتشرا فى الشرق الأدنى بحيث ذهبت مدة الحجر المفروض بمزايا سرعة الاتصال التى يوفرها طريق البحر الأحمر .

(١) بلدوين ، جورج ، الثورة العربية الكبرى (القاهرة ، ١٩٤٥) تعريب

مدحت خيرى القدسي ص ٣ .

(٢) سجلات فاكتورى ، مصر والبحر الأحمر فى نهاية القرن الثامن عشر خاصة ،

ج/ ٦ رقم ٣٩٣ ، ص ١٨ - ١٩ .

(٣) بوركارت ، المصدر السابق ص ١٦ - ١٨ .

وعلى أية حال فإن المجهودات الفردية التى قام بها جورج بلدوين خلال الجزء الأخير من القرن الثامن عشر قد مكنت من إيصال الرسائل العاجلة والمهمة عن هذا الطريق بالرغم من أنه لم يكن منافسا جديا للطريق البحرى الذى يمر برأس الرجاء بالنسبة للأغراض المعنية .

كما ساعدت الظروف السياسية البريطانية فى تحقيق مآربها من ناحية أخرى ، ففي نوفمبر عام (١٢١٤ - ١٧٩٩) كتب السيد حامد أغا الوزير العثمانى فى جدة الى القائد الانكليزى فى عدن يناشده ارسال قوة بسرعة عظيمة كسرعة الحصان فى ذلك الوقت لمنع تقدم الفرنسيين نحو الحجاز واليمن . وقد اجابه لوفتنانت كولونيل ميورى ضابط القيادة الذى بعث بدوره برسالة الى قائد الاسطول البريطانى فى البحر الأحمر ، مضيفا بأن شريف مكة قد قدم فرقة حربية الى الادميرال بلانكت وقد علم أن الفرنسيين يجمعون الأهالى فى مراكز شراعية فى السويس . وأصبح من الضرورى على القوة البريطانية حماية المتاجر ، وتجارة المواشى على طرف البحر الأحمر ، وقد أفاد العميل السياسى الوطنى مرزا محمدى خان الذى أرسل الى جدة من الخليج العربى بواسطة حكومة بومباى فى مايو (١٢١٤ - ١٧٩٩ م) الجنرال رينارد والسيد هوم بوفام الذى أشار اليه خاصة بواسطة اللجنة السرية فى المكتب البريطانى ليزور مكة والامراء العرب . فأرسل بوفام رسالة من على الشاطئ الى الشريف يبلغه بأنه ينوى مقابله فى جدة لأنه يحمل تفويضا من شركة (١)

(١) المصدر السابق ، وثائق مكتب وزارة الهند ج/٦ رقم ٣٩٣ .

وهكذا تظهر الوثائق بأن بريطانيا جاءت لنجدة الآخرين ، فـ حين أنهم لا يسعون الا وراء مصالحهم الخاصة ، وقد تم تسليم هذه الرسالة باليد فى ميناء جدة على ظهر سفينة بريطانية ، والواقع أن العثمانيين

(۲) دی قوری ، المصدر السابق ، ص ۱۸۳ .

(٣) رافــــــــــــق : المصدر السابق، ص ٣٤٩ .

لم يسمحوا قبل ذلك فى الفترات السابقة للسفن الأوروبية بتجاوز ميناء جدة الى السويس وذلك لسببين :

- (١) لتخاشى تهديد هذه المراكب للأماكن المقدسة فى الحجاز.
- (٢) لكى تدفع تلك المراكب مكوساً فى مصر عن البضائع التى تحملها والتى تذهب مباشرة للحاكم العثمانى فى مصر ، بمعنى أن هذه المكوس تقع تحت رحمة السلطات التى تتصرف فى شئون مصر فيما لو دفعت الضرائب فى السويس .

وقد كان من مصلحة التجار الاجانب الفرنسيين أو الانكليز الذين نشطت تجارتهم بين الشرق الأقصى والدول الأوروبية اىصال بضائعهم مباشرة الى ميناء السويس ومن ثم نقلها برا الى البحر المتوسط . ومن هنا جاء اهتمام شركة الهند الشرقية الانكليزية وتلتها المشاريع الفرنسية فى هذه الفترة بالذات لربط البحر الأحمر بالأبيض عن طريق السويس .

وقد قابل الشريف أخيراً الانكليز فى جدة الا أنه افاد بأن المسئولية تقع على كاهل الصدر الاعظم^(١) . ونظرا لضعف العثمانيين فى الحجاز فى هذه الفترة فقد رأى الانكليز فى الهند ضرورة تحسين علاقاتهم مع كل من شريف مكة وامام صنعاء فكتب ولنجتون ثم ماركيز

(١) دى قورى ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

ولسلى فى اكتوبر عام ١٢١٦ - ١٨٠١ الى السيد بوفام الذى كان من بين الحرس الخاصين المجندين فى الجيش الانكليزى : " ——— خلال ما لديه من معلومات يعتقد أن هذه القوى خاصة شريف مكة وامام صنعاء تقريبا وان لم يكونوا جميعهم يعتمدون على الدولة العثمانية ، فانه حذر بأن قوة الشريف الحالية تحتم عليه أن يستخدم أقصى درجة من الحذر لمنع أى تدخل فى شئون البلاد الداخلية " . وعندما قدم بوفام الى الحجاز كان الشريف فى الطائف وقد أجابه بأنه ان كان يحمل أى تعليمات يجب عليه أن يرسلها فى خطاب^(١) ، من ناحية أخرى فقد كتب بوفام تقريره الذى بعثه من جدة فى ٣ يونيو ١٢١٧ - ١٨٠٢ ، وقد جاء فيه : " ان الباشا التركى فى مكة قد تم تسميمه عن طريق الشريف غالب " . كما أن ولنجتون أضاف لبوفام بأن اتصالاته هو الآخر سواء فى الحجاز أو فى مصر تطلب منه الرجوع الى السلطة العليا فى اسطنبول . وهكذا انتهت مهمته بالفشل^(٢) .

ومن الواضح بأن شريف مكة كان يشك فى نوايا الانكليز ولذلك طلب منهم الرجوع الى السلطة العليا . كما أن الأحداث التى كانت تحيط بمكة فى تلك الاونة لم تكن مشجعه اضافة الى عدم الاستقرار فى مصر نفسها ، كما ورد فى وثائق مكتب وزارة الهند بأن الادميرال^(٣) بلانكت يبدى امتعاضه لعدم مبالاة حكومته بالفرنسيين فى مصر

(١) دى قورى ، المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

يفيد ابن بشر ان الروم قد أخذوا مصر من الفرنسيين عام ١٢١٧ هـ وهى نفس السنة التى خرج فيها عثمان المصطفى عن طاعة الشريف غالب ، ص ١١٢ .

(٢) دى قورى ، المصدر السابق ، ص ٢٤٥ .
(٣) سجلات مكتب وزارة الهند . وثيقة رقم ٥٦٩ مؤرخة فى ٢٥ اكتوبر ١٨٠٠ م

فقد اعتمد الحجاز على مصدرين رئيسيين للثروة وهما رحلة الحج أو بالاحرى موسم الحج ، والمصدر الثانى هو نقل التجارة من الشمال للجنوب وبالعكس (١) ، ولذا حرص المكيون طوال تاريخهم على الابقاء على حسن العلاقة مع الدول المجاورة ، منذ أقدم العصور ، فكان من الطبيعى ان تقام آلاف الخيام للحجاج الذين يزورون المناطق المقدسة ، والذين يتسببون بالتالى فى انعاش الحياة الاقتصادية فلم يكن الحج هدفا دينيا فى حد ذاته ، بل كان من أهم الاحداث الاقتصادية فى الدولة العثمانية (٢) . فكان الحجاج من المغاربة والمصريين والأفارقة يتبادلون البضائع مع حجاج الهند وأندونيسيا كما يتبادل حجاج تركيا والبلقان بضائعهم مع حجاج اثيوبيا وازنجبار فالحجاج يقيمون مكة لأداء فريضة الحج ، وممارسة التجارة فى آن واحد ، وكانت حكومة مكة تتقاضى ضريبة مقابل ذلك على البضائع التى تصل مكة أو جدة . فقد ورد فى تقرير عائد لعام ١٢١٢-١٧٩٧ حول التجارة فى البحر الأحمر ما معناه أن دخل ميناء جده ينشط خلال موسم الحج وأن دخله قسمة بين شريف مكة وشريف جدة (٣) .

(١) سجلات وزارة الهند - مارين ميسيلانوى .

(٢) سجلات وزارة الهند ، (فاكستورى) مصر والبحر الأحمر ، ج ٦

(٣) سجلات فاكستورى ، مصر والبحر الأحمر ، ج ٦ ، ١٧٩٧ ، أنظر أيضا فالنسيا جورج فيسونت ، رحلة وأسفار فى الهند ، سيلان والبحر الأحمر ، العباسية ومصر فى عام ١٨٠٢ - ١٨٠٤ ، ج ٣ (لندن ١٨٠٩) ص ٣٢٦ .

وكان نقل البضائع من جدة يسير فى طريقين ، تجارة البن مع اليمن ومن ثم الهند . ولم تكن مصر تستخدم كسوق لسائر فروع هذه التجارة بل كانت معبرا رئيسيا تنقل هذه التجارة خلاله الى سائر انحاء الولايات العثمانية وأوروبا^(١) . وكانت كمية قليلة من البن اليمنى ترسل الى أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية النصف الثانى من القرن الثانى عشر الهجرى - الثامن عشر الميلادى ، الا أن الجزء الأكبر كان يصلها عن طريق جدة ومصر ، وقد كانت الأساطيل الهندية تزور جدة كل عام^(٢) . ومن ثم تنقل تلك البضائع على سفن أخرى الى مصر ، وبالرغم من أن حكام مكة قد استفادوا كثيرا من التجارة الا أن تقاليد الاشراف جعلت منها أمورا صعبة لغير المسلمين الذين يرغبون فى ممارسة التجارة فى الحجاز^(٣) .

فى عهد الشريف سرور طرد اليهود وسماسة الهند من جدة ، فى حين أن التجار المسيحيين القليلين الذين كانوا يزورون هذا الميناء كان عليهم أن يلبسوا ملابس خاصة . وعندما ضعف النشاط الاقتصادى فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الهجرى - الثامن عشر الميلادى فى البحر الأحمر زاد الاشراف من الضرائب والمقدرات الخاصة بهم . وعندما

(١) بوكارت ، المصدر نفسه ، ص ١٦ - ١٨ .

(٢) فالنسيا ج ٢ ، ص ٦٤ ارسيف ميسير ، مخا ١٧١٠ - ١٨٢٩ .

(٣) معتمد البصرة فى ١٥/٨/١٧٩٠ مارين ميسولونى ٩١١٠ ، ذكر أن أكبر مصدر للدخل فى جدة كان تجارتها مع مصر وجنوب افريقيا . أساطيل السويس كانت تزور جدة بشكل دورى لشراء البضائع الهندية وبن اليمن - مصدر والبحر الاحمر ، ج ٦/ ص ٤٥ - ٦٠ .

حاولت السلطات فى جده مصادرة كل البضائع التى أحضرتها السفن البريطانية من الهند ، لم يهدد التجار البريطانيون بنقل تجارتهم الى السويس فقط ، بل هددوا الشريف نفسه بضرب الميناء ، وعندما خشى الشريف من تدهور تجارته مع الهند استخدم كل نفوذ له لدى الدولة العثمانية لمنع السفن الانكليزية أو المسيحية بالبحار بالقرب من جدة (١) . كما وضع حامية لمنع السفن الانكليزية من الاقتراب من جدة وحال حصول هذه الحامية على سفن صغيرة استطاعت أن ترغم السفن الكبيرة على التوقف ودفع الضرائب . كما استطاع الشريف أن يرغم هذه السفن على انزال بضائعها ومن ثم إعادة شحنها . وكان الحجاز بحاجة الى قمح مصر ، وفى تقرير يعود لعام ١٨٠٢م ذكر أن المينائيين الرئيسيين فى كل الساحل الجنوبى للبحر الأحمر المسئولين عن تجارة القمح هما السويس والقصير (٢) . وكانت اكبر قافلة حج هى المحمل المصرى ويسير بصحبة هذا المحمل الصرة (٣) ، وهى عبارة عن نصيب الاشراف من أوقاف مصر العائدة لفقراء الحرمين واحتياجات الحجاز اضافة الى المخصصات العائدة لأسر الأشراف (٤) .

(١) فالنسيا ، ج ٣ ص ٣٣١ ومن الأفضل ان نذكر أنه فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر كان الشريف يملك سفنا كبيرة عملت فى التجارة مع الهند ، ولذلك عمل فى نقل البضائع الاخرى . انظر مصر والبحر الأحمر ج/٦ ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٢) بوركارت ، بلاد العرب ، المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٣) هوم بوقام ، فاكثورى ريكورد ، مصر والبحر الأحمر ج/٦ ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ على نفس الموضوع ، المصدر نفسه ، ص ١٠٩ - ١١٠ ، ماريين

ميسلان ج/٨٩١ ، ص ١٨٨ ، المعتمد فى البصرة ١٧٩٠ .

(٤) فاكثورى ريكورد ، مصر والبحر الأحمر ، ج ٦ نمرة ٣٩٣ .

وفى نهاية القرن الثانى عشر ، الثامن عشر كان شريف مكة يعتبر من أعظم الحكام وأهمهم على البحر فقد كانت سلطته لا يحدّها سوى وجود الباشا العثمانى فى المدينة وتبعيته الثانوية لوجود الأغا فى جدة . فكان هناك نضال من أجل القوة بين كل من شريف مكة والمسئولين العثمانيين فى الحجاز منذ دخول الحجاز تحت التبعية العثمانية ، وسلطة الباشا التركى تعتمد على مدى نجاح الدولة فى ذلك الوقت ومدى قوة الشريف^(١) ، فالشريف يطمح بالطبيع كغيره من الأشراف قبله أى يرى الحجاز أقل ارتباطا واعتمادا على الدولة العثمانية ، ومع ذلك حافظ على وجود الباشا العثمانى . ورغم انشغاله بالحروب مع الدولة السعودية الأولى الا أنه استطاع أن يخضع المنطقة لسلطانه^(٢) .

وعندما دخلت الأساطيل الفرنسية التى تحمل نابليون فى ١٢١٢ - ١٧٩٨م الى الإسكندرية أصبح الفرنسيون أسياد المنطقة^(٣) العليا ، وتابعوا سيرهم الى السويس وبالتالى كان الغرض من ذلك الوصول الى سوريا وإيجاد علاقات مع الدول المطلة على البحر الأحمر

(١) بلدوين ، المصدر السابق ص ١٨ - ١٩ .

(٢) هـ ٢٤٧ ، ص ١٤١ - ج ٤٧٠ ص ٣٦ ، ٣٣٧ - ف - ر ، مصر والبحر الأحمر ج ٦ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ ، اروبين أى رحلة فى اعلى البحر الأحمر

(لندن - ١٧٨٠) بوركارت المصدر السابق ، ص ١٨ ، العربية ، المصدر السابق ص ٤٦ .

(٣) هيرولد ، ج كريستوفر ، بونايرت فى مصر (لندن ١٩٦٣) ص ٢٢١ .

والمحيط الهندي^(١) . ورغم أن بعض الكتاب المحدثين يشك فيما إذا كان ناليون قد قصد فعلاً استخدام مصر كمعبر إلى الهند ، إلا أنه من الواضح أن وجود الفرنسيين في مصر كان يحتم عليهم إقامة علاقات مع حكام الجزيرة العربية والهنود والمسؤولين الفرنسيين في الهند^(٢) . فعندما علمت حكومة الهند عن وصول الفرنسيين إلى مصر سعت من جانبها لمنع أي تقدم لهم^(٣) . فقد قام القائد ميوري بمهمة في بداية عام ١٢١٢ / ١٧٩٨م أعقبها قيام اسطول انكليزي بقيادة الأدميرال بلانكت إلى ميناء جدة^{(٤)*} ، حيث ظن أنه بإمكانه الحصول على وعود من الشريف بايقاف أي تعاون بينه وبين الفرنسيين في مصر إلا أن تدخل الرياح العاتية جعل من المحتم على بلانكت أن يتترك الجزء الجنوبي من البحر الأحمر قبل ١٢١٢هـ - يوليو ١٧٩٩م ، ولم يستطع الإبحار خلال هذا العام شمالاً إلى بداية عام ١٢١٣ - ١٨٠٠ . كما حرص على الاتصال بالقوات البريطانية في عدن^(٥) . وكان الانكليز

(١) وهناك وثائق تحت نفس الموضوع تحمل رقم ج/٢٩/١٣٢٧ بغداد في ديسمبر ١٧٩٨هـ .

(٢) انظر مراسلات النقل للغزاة الفرنسيين في مخا - ١٧١٠ - ٨٢٩ - هـ - م ج ٤٧٧ ، ص ٣٥٩ ، رسالة إلى ميوري ١١ - ٦ - ١٨٠١ ف - ر مصر والبحر الأحمر ، ج ٦ رسائل من الكولونيل ميوري - مخا .

(٣) حول نفس الموضوع وهو وصول الفرنسيين إلى مصر يخشى عليه من وصولهم إلى الهند .

(٤) هـ - م ج ٤٧٢ ، ص ١٨٣ ميوري - مخا ١٨٠٠/٢/٩ هـ - م ج ٢٦٠ .

(٥) هـ - م ج ٤٧٢ ، ص ١٨٣ ميوري - مخا ١٨٠٠/٢/٩ هـ - م ج ٢٦٠ .

* توجد وثائق تحت رقم ج ٢٧/٢٩ في ١٧٩٩م .

ممتنين فى ذلك الوقت من علاقاتهم مع الأمراء العرب فى البحر الأحمر فقد أعطى شريف مكة وعودا بأنه لن يبق على متاجرته مع مصر فحسب بل سيكون على اتصال مع القائد ويلسون^(١) المعتمد البريطانى فى الخليج العربى ، الا أن بلانكت بعد أن اطلع جواسيسه المطلعين على الحقائق كتب فى عام ١٢١٢ - ١٧٩٩م بأنه لا يتهم الشريف غالب بالتعاون مع الفرنسيين فحسب بل يجزم بذلك^(٢) . ولذلك يجب أن يتشاور الشك الانكليز ، كما أن حكومة مكة مدركة تماما لكل الأوضاع المحيطة بالانكليز . فهم قد مونوا الفرنسيين بالجمال من الطور مع كميات من الفحم ، كما أن سكان ينبع يتاجرون معهم عن طريق القصير ، وذلك بتزويدهم بالقمح ، وسكان جدة والسويس وهم يمونون بالبن والبضائع الأخرى . وقد عززت مخاوف العثمانيين تلك الشكوك فقد طلبوا من الانكليز الحضور الى جدة نظرا للحالة المضطربة فى الحجاز فى عام ١٢١٢ - ١٧٩٩م^(٣) . كما كان الغرض من ذلك ايضا حماية الجيش العثمانى الذى أرسل الى مصر^(٤) . وعندما وصلت السفينة سكواردن الى جدة فى

(١) ف - ر مصر والبحر الأحمر ج/٦ من الادميرال بلانكت الى الجنرال فى

البصرة ١٧٩٩/٨/٥م .

(٢) من هنا يتضح لنا أن الشريف غالب كان مشار شك من غالبية الذين تعامل معهم .

(٣) بالنسبة لجونكيث ج ٣ ، ص ٦٧٥ مكتب سجلات وزارة الهند . فقد أخذت القصير فى آخر يوم من مايو . وكان الادميرال بلانكت قلقا حول تلك السفن وثلاثة قوارب للأسلحة التى بناها الفرنسيون فى السويس من اخشاب الاسطول الفرنسى لاجونكيث ج٣ المصدر نفسه ، ص ٢٠٦ .

المصدر نفسه .

أول شهر من عام ١٢١٣ - ١٨٠٢م بعد أن اتحدت مع القائد ميورى . كان الانكليز لا يزالون يحاولون جذب شريف مكة الى جانبهم ، الا أن الأمر قد قوبل بورود رسالة من مصر تفيد بسير العلاقات التجارية بصورة اعتيادية بين كل من جدة والسويس خاصة بعد نجاح الفرنسيين فى ضم مراد بيه ، كبير المماليك الى جانبهم ، كما رشوا الوزير الكبير فى سوريا ليساعدهم (١) . كما عبروا عن رأيهم فى الشريف وموقفه من الدولة العثمانية بعد أن اتضح له دورها الخاسر ، خاصة بعد وفاة يوسف باشا حاكم المدينة الذى كان يتصف بالاعتدال وهو الذى ساعد فى الابقاء على العلاقات الحسنة بين الشريف والدولة العثمانية . فقد أمر الشريف المقيم التركى فى جدة بمغادرتها مع جميع الموالين له . وقد أرسل الأخير الى القصر ومنها الى ينبع وأظهر أنه ينوى طرح كل اعتماد له على الأتراك . ورغم أنه ممسك بزمام الأمور الا انه لم يظهر عداؤه للانكليز . ولذلك لا يمكن اعتباره ضمن المحايديين (٢) وعندما اتضح أن الأتراك غير قادرين على اخراج الفرنسيين من مصر تكفل الانكليز بهذا الأمر فى نهاية القرن الثانى عشر - الثامن عشر ١٢١٢ - ١٧٩٧م ونفذت خطة غزو مصر من البحر المتوسط والبحر الأحمر ، كما انتهز الانكليز هذه الفرصة ووطدوا نفوذهم فى البحر الأحمر الا أن مخاوف بلانكت لم تكن قد انتهت ، فقد عاود الكتابة فى

(١) تقرير المعتمد فى البصرة ، مارين ميسلونى ، ٤٩١ ص ١٨٨ تقارير مختلفة
مصر والبحر الأحمر ، ج ٦/٠

(٢) وهناك وثائق بتاريخ ٢٣ اكتوبر فى عام ١٧٩٧م تحت الرقم السابق
وهى تفيد ايضا انه ما لم ترسل قوة بريطانية الى مصر العليا فانه
يبدو حينئذ انه لا توجد عقبة مادية تمنع الفرنسيين من النفاذ خلال
فترة وجيزة الى قلب سوريا حيث يقابلون هناك بمصفة عامة باستقبال
ينسجم مع انظارهم .

أغسطس عام ١٢١٢ - ١٨٠٠م بأنه على يقين تام من أن الشريف يخدعهم ولذلك تكفل باخراج الفرنسيين من السويس^(١) . وأخيرا قرر المجلس الانكليزي في آخر عام ١٢٠٠ - ١٨٠٠م غزو مصر وأرسل القائد بوفام الى البحر الأحمر ليعيد تنظيم قواته .

وعندما حصل الانكليز على وعود من هنري دندس تبشر بمساعدة سائر قواد البحر الأحمر وخاصة شريف مكة لذلك عرض الانكليز اقامة وكالة تجارية في جدة تساعد على توسيع تجارة البحر الأحمر وخاصة منطقة الحجاز التي أفسدت تجارتها في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري ، الثامن عشر^(٢) ، ولمساعدة هوم بوفام في محادثاته مع الشريف أرسل على خان الى جدة الا أن تلك المحادثات قد تعثرت^(٣) .

كما رسخ الفرنسيون أقدامهم في مصر وطرح مينو خطة ثابتة للمستقبل^(٤) . غير أن تعاون الشريف مع الانكليز كان بعيد الحدود نظرا لبقاء الفرنسيين في مصر ، ورغم أن نهاية آخر شهر من عام ١٢١٣ - ١٨٠١م قد شهدت أن جلاء الفرنسيين عن مصر قد أصبح وشيكا الا أن المحادثات الانكليزية مع الشريف لا زالت صعبة المنال . وفي

(١) ه - م ج ٤٧٤ ، ص ١٠٨ - ١١٢ جدة في ١٨٠٠/٦/٣٠م

(٢) ه - م ج ٤٧٣ ، ص ٣٢١ ، انظر ف - ر مصر والبحر الاحمر ج/٦ في ١٨٠٠/٥/٣١ .

(٣) كما توجد وثائق اخرى عن باشا بغداد تفيد باجراة اتصالات معه فيما يتعلق بالاسئلة التي وضعت من قبل المستر مانستى محافظ البصرة بشأن عبور جيش بريطاني من البصرة الى البير ، ومن هناك الى سوريا وهي تحمل نفس الرقم السابق مواعده في ٢٣ اكتوبر ١٨٠٠م .

(٤) ف - ر مصر والبحر الاحمر ج/٦ ص ٨٩ .

(٥) ف - ر مصر والبحر الاحمر ج/٦ في رسالة من المجلس السري لحكومة الهند الى السيد هوم بوفام دون فيها ما معناه ان تجارة البن في البحر الاحمر قد انحدرت ص ٨٩ .

ابريل من عام ١٢١٣ - ١٨٠١م أفاد على خان بأن الشريف قد رحل
الاتراك من جدة وأنه سيدفع جزية سنوية فيما بعد ، وقد تعهد له
الفرنسيون بوصول الصرة السنوية المعتادة ، وقد وعد الشريف بتغيير
سياسته مع الفرنسيين اذا تعهد له الانكليز بالآ يرسل الاتراك
مسؤولين من قبلهم الى جدة ، وأنه لن يدفع جزية سنوية ، كما يظل
ارسال الصرة كما هي (١) ، وكانت تلك المطالب تتعارض مع سياسة
الانكليز الذين سئموا من طول تلك المحادثات (٢) . الا أن على خان
أفاد بأن الشريف غالب قد خلع ، كما أفاد بأن جميع أهالى الحجاز
مسرورون لتخلصهم من حكم الشريف غالب ، كما وعد الشريف عبدالله بن
سرور الانكليز بأنه فى حالة بقاءه فى السلطة فانه لن يفعل أى شئ
من شأنه الاضرار بهم (٣) . كما وضع على خان خطة للقبض على الشريف
غالب من سفينته التى اعتاد البقاء عليها عدة ساعات كل يوم . وبذلك
يقبض عليه بعد الاتفاق مع قبائل حرب والشريف المتوج . الا أن هذا
الامر قد أثار بوفام كثيرا نتيجة لاهمال وحماقة مهدي على خان فى
تصوره للأمور الى الحد الذى يستطيع فيه ان يتحمل أمرا كهذا (٤)
الا أنه قد رغب حقيقة فى تنمية الشريف غالب حسب ما يتضح من

-
- (١) ف - ر مصر والبحر الأحمر ، ج / ٦ ، ص ٩١ فى ١٨٠١/٦/٢٦ م .
(٢) ه - م ج ٤٧٦ ، ص ٣٤٩ - ابريل ١٨٠١م ، انظر ايضا المصدر السابق ص ٣٣٧ - ٣٤٠ .
(٣) ف - ر مصر والبحر الأحمر ج / ٦ ، ص ٧٠ - ١٠ - ٥ - ١٨٠١ م .
(٤) ف - ر مصر والبحر الأحمر ج / ٦ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ مهدي على خان الى
الجنرال بيرد فى ١٨٠١/٦/٧ م .

رسالته التي حررها في نهاية شهر يوليو (بعد جلاء الفرنسيين عن مصر ، الى اللورد "الجن" في اسطنبول^(١) ، حيث أخبره بأن الشريف مرابي وأنه عدو للانكليز ويسير ضد رغبتهم ويراوغ في أى معاملته معهم . كما أفاد بأنه يسعى لدى الدولة العثمانية للحصول على تفويض من الدولة العثمانية الى اللورد ولسلى لازاحة هذا الشريف المرابى ، ووضع الشريف المناسب مع احتفاظ الانكليز بقوة فى البحر الأحمر . رغم أن ذلك يعتبر تصرفا غير اعتيادى تجاه رأس الأسرة المحمدية الدينية الا أنه سيحقق فائدة عظيمة ومناسبة فى مملكتهم عالميا لاستبداده . وقد تحدث هذه المشاكل الجنرال بيرد قائد الحملة الانكليزية الى البحر الأحمر ، والذي كان يمثل أعلى سلطة فى المنطقة عما يجب عمله مع الشريف غالب بعد تلك الرسالة التى بعث بها مهدى على خان المؤرخة فى ١٢١٣ - ١٠ - ٦ - ١٧٩٩ م ، والتي شرح فيها سرور الشريف غالب من معاملته مع الفرنسيين خاصة أن الرسائل قد تبودلت بين كل من شريف مكة والجنرال الفرنسى مينو والتي تمكن الانكليز من القبض عليها . وبعد أن شرح الجنرال بيرد شكوكه واضعا فى اعتباره التصريحات التى أدلى بها على خان فى رسالته التى بعث بها اليه^(٢) . حيث أوضح خطورة تنحية الشريف بالقوة لأن ذلك سيؤدى الى اشارة المسلمين فى سائر انحاء العالم الاسلامى^(٣) .

(١) المصدر السابق ، ص ٩١ - ١٨٠١/٦/٢٦ .

(٢) انظر ايضا هـ - م رقم ٤٧٠ ، ص ٣٦ من فبراير ١٨٠٠ .

(٣) انظر المصدر نفسه ص ٢٨ .

وانه وان كان الشريف غالب مرابيا ، وأن حكومته لا تحظ بشعبية
الا أنه يجب معالجة الموقف بشئ من الحكمة ، وأن تكون خطة التنفيذ
مضمونة النجاح قبل البدء بها . وقد ختم الجنرال بيرد رسالته
بتعليمات الى السيد هوم بوفام بضرورة الذهاب الى جدة لبحث الأمر
على الطبيعة . ورغم أن الشريف كان عليه ضغط نتيجة لظهور الدولة
السعودية الأولى والانتصارات الانكليزية فى مصر ، الا أن الشريف غالب
ظل على موقفه من انشاء وكالة تجاريه في جده . كما أنه لم يجد الحالة
فى جدة كما شرحها له مهدي على خان فبالرغم من أن الشريف لم يكن
محبوبا من قبل بعض الأسر المرموقة والتجار الا أن ذلك لا يعنى أن
يرحب الأهالى بالتدخل الأجنبى فى بلادهم . الا أن بوفام امتعض لذلك
الأمر ، وحرر الى الماركيز ولسلى الحاكم العسكرى للهند بأن خداع
الفرنسيين للشريف لا زال مستمرا . وعندما أخذت قوة الدولة السعودية
تنمو تدريجيا فى الحجاز . بدأ الأمر أكثر وضوحا وأن الشريف غالب
فى وضع يهدد رغبات الانكليز ، فقد شغل الانكليز بجلاء الفرنسيين عن
مصر . والخلاف بين العثمانيين والمماليك حتى تمضى لمشاكل الشريف
وبالتالى كان على القوات الانكليزية أن تخرج من مصر والبحر الأحمر
فى الحال وترك الشريف ليوافقه مصيره (١) .

(١) عندما طلب الشريف مساعدة السفن البريطانية المحاربة ، رفض
طلبه ، ف - ر ، الممدر السابق فالنسيا ، ج ٢ ، ص ٨١ .

وقد أخذت رغبة حكومة الهند فى البحر الأحمر تضعف لغزو الفرنسيين مصر ، كما أن الشريف نفسه لم يكن واثقا مما يجب عليه فعله ، وبالطبع لم يكن يود رؤية القوة المسيحية فى البحر الأحمر ، كما تدخلت الدولة العثمانية نفسها فى أموال الصرة يضاف الى هذا أنه كان يدفع لها جزية سنوية^(١) ، بالإضافة الى انشغاله بالحروب مع السعوديين ، ولكنه كان يعتمد على مبدأ " انتظروا راقب " فلم يمنع خروج آلاف المحاربين من جدة الى ينبع ف البحر الأحمر الى القمير^(٢) ، ولكنه لم يقم بأى شئ ضد الفرنسيين وفوق ذلك كله لم يصرح بالجهاد ضدهم فى عاصمة ملكه مكة ، كما أنه قد كف عن دفع الجزية السنوية التى كان يدفعها سنويا الى الدولة العثمانية^(٣) ومن ناحية أخرى وصلت أنباء الى بلانكت تفيد بأن الشريف يتعاون مع الفرنسيين بتزويدهم بالجمال والفحم للطاقة^(٤) ، مما مكنهم من الاتجاه نحو سوريا وكانت تلك اولى خطواتهم حيث نشأوا هناك^(٥) ورغم أن بلانكت قد اتهم أهالى ينبع بممارسة التجارة مع الفرنسيين عن طريق

-
- (١) فالنسيا ج/٢ ، ص ٣٦٤ ، رسائل من وليام جاكوب .
 (٢) هيرولد ، المجلد السابق ص ٢٤٥ ، ص ٢٤٦ - ٢٥٥ .
 (٣) وقد أبدى الاميرال بلانكت مرارة لعدم اهتمام حكومته بأمر الفرنسيين فى مصر ويشك فى أن الشريف مكة سيتفق معهم فى السويس ،

- (٤) ه - م رقم ٢٧٤ ، ص ١١١ - ١١٢ بلانكت
 (٥) ف - ر مصر والبحر الاحمر ج ٦/ بلانكت فى ١٨٩٩/٨/٥

القصور الا أنه اعتبرهم أهم مصدر لاشارة المتاعب فى مصر العليا فعندما سقطت القصور فى مايو ١٢١٢ - ١٧٩٩م عانى أهالى الحجاز حالة صعبة للغاية فقد اعتمد الحجاز بصورة دائمة اقتصاديا على مصر ويتمثل ذلك فى المحمل والصرة التى تصل مع القمح المصرى . وعندما أصبح الطريق الثانى بين كل من مصر والحجاز فى ايدى الفرنسيين بدأ الأهالى فى الحجاز بالمتاجرة بكميات كبيرة مع الفرنسيين نظرا لتوطد الحكم الفرنسى فى مصر ، بل وامتداده الى فلسطين . وقد كانت ثقة الشريف فى الفرنسيين نابعة من اعتقاده بضعف الدولة العثمانية ، ولذلك فلم يكن يرحب بالانكليز الذين أرادوا توطيد سلطة العثمانيين فى البحر الأحمر .

وهكذا نظر الى الانكليز بالريبة والشك وهم فى الحقيقة كانوا يسعون لمنافسته تجارة البحر الأحمر . وكانت شخصية ودبلوماسيية يوسف باشا الحاكم التركى فى المدينة السبب الوحيد الذى منع الشريف من اتخاذ الخطوة الأخيرة ضد العثمانيين^(١) . الا أن مساعى يوسف باشا قد باءت بالفشل بعد فشل الفرنسيين فى سوريا اضافة الى ورود انباء تفيد بخروج جيش عثمانى يسير باتجاه مصر . ورغم اضطراب الشريف الا أن الأمور سارت لصالحه ، فقد نجح الفرنسيون فى

(١) ف - ر مصر والبحر الأحمر ، ج/٦ بلانكت ، المصدر السابق .

اجتذاب مراد بيه لفهم ، كما أعقب ذلك وفاة يوسف باشا فى نفس الوقت ، لذلك لم يكن من السهل على الشريف ان يتراجع بل كانت كل الظروف مواتية تماما ، فقد وعده الفرنسيون بارسال كامل الصرة اليه من مصر ، والتى كان الشريف يتقاسمها مع السلطان فى الماضى (١) . وبدأ بالفعل فى اخراج الموظفين العثمانيين من الحجاز وربط عجلته بالفرنسيين فى مصر (٢) . ولم يكن يحقد على الانكليز فقط لكونهم مسيحيين ، بل لكونهم حلفاء للأتراك .

(١) هـ - م ، ج / ٤٧٦ ، ص ٣٣٧ - ٣٤٠ - ٣٤٩ .

(٢) جنرال بيرد - ف - ر مصر والبحر الاحمر ، ج ٦/ ص ١٠٢ ، ١٠٦ فى

١٨٠١/٦/١٠ م .

علاقة الشريف غالب بفرنسا

لقد ذكرنا فى المقدمة أن فترة الشريف غالب عاصرت أحداثاً هامة كان من بينها الحملة الفرنسية على مصر والشرق (١٢١٣ - ١٢١٦هـ) (١٧٩٨ - ١٨٠٣م) . وكان لكل من الشريف غالب ونابليون اطماع فى تجارة البحر الأحمر ومصالح متبادلة ، وإذا عرفنا أنه عند مجيء الحملة الفرنسية كان الشريف غالب فى أوج نفوذه وسيطرته ومهما قست آراء المؤرخين حول الشريف غالب بن مساعد إلا أنه قد لعب دوراً بارزاً خلال فترة حكمه وكان قوة لا يستهان بها داخل الحجاز . فقد حكم نحو من ستة وعشرين سنة ابتداءً من عام (١٢٠٢ - ١٧٨٨) وكان من دهاء العالم (١) .

وقد حرص نابليون من جانبه أن يوطد علاقاته بالشرق وبالشريف خاصة وكان لهذا حرص أسبابه (*) ومبرراته السياسية والحربية والدينية والاقتصادية (٢) . وقد تلاحمت هذه الأسباب جميعها وأدت الى قيام

(١) الجبرتي ، المصدر السابق ج/٤ ، ص ٢٦٢ .

(*) كما سعى نابليون من جانبه لاجتذاب السعوديين الا انهم كانوا فى مأمن من آرائه نظراً لتمسكهم بالسنة ، جودت ، المصدر السابق، ج/٢ ص ٢٩٢ .

(٢) بغرض فرض الحصار الاقتصادى على بريطانيا

(*) حول نفس الموضوع ، انظر مجلة الدارة ، العدد الثالث السنة السادسة مقال بعنوان " مراسلات متبادلة بين الشريف غالب ونابليون " د. عنانى محمد زكريا ، جماد ثانى ١٤٠١هـ ، ابريل ١٩٨١م ص ٧٣ .

مراسلات بين كل من الشريف ونابليون وهى واضحة الدلالة فى هذا الصدد . فقد كان نابليون يعلم أن لا قبل لبلاده بالتمدد للأسطىول البريطانى الذى كان من جانبه يشدد الخناق على الحملة الفرنسية ويسعى ليقطع عنها كل سبل الاتصال بفرنسا . ولذلك كان على الانكليز من جانبهم أيضا أن يجدوا لهم أعوانا فى المناطق الأخرى المجاورة ، وأن يجدوا وسائل غير مباشرة لاشعارهم عما تقوم به السلطة العليا فى باريس ، وقد كان الشريف غالب احد تلك الوسائل حتى اعتبرت الشريف نفسه مسئولا عن غزو الفرنسيين لمصر^(*) . بالإضافة الى أن مصر ما كانت لتستطيع الاستغناء عما يردها من متاجر الهند وأفريقيا واليمن ، والتي كانت تأتيها عن طريق البحر الأحمر ، وقد كان لشريف مكة دور فعال فى نقل هذه البضائع من الهند الى مصر عن طريق جدة على أننا لا يجب أن نتجاهل الاعتبار الدينى الذى كانت له منزلة الصدارة من بين هذه العوامل ، فقد كان نابليون يعلم أن

(*) يقول ابن بشر أن سبب غزو الفرنسيين لمصر بأنه كان لهم مالا عند أمين لهم فى مصر قبضى من القبط وأراد ارساله اليهم فعلم باشا مصر مراد بك بذلك وغضب لاختفائه عن العثور وامر بأخذه كله فقال له الأمين خذ العشر ورد الباقي فلم يجبه وأرسل الى كبيرهم دون جدوى فلما يئس من ذلك توجه الى السلطان سليم حيث أخذ منه رسائل بأخذه منهم دون التعرض لمصر وختمها بختمه . وبعد ذلك توجهوا بجيوشهم الى الاسكندرية ، ص ١١٤ ، كما يفيد فى ص ١١٧ ، بأنه قد أخذ هذه المعلومات من وريقات وجدتها بعد فتح عثمان المضائق الطائف ولا يعرف صاحبها .

القضية الكبرى التى تواجهه هى عقبة الدين ، ولذلك سعى من أجل تملق مشاعر الأمة كما يتضح من المنشور الذى بدأ فى طبعه على ظهر الباخرة أوريان قبل وصول الحملة بأيام ، الذى وزعت منه الوف النسخ فقد جاء فيه بعد البسملة ما يفيد بوحدانية الله وأن الفرنسيين قد جاءوا الى الشرق لتحقيق الحرية المساواة (١) . كما جاء فى آخر طلب الى الأهالى بضرورة اتباع الصمت والهدوء وشكر الله على نعمته حيث وفق الفرنسيين فى القضاء على دولة المماليك فى ظل السيادة العثمانية ، كما يتضح ذلك من خطابه الذى بعثه الى الشيخ محمد المسيرى أحد علماء الاسكندرية حيث ذكر له أنه بصدد وضع نظام أساسى موحد معتمد على مبادئ القرآن ، تلك المبادئ الصحيحة التى تكفل للناس سعادتهم . بل الأدهى من ذلك أن جاك مينو والذى عين حاكما لشغر رشيد ، قد تظاهر باعتناق الدين الاسلامى وسمى نفسه عبد الله جاك مينو ، كما تزوج بسيدة مسلمة وأظهر أنه بعد اسلامه قد اصبح له ما للمسلمين وعليه ما عليهم (٢) .

وسنتناول هذه الرسائل التى تبودلت بين كل من الشريف غالب بشيء من التفصيل فقد ورد فى الرسالة الأولى التى كتبت فى (٢٥ أغسطس ١٩٧٨ م) (ربيع الاول ١٤١٣ هـ) ، والتى بعثها نابليون

(١) - الجبرتي ، ج/٢ ، الممدر السابق ص ٢١٢

(٢) الممدر نفسه ص ٧٧ .

فيما اذا كان الشريف يرغب فى أن تقوم فرقة تابعة لنابليون بحماية القافلة أو يكتفى بفيلق خيالة من أهل البلاد ، كما يطلب منه اشعار جميع التجار والمؤمنين بأنه لا يوجد للمسلمين من هو أكثر من نابليون صداقة لهم وللأشراف خاصة وكل الذين يكرسون وقتهم وطاقتهم لتعليم الشعب . كما أكد للشريف بأن التجارة ستكون بعيدة عن الخطر ، وأنه سيكفل لها حماية خاصة . كما يطلب منه أن يفيدته عن الأشياء التى يحتاجها من القمح والأرز ويفيده بأنه سيتكفل شخصيا بأن تصل اليهم . وهنا يرد عليه الشريف غالب برسالة يقوم الفرنسيون بوضع نسخ منها فى المواضع الرئيسية ليطلع عليها الناس ويظهر على فئتها الفرنسيون بمظهر الحريصين على اقامة الشعائر الدينية وتوضح حسن علاقاتهم مع شريف مكة . وقد ورد فى تلك الرسالة بعد البسملة ، من الشريف غالب ابن مساعد شريف مكة الى امير الجيوش الفرنسية ، وبعد السلام ، يخبره بأنه قد أصبح معروفا لديهم تعيينه لمصطفى أغا كخدوا والى مصر امانة حجاج المسلمين الى بيت الله الحرام وان ذلك هو رأى المواب ، كما يفيدته بأنه لا مانع لديه فى ذلك بتاتا وأن من أراد الحج الى بيت الله فهو آمن من كل المخاوف فما جعلت الكعبة البيت الحرام الا لأداء فريضة الحج كسابق عهدهم . أما عن التجار فيفيده بأنه لا زال لديهم خوف من ممارسة التجارة نظرا لما رأوه سابقا وأنه ان اراد منهم ممارسة تلك التجارة فعليه أن يفعل ما يرضى خواطرهم ويطمئنهم وذلك بمعرفة مقدار ما يأخذونه من العشور على تجارتهم وأموالهم . كما يفيدته بأنه اذا اصدر أمرا بذلك فستعود التجارة الى سابق عهدها . أما ما ذكره نابليون من تعرض البدو للحجاج فلن يحدث ذلك بحول الله ويختمها بالسلام على نابليون .

وهنا يرسل نابليون الى شريف مكة تحت عنوان سلطان مكة ولا نعرف لذلك سببا ، وربما أن رد الشريف قد أبهج نابليون الى الحد الذى جعله يلقب الشريف بالسلطان كما يضمنها اللائحة التى قام بوضعها لجمرك السويس . كما يفيد عن عزمه بتنفيذها بدقة . كما يوضح له بأن تجار الحجاز أنفسهم سيدركون مدى التناقض الذى طرأ على الرسوم الجمركية . وذلك من أجل الصالح العام للتجارة ، كما يطلب منه كل ما يحتاجه من مصر . وسوف يصله فى أسرع وقت . أما الرسالة الخامسة فقد حررها الشريف الى بوسليج Poussulge أحد كبار رجال الاعتماد الذين صاحبوا الحملة والذى أصبح مراقبا لنفقات الجيش كما أمره نابليون بالاشراف على الشؤون المالية ، وتفيد هذه الرسالة أنه قد وصل الى السويس بضائع عبارة عن بن وبهار وفيهها لشريف مكة حوالى خمسمائة فرق^(١) بن ، وكان الانكليز قد منعوهم من الحضور ولكن بعد أن حرر لهم الشريف اطلقوهم بعد أن حددوا لهم أياما ليقوموا بالنقل خلالها ، وأخذوا عليهم ضريبة الا أن الفرنسيين سامحوا الشريف فى العثور لأنه سبق له أن أرسل لهم خطابا وهدية قبل وصول المراكب الى السويس بنحو عشرين يوما^(٢) ، كما يخبره بضرورة تكوين صداقة وتسليك الطرق بينهما . كما يفيد بأنه قد تم شحن خمسة مراكب من جدة الى السويس وأن ذلك لم يكن بالأمر السهل لأن التجار لا زالوا متخوفين كما يطلب منه فى حال وصول البضائع الى السويس أن

(١) الجبرتى ، المصدر السابق ج/٢ ، ص ٢١٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨١ .

الشريف بعد وصوله الى مصر بنحو شهر وهذا يعتبر دليلا كافيا على مدى الأهمية التي يوليها نابليون في اجراء علاقات مع شريف مكة بالاضافة الى المتاعب التي كانت تواجهه نظرا لتحطم اسطوله في موقعة ابو قير (أول اغسطس ١٧٩٨م) ١٢١٢هـ كذلك اشتعال الثورة في عدة مناطق كانت تابعة له اضافة لرغبته في احداث تنظيمات عاجلة لادارة مصر حيث ورد في تلك الرسالة اشعار الشريف بدخول الفرنسيين مصر كما يطمئن الشريف بأنه سيقوم بحماية قافلة الحج الى مكة ، كما يفيدده بأن سائر أملاك الأوقاف التابعة لكل من مكة والمدينة في مصر ستبقى كما كانت في الماضي ، كما يفيدده بأن الفرنسيين اصدقاء للمسلمين ولعقيدة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما يعلمه برغبتهم في خدمة المسلمين وان قافلة الحج لن تتوقف كما أن أحدا من الاعراب لن يتعرض لها (١) . ثم يتبعها نابليون برسالة أخرى بعد تلك الرسالة بيومين فقط من تاريخ تحرير الرسالة الأولى وتتضمن تفصيلات أوسع عن طبيعة العلاقة بين الشريف غالب ونابليون فقد جاء في هذه الرسالة أنه بعد وصول الفرنسيين الى مصر فقد كرس نابليون جهده لرعاية العلماء والاشراف وكل رجال الشريعة ، كما يفيدده بأنه قد عين مصطفى بك كتخدا سيد أبي بكر باشا حاكم القاهرة ، ليقوم بمرافقة الموكب مع قوة تضمن لها الحماية من غارات الاعراب . كما يستحثه بأن يبعث له زده

(١) الجبرتي المصدر السابق ج ٢ ، ص ٢١٤ .

(٢) ... المصدر نفسه ص ٨٠ .

(*) كتخدا ، سبق شرحها .

يأمر بخروج الجيش من قبله للمحافظة على أموال التجار حتى يتمكنوا من بيعها في مصر ، وأن يفعل الشيء نفسه عند عودتهم فان ذلك يعتبر من أهم الأمور التي تؤدي الى عودة التجارة الى سابق عهدها بين الطرفين . وأن ارسال هذه الخمسة مراكب ما هو الا بمثابة تجربة من التجار لمعرفة مدى توفر الأمن وعندها ستعود التجارة الى سابق عهدها . كما يفيد به بأن نابليون قد حرر له عدة رسائل فما كان منها للشريف فقد تم الرد عليه . أما ما كان مطلوباً ارساله الى نواحى الهند عن طريق الشريف فقد تم ارساله كذلك رسالة لابن حيدر^(١) وأخرى لامام مسكت ووكيل الفرنسيين الذى فى المخا^(٢) .

ومن هنا تتضح العلاقة التى كانت بين كل من الشريف وامام مسقط واليمن وغيرها . ثم تبع ذلك ارسال احدى عشرة سفينة الى ميناء السويس بسلام . أما الرسالة السادسة فقد وردت فى مخطوط كتاب افادة الانام ، وقد نقلناها من كتاب الاستاذ احمد السباعى . وقد جاءت على اثر استقرار الفرنسيين فى مصر فكتب قائدهم الأعلى نابليون يعرض على الشريف غالب اجراء بعض الاتفاقات التجارية وينذره اذا حاول^(٣) قطعها ، فكتب اليه الشريف غالب رسالة ضمنها تحياته ومدحه لنابليون ثم يذكر له بأنه قد أرسل الكتب التى ارسلت له ليقوم بايصالها الى اصحابها عن طريقه ، كما يفيد به بأنه قد حرر الى بوسيلك خطاباً ،

(١) السباعى ، المصدر السابق ، ص ١٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .

كما أرسل الى ميناء السويس خمسة سفن ، كما يرجو منه ارسال ما يخص الشريف من البن الذى عليه اسمه ومساعدة التجار وأعوان الشريف بالعساكر حتى يركبوا سفنهم عائدين الى بلادهم ، كما يوضح له الاموال التى يتلقاها الاشراف من العثمانيين فى مصر والتى تصل اليهم بصحبة الحاج مع كاتب الصرة وصيرفها وهى عبارة عن الصرة التركية وثمان شرس وشراشف ومعتاد بنى حسين وبنى تراب وغيرها من الاوقاف ، وما هو مخصص لشريف مكة كانعام من الدولة العثمانية وقد كان تحرير ذلك فى ١٨ ذى القعدة (١) (١٢١٣هـ) . أما الرسالة السابعة فقد كتبت فى ٣٠ يونيه ١٢١٣هـ أى قبل رحيل نابليون من مصر بأقل من شهرين وقد جاء فيها بعد البسملة وعلان شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . ما يفيد بأنه قد استلم خطابه الذى حرره اليه وفهم المقصود منه . كما يفيد بأنه قد أصدر أوامره بحيث يعمل كل ما من شأنه ارضاء الشريف . كما أخبره عن رغبته فى أن يرسل الشريف وتجار الحجاز فى الموسم التالى اعدادا كبيرة من السفن المحملة بالبن وبضائع الهند . وهو بدوره سيكفل الامن لهذه السفن . كما يخبره عن شكره له بقيامه بارسال الخطابات لاصحابها فى الهند وفرنسا ، كما يطلب منه ارسال هذه الرسالة ايضا وأن يرد على نابليون فهو يحمل له الشيء الكثير من الود والمداقة . ثم يأمر نابليون القومندان أن يصرف للشريف مبلغ ٩٤٠٠٠ فرنك لكن يضمن بقاء الصلة بينه وبين الشريف ، أما الرسالة الثانية وقد كتبها مينو الى

(١) السباعى ، المصدر السابق ، ص ٨٧ .

شريف مكة فى ٣٠ نوفمبر عام (١٨٠٠ م) وهى تحمل أيضا البسمة وشهادة
 أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ثم يبدأ فى التملق والمديح
 الكثير للشريف خليفة رسول الله المتصف بالعقل والحكمة والقوة
 الأمير غالب الشريف العظيم على المدينتين المقدستين المالك لأجمل
 منطقة فى شبه جزيرة العرب . ثم يفيدته بأنه قد قام بتعيين قائد عام
 على الجيش الفرنسى المقيم الآن فى مصر بعد اغتيال كليبر^(٢) . كما
 يفيدته بأن نابليون القنصل الأول للجمهورية الفرنسية هو الذى عينه
 وأن له الشرف أن يتعامل مع شريف من الأسرة المقدسة على حسب زعمه .
 ثم يفيدته بأن نابليون قد أمره أن يجدد معه كل موافق الصداقة ، ومن
 ثم يفيدته بأن رعايا الشريف يستطيعون الذهاب الى السويس دون أى خوف
 كما يفيدته بأنه اذا حاول أى جندي فرنسى فى الميناء أخذ أى شىء
 اكثر مما سبق تحديده فسيكون جزاءه الموت ، كما يبلغه أنه كان بوده
 ارسال قافلة الحج وكسوة الكعبة المشرفة الا أن ظروف الحرب قد حالت
 دون ذلك . كما يكرر ثقته فى استمرار تلك الصداقة . كما يضمن رسالته
 قائمة بالتعرفة الجمركية التى نفذها مينو فى سائر انحاء مصر وسيلاحظ
 الشريف انها قد اصبحت اقل قدرا فى السويس مما كانت عليه فى السابق^(٣)
 وقد عرفنا أن بريطانيا قد ارسلت أثر حملة نابليون على مصر الكابتين
 هوم بوفام الى جدة لمقابلة الشريف وعقد معاهدة تجارية معه ، وكذلك

(١) الجبرتي ، المصدر السابق ، ج ٢ / ، ص ٢١٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

الى امام صنعاء لنفس الغرض الا أن هذه المهمة قد باءت بالفشل^(١) كما أن الدولة العثمانية نفسها لم تكن بمعزل عن تلك الاحداث فقد حررت قبل ذلك الى اشراف مكة عن امتعاضها لأن الانكليز قد بدأوا يتدخلون في تجارة البحر الأحمر منذ عام ١١٧٨هـ^(٢) - ١٢٦٤م . كما خشيت حدوث علاقة بين كل من شريف مكة وبين الفرنسيين والانكليز بالتالى . ويأخذ جودت على الشريف غالب عدم محاربته الفرنسيين فيذكر أن الشريف غالب رغم أن الدولة العثمانية أرسلت اليه عند استيلاء بونابرت على مصر يكتب والى كل الولايات أن الشريف غالب قد أسرع بفتح باب المفاوضات مع الفرنسيين^(٣) ، وهو ما ذكرناه سابقا . أما الجبرتي فيذكر أنه عندما استولى الفرنسيون على مصر حزن أهالى الحرمين . حتى أن الشيخ الكيلاني وهو مجاور من مجاورى مكة قام بتأليف كتاب عن الجهاد وعظ فيه الناس ، وأخذ يحض الناس على حرب الفرنسيين ، فاستجاب لدعوته ستمائة من المسلمين الأبطال^(٤) ، سار هو على رأسهم ، وخرج من جدة خلال شهر رجب لمحاربة الفرنسيين وانضم اليه اناس من اهالى ينبع ومن المغاربة . ودخل الصعيد وبدأ فى قتال الفرنسيين ، الا أن جيشه منى بالهزيمة لأن جيشه لم يكن بالجيش النظامى الذى يتحمل مواجهة الجيوش النظامية ، وعلى الرغم من ذلك فقد تكبد الفرنسيون خسائر كبيرة فى عاكرهم سواء فى حروبهم مع مراد بك أو فى هذه المناوشات وتوجهت عاكر الحجاز بعد هزيمتها الى

(١) دى قورى ، المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

(٢) سجلات فاكستورى ، الخليج الفارسى ، ج ٢٥/٢٩ ، ص ٢٢-٢٠ .

(٣) جودت المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٩ .

جرجا وحاربوا الفرنسيين عدة مرات . الا أن نابليون لم يعرهم أى
انتباه لعلمه بقلّة عددهم (١) . وكانت الدولة العثمانية من ناحية
أخرى ما تزال تعمل على تقوية جيشها فى هذه المناطق (٢) . أمّا
الجبرتي فيذكر فى أخبار الشيخ الكيلاني سببا آخر لهزيمته وهو قلّة
عددهم رغم ثبات الحجازيين فى تلك المعارك الا أن حروبهم مع الفرنسيين
كانت دون طائل (٣) .

(*) ويتفق الجبرتي مع جودت أحمد فى أن الشريف غالب لم يعلن الجهاد ضد الفرنسيين وقد رجعت للجبرتي

(١) جودت ، المصدر السابق ج/٧ ، ص ٩

(٢) المصدر نفسه ص ١٢ .

(٣) الجبرتي ، المصدر السابق ، ج/٢ ، ص ٢٥٠ - ٢٥١

الخاتمة

==

لقد تحدثنا فى هذا البحث عن الحالة السياسية فى الحجاز قبل عهد الشريف غالب بن مساعد ثم عن فترة حكم الشريف غالب التى استمرت مدة ستة وعشرين عاما من (١٢٠٢ - ١٢٢٨ هـ) (١٧٨٧ - ١٨١٣ م) . وكانت مناطق نفوذه تشمل كل من مكة ، الطائف ، ينبع ، المدينة ، وجدة التى كان يتقاسم حكمها مع الباشا التركى ، وقد تخرج عن سلطته احيانا فيطلب اعادتها لسلطته مقابل ان يدفع خمسين الف قرش للدولة العثمانية (١) . وقد اتسمت حكومة الشريف غالب بسمات معينة فهو قد اتخذ الطابع التركى فى حكومته فقد جعل له محاكما صغيرة (٢) ، وكان لديه حامل السلاح وموثق الموازيين وحامل الختم وغيره ، وجيش نظامى يقوم بصرف مرتبات له بصورة دورية مع أن عدده لم يكن كبيرا بالاضافة الى وجود جيش آخر غير نظامى . أما القضاء فقد بقى كما كان فى عهد من سبقه من الاشراف خاضعا للرشوة (٣) ، ولم يذكر لنا المؤرخون بأن الشريف قد أحدث تغييرا فيما يتعلق بالقضاء . أما من الناحية الاقتصادية فقد شهدت فترة الشريف غالب ازدهار تجارة البحر الأحمر وكان الشريف غالب يضارب فى هذه التجارة بنفسه . (٤) أما

(١) الوثيقة السابق رقم ٤٥١٩

(٢) بوركارى ، المصدر السابق ص ٢٨٦

(٣) جرونج ، المصدر السابق ، ص ١٥٣

(٤) بوركارى ، المصدر نفسه ، ص ٢٨٥

موارد دولته المالية فقد اعتمدت على ما كان يردها من المرة السنوية وقوافل الحجيج ومكوس التجارة ، اضافة الى الضرائب التى احدثها الشريف غالب والتى عرفت بغريبة وطىء الأرض (١) . فى حين تولت الدولة العثمانية الانفاق على سائر موظفى الشريف من القاضى الى خدم الحرم بل تزويد الشريف حتى بزيت المصابيح (٢) الا أن هذه الفترة كانت من الاهمية بمكان لما عاصرها من الأحداث الداخلية والخارجية الهامة . فقد عاصر الشريف غالب توسع الدولة السعودية الاولى بل ووصولها الى المناطق التى كانت خاضعة لنفوذه وبالتالي الى قيام سلسلة من المعارك الحربية جرت فى اطرافها بلدانا أخرى . وأعقب ذلك طلب الشريف غالب معونة الدولة العثمانية (٣) التى كانت هى نفسها تعاني من مشاكل متعددة مثل ثورة الأقاليم وفساد الجيش وغير ذلك مما يصعب حصره من الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية حتى أن الأخيرة كانت ترى أن يعقد الملح (٤) بين الاثنين خاصة وأن ابن سعود من مقيمي البادية ، ولم يثبت له أى عدوان على الحرمين الشريفين . كما عاصر الشريف غالب قيام محمد على فى حكم مصر وطموحه لضم سائر انحاء الجزيرة لسيطرته ، كما شهدت فترة حكمه نشاط تجارة البحر الأحمر وبالتالي

-
- (١) الوثيقة السابقة .
 - (٢) الوثيقة السابقة .
 - (٣) دحلان ، المصدر السابق ص ٢٨٦ .
 - (٤) الوثيقة السابقة رقم ٧/٤/٢
 - (٥) عبدالرحيم ، المصدر السابق، ج٢ ، ص ٧٧ .

التفات الفرنسيين والانكليز بالتالى الى اهمية اقامة علاقات تجارية واقتصادية مع الدول المطلة عليه أو القريبة منه ، وخاصة جدة لما كانت تتمتع به من ميزة تجارية عظيمة ، فعرض الانكليز اقامة وكالة تجاريه في جده (١) ، كما قامت علاقات حميمة بين كل من الشريف غالب والفرنسيين بعد قيامهم فى حكم مصر . وبقيت هذه العلاقة مع الفرنسيين حسنة حتى بعد عزله عن اماره مكة .

ان الباحث فى تاريخ مكة فى عهد الشريف غالب يجد أن هذه الفترة قد اصطفت بسياسة تختلف عن غيرها من الاقاليم العربية فيها هو الشريف الذى يستمد قوته وسيطرته فى الحجاز من اتصاله بنسب الرسول صلى الله عليه وسلم ومتبعاً اسلوب الأتراك فى الحاكم الا أنه عند تعامله مع شيوخ البادية يتصرف كشيخ قبيلة له المصالح بفنون الصحراء ، كما نلاحظ ان أهم صفة اتصف بها الشريف غالب هى تذبذب شخصيته فهو فى ميدان الحرب قائد للجيش . وفى ميدان التجارة مضارب من الطراز الأول . بل كان يحتكر السوق لمصالحه ويستدين من التجار (٢) . يحارب ابن سعود ثم يعقد الصلح معه ويراسل المصريين سرا . وعندما يعلم بمجىء جيوش محمد على من مصر ووصولها الحجاز يتراجع ويهول الأمر على محمد على وصعوبة الحصول على الجمال لنقل الموءن . وكأنى به يود لو أن محمد على عاد من حيث أتى ولات ساعة مندم . حتى ليثاور الشك نفس محمد على من الشريف غالب ويوءكد

(١) الوثائق السابقة رقم ٨٩١

(٢) الوثائق نفسها .

ضرورة عزلة ، كما منع مراكب الانكليز من الاقتراب من جده الا انه يعد ان يظهر
له مدى شعفه امام قوة الدولة السعودية الاولى لم يلبث ان عاد اليهم طالبا
المعونة . الا ان محاولاته باءت بالفشل . (١)

(١) الوثائق نفسها .

أولا : المخطوطات :

- ١- العثماني ، غازي علي : فضل مكة (مخطوط تحت رقم ١٦٧٤ - بدون تاريخ)
- ٢- الفارسي ، ابن الطيب الحسني : الاشراف على نسب الاقطاب الاربعة الاشراف -
(مخطوط المتحف البريطاني) مأخوذ من كتاب قديم جدا .
- ٣- الفاسي ، محمد بن احمد : تاريخ مكة (مخطوط - المتحف البريطاني - برقم
ب - ب ١٤٥٥٤) .
- ٤- عبد الشكور ، عبدالله بن محمد : اشراف وامراء مكة (مخطوط مصور مكتبة
جامعة الرياض) تحت رقم ٤٣ .
- ٥- غازي ، عبدالله ، افادة الانام بذكر اخبار البلد الحرام (مخطوط ومصور
بجامعة الملك سعود برقم ٧٨٢ بتاريخ تصويره ١٣٩٧/٧/٦ هـ)

ثانياً : الوثائق المترجمة

أما الوثائق التي تعالج هذا البحث والموجودة في دارة الملك عبدالعزيز بالرياض فهذه تنقسم الى وثائق سياسية مثل :

- (١) وثيقة رقم ٧٥٦ ضمن مجموعة الوثائق التركية وهي عبارة عن تقرير أحوال مكة والمدينة وينبع وجده في ظل الحكم السعودي .
- (٢) وثيقة رقم ١٩١٦٦ من مجموعة الوثائق التركية وهي عبارة عن خطاب مفصل من والى مصر الى السلطان العثماني في اسطنبول يفيد بأنه قد تمت إعادة سائر أموال واملاك الشريف غالب اليه ، كما يوضح له سبب عدم نقل حريم الشريف غالب من مكة الى مصر بواسطة سفن محمد علي .
- (٣) وثيقة رقم ٤/٢ - ٧ وهي تفيد بوقوع الاشتباك بين كل من الدولة السعودية الأولى والشريف غالب ورغبة الدولة العثمانية في أن يعقد الملح بين الطرفين لأنه لا يحق وقوع حرب بين الطرفين .
- (٤) وثيقة رقم ٤٥١٩ وهي عبارة عن طلب الشريف غالب ايالة جده مقابل أن يدفع خمسين ألف قرش ضمن مجموعة الوثائق التركية- دارة الملك عبدالعزيز بالرياض .

- (٥) وثيقة رقم ١٩٦٨٤ ضمن مجموعة الوثائق التركية وهي تناقش أسباب عزل الشريف غالب بن مساعد عن امانة مكة .
- (٦) وثيقة رقم ٥/٢/١ وهي ضمن الوثائق السياسية اذ تحدد مقدار مايتسلمه القاضي في المدينة من دخل ميناء جدة .
- (٧) وثيقة رقم ٢/١ - ١ وهي عبارة عن شكوى قاضي المدينة المنورة من مثيري الفتن ورأي المصدر الأعظم في ذلك .
- (٨) وثيقة رقم ٤٥١٩ وهي عبارة عن تحريرات من الشريف غالب حول أخبار الحجاز وعلاقة الأمير عبدالعزيز بوالي بغداد ومطالبة الشريف بايالة جدة وكيفية صرف رواتب الموظفين في الدولة .
- (٩) وثيقة رقم ٣٧٩٣ وهي توضح أحوال مكة والمدينة وجدة في مواجهتها للأمير سعود ابن عبدالعزيز ووثيقة رقم ٣٧٥٦ في ١٢١٩ هـ .
- (١٠) وثيقة رقم ٤٣١٣ حول نقل بعض أشياء من الروضة المطهرة وبيعها .
- (١١) وثيقة رقم ٤٣٣٨ من قبل محافظ المدينة يوسف باشا عن أمور متعددة .
- (١٢) وثيقة رقم ٣٧٨٩ عن دخول السعوديين مكة وفرار الشريف الى بساتين جدة . أما الوثائق الاقتصادية فهي :
- (١٣) وثيقة رقم ٨٧٢٥ ضمن مجموعة الوثائق التركية وهي تفيد عن عدم موافقة والي مصر على الالتماس المقدم من الشريف غالب شريف مكة بخصوص طلب اعفاء ستمائة غرارة من البن "تابعة للشريف" من الجمارك أي من دفع الرسوم في ميناء مصر .

- ١١- البطريق ، عبد الحميد بحث محمد على ومشروع غزو العراق ، (مجلة كلية الاداب ، الجامعة الاردنية ، العدد الاول كانون الثانى ١٩٦٩) .
- ١٢- الجاسر ، حمد ، المعجم الجغرافى للبلاد السعودية القسم ١ ، ٢ (منشورات دار اليمامة ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ١٣٩٧ ، ١٩٧٧) .
- ١٣- الجبرتى ، عبد الرحمن ، تاريخ عجائب الاثار في التراجم والاخبار ، (القاهرة ١٩٦٧ - ١٣٨٦ هـ) .
- ١٤- جريدة الجزيرة ، العدد ١٢٠٣٠٧٨ ربيع الاول ١٤٠١هـ يناير ١٩٨١م بحث مقدم من ٢٩ طالبا بجامعة الملك سعود .
- ١٥- الحصرى ، ساطع : البلاد العربية والدولة العثمانية (طبعة موسعة الطبعة الثالثة ١٩٦٥) .
- ١٦- الحموى ياقوت ، شهاب الدين ابى عبدالله ، معجم البلدان (المجلد الخامس دار صادر - بيروت - ١٣٩٧ ، ١٩٧٧م) .
- ١٧- الريحانى ، امين : نجد وملحقاته (مؤسسة دار الريحانى - ش م ل - بيروت لبنان ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢م) .
- ١٨- رفعت ، ابراهيم ، مرآة الحرمين (القاهرة ١٣٤٤ - ١٩٢٥) .
- ١٩- الزركلى ، خير الدين : الاعلام - الطبعة الخامسة ٨ اجزاء (بيروت ، ١٩٨٠م) .
- ٢٠- السباعى ، احمد السباعى : تاريخ مکه ج ١ ، ٢ (مكتبة دار قریش ، مکه ١٣٨٩) .
- ٢١- السخاوى : شمس الدين : التحفة اللطيفة في اخبار المدينة الشريفة ، (القاهرة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩) .

- ٢٢- السلطان ، على بن حسين ، العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك (رسالة ماجستير قدمت الى جامعة القاهرة ١٣٩٣هـ) .
- ٢٣- الشريف ، احمد ابراهيم : مكة والمدينة في الجاهلية والاسلام (دار الفكر العربى ، القاهرة ، بدون تاريخ) .
- ٢٤- شكرى ، محمد فؤاد ، مصر في مطلع القرن التاسع عشر ج ٣ / ٣ (القاهرة ، ١٩٥٨) .
- ٢٥- المصفاى ، مرسى ، مجلة الدارة مقال بعنوان الولايات العربية في العهد العثمانى (العدد ٤١ السنة الثامنة) .
- ٢٦- الصقرى ، صالح بن حمد ، العلاقة السياسية لاشراف مكة بنجد في النصف الاول من القرن الثالث عشر الهجرى - رسالة ماجستير قدمت الى جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية سنة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م) .
- ٢٧- الاصطخرى ، ابو اسحاق ابراهيم بن محمد ، مسالك الممالك (مطبعة لندن ١٩٣٧) .
- ٢٨- العامودى ، محمد سعيد : من تاريخنا (الدار السعودية للنشر ١٣٨٧ ، ١٩٦٧م جده .
- ٢٩- آ- عبد الرحيم ، عبد الرحمن عبد الرحيم ، محمد على وشبه الجزيرة العربية (دار الكتاب الجامعى ، القاهرة ج ٢) .

ب - الدولة السعودية الاولى ، جامعة الدول العربية ، مركز — ز
البحوث ط / ٢ (القاهرة ١٩٧٦) .

٢٩ - العجلاني ، د . منير : تاريخ البلاد العربية والدولة السعودية

الاولى (دار الكاتب العربى ، بدون تاريخ) .

٣٠ - الماوردى ، ابن الحسن على بن محمد بن حبيب ، (الاحكام السلطانية

المكتبة التوفيقية ، القاهرة ١٩٧٨) .

٣١ - نصيف ، حسين محمد ، ماضى الحجاز وحاضره (ط ١ ، مطبعة خضير ، مصر —

١٣٤٩ هـ) .

٣٢ - السنهر والى ، قطب الدين محمد بن احمد : ٩١٧ - ٩٩٠ هـ ، (الاعلام باعلام

بيت الله الحرام ، ج ٣ ، اخبار مكة المشرفة (مكتبة خياط شارع بلـس

بيروت) .

٣٣ - حافظ ، اسماعيل احمد اسماعيل ، اسماء مكة المكرمة (مجلة الدارة

العدد الرابع محرم ١٣٩٩ ديسمبر ١٩٧٨) .

٣٤ - حتى ، فيليب : تاريخ العرب ، (الطبعة الثالثة ، الدكتور ادوارد جرجى ،

جبرائيل صمود - الناشر ، دار غندور للطباعة والنشر ، بيروت

١٩٦١ م) .

- ٣٥- حمزه - فؤاد قلب جزيرة العرب . المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٥٢
- ٣٦- دحلان ، احمد زيني : خلاصة الكلام في بيان امراء البلد الحرام . المطبعة الخيرية - مصر ١٣٠٥ هـ .
- ٣٧- رافق ، عبد الكريم : العرب والعثمانيون دمشق ١٩٧٤م
- ٣٨- رضوان ، نبيل عبد الحى ، (الدولة العثمانية وغربى الجزيرة العربية ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م - جده ، المملكة العربية السعودية) .
- ٣٩- رفعت ، اللواء ابراهيم رفعت باشا : مرآة الحرمين الحديث دار الكتب المصرية - ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٥م .
- ٤٠- زيدان - جرجى ، العرب قبل الاسلام ، بيروت بدون تاريخ .
- ٤١- العصامى ، عبد الملك ، بن حسين بن عبد الملك : سمط النجوم العوالى في انباء الاوائل والتوالى ، ١٠٤٩ - ١١١١ ، ج ٤ : المطبعة السلفية ومكتبتها ٢١ ش الفتح بالروضة ، ١٩٧٩م .
- ٤٢- على ، د . جواد : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٤ . بيروت ١٩٦٨م
- ٤٣- عنانى ، محمد زكريا ، مراسلات متبادلة بين الشريف ونابليون مجلة الدارة العدد ٣ ، السنة السادسة
- ٤٤- وهبه ، حافظ : جزيرة العرب في القرن العشرين ، الطبعة الخامسة ، لجنة الترجمة والتأليف والنشر ، القاهرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م .

- A 1. Burckhardt, John Lew- Travels in Arabia, London, Henry Colburn, New Burlington Street, 1829.
- B 1. Burckhardt, John Lewis - Notes on the Bedouins and Wahabs, Vol. 2, Henry Colburn and Richard Bentley, New Burlington Street, London, 19
2. Colonel Murry, Mokha, L. Expedition Egypt, Paris 1798 - 1801.
3. De Gaury, Gerald - Rulers of Mecca, George G. Harrap & Co. Ltd., 182 High Holborn, London W.C.1., 1951.
4. Doughty, Charles M. - Travels in Arabia Deserta, Vol. 2, Dover, New York 1979
5. Hurgronje, C. Snouck - Mecca in the Latter Part of the 19th Century translated by J.H. Monahan Leyden, Luzac & Co. London 1931 .
6. Herold S. Christopher Bonaparte in Egypt, London, 1963.
7. a. Hogarth, David George - Hejaz Before World War I, 2nd edition, 1971, Falcon - Oleander, London .
- b. Arabia - Oxford 1922, London.
8. Irwin, E. Voyage Up the Red Sea, London 1780.
9. Thorn - John Ahistory of England, Locker Roger, London 1964.
10. Valentia, George Viscount Travels in India, Ceylon, the Red Sea London 1809.
11. Zeine, N. Zeine, M.A. Ph. D. (London) - Arab - Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalizm, Published by Khayat's, Beirut, Lebanon, 1958.

ب -

- ١- بروكلمان كارل - تاريخ الشعوب الاسلاميه نقله الى العربيه نبيه امين
فارس ، منير بعلبكي ط ٥ / ، بيروت ، ١٩٦٨ م .
- ٢- بلدوين ، جورج ، الثورة العربية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٤٥ تعريب مدحت خيرى المقدسى
- ٣- بيرين ، جاكليين ، اكتشاف جزيرة العرب ترجمة قدرى قلجى بيروت ١٩٦٥ م .
- ٤- جوان ، ادوار مصر ، في القرن التاسع عشر تعريب محمد مسعود طبع
القاهرة ، بدون تاريخ .
- ٦- جودت ، تاريخ جودت طبع في اسطنبول ، طبعتين الاولى ١٨٥٦ - ١٨٨٥ ، الثانية
١٨٨٥ - ١٨٨٧ .
- ٧- فيلبى ، عبدالله ، تاريخ نجد ، تعريب عمر الديراوى ، المكتبة الاهلية
بيروت ، بدون تاريخ .
- ٨- ميشان نبوا عبد العزيز آل سعود ، سيرة بطل ومولد مملكة ، دار الكتاب
العربى ، بيروت ، لا يوجد تاريخ الطبع ، مترجمه باللغة العربية .

رابعاً : الوثائق الأجنبية :

الوثائق الأجنبية وهي تنقسم الى وثائق سياسية واقتصادية -

الوثائق السياسية :

- (١) تقرير فى ١٥ أغسطس ١٧٩٠م صفحة ١٨٢ ج ٨٩١ .
- (٢) فاكثورى ريكورد مصر ، والبحر الأحمر ج ٦ رلك ٣٩٣
- (٣) فاكثورى ريكورد مصر ، والبحر الأحمر ج ٦ فى ١٧٨٧
- (٤) مارين ميسولن ج ٨٩١ تقرير من ١٥/٧/١٧٩٠م
- (٥) مصر والبحر الأحمر ج ٦ صفحة ٤٥ - ٦٠ يوليو ١٨٠١ .
- (٦) تقارير المعتمد البريطانى فى البصرة فى ١٥/٨/١٧٩٠
- (٧) تقرير عن مصر والبحر الأحمر فى ١٧٧٦ ج ٥ ، صفحة ١٦
- (٨) فالنشيا ج ٣ صفحة ٣٣١ حول امتلاك الشريف غالب لسفن كبيرة فى نهاية القرن الثامن عشر والتي كانت تتاجر مع الهند وكانت لها علاقات مع سفن أخرى كالسفن الفرنسية .
- (٩) تقارير هوم بوفام ج ٦ صفحة ٣٠٠ - ٣٠١ .
- (١٠) مكتب سجلات الهند - جنرال بيردومارين مسين ج ٨٩١ صفحة ١٨٨ المعتمد البريطانى ١٧٩٠م .
- (١١) ادميرال بلانكت الى المعتمد فى البصرة ج ٦ صفحة ٥٠٨ فى ١٧٩٩ حول مصر والبحر الأحمر .
- (١٢) لاجونقير ج ٣ صفحة ٢٠٦ حول الأساطيل الفرنسية
- (١٣) هوم - مارين ج ٤٧٤ صفحة ١٠٨ - ١١٢ بلانده ، جدة فى ٣٠/٦/١٨٠٠ .

تابع وثائق سياسية :

(١٤) مهدي على خان الى بلانكت ج ٦ صفحة ١٠٤ - ١٠٥ الى الجنرال بليارد

في ١٨٠١/٦/١٠ .

(١٥) مصر والبحر الأحمر ج ٦ صفحة ١٣٢ - ٣

طلب شريف مكة المساعدة من السفن الانجليزية ضد الدولة السعودية

الأولى .

(١٦) مخا ج ١٧١٠ - ١٨٢٩ - ه - م ج ٤٧٧ ٢٢٦ حول المداقات الحميمة

مع الشريف غالب والفرنسيين .

(١٧) هيرولد صفحة ٢٦٥ حول قيام سفينة للشريف غالب ينقل أموال بعض التجار

الهنود دون أن يتعرض لها الفرنسيون بعد عزل الشريف غالب في ١٨١٠م .

وثائق اقتصادية وهي كالتالي :

سجلات ماريين :

(١) وثيقة رقم ٨٩١ وهي حول تجارة البحر الأحمر

(٢) وثيقة رقم ٢ وهي حول تجارة البحر الأحمر

(٣) " " " " " ١٧٩ " " (٣)

(٤) " " ٤ ه ل ميناء الحديد ومخا

(٥) " " ١٨٣ ه ل الاقتصاد في هذه المنطقة (أي منطقة البحر الأحمر)

(٦) " " ١٨٩ ه ل القوارب الفرنسية

(٧) الى السيد بوفام ج ٦ صفحة ٨٩ من حكومة الهند الى السيد بوفام حول

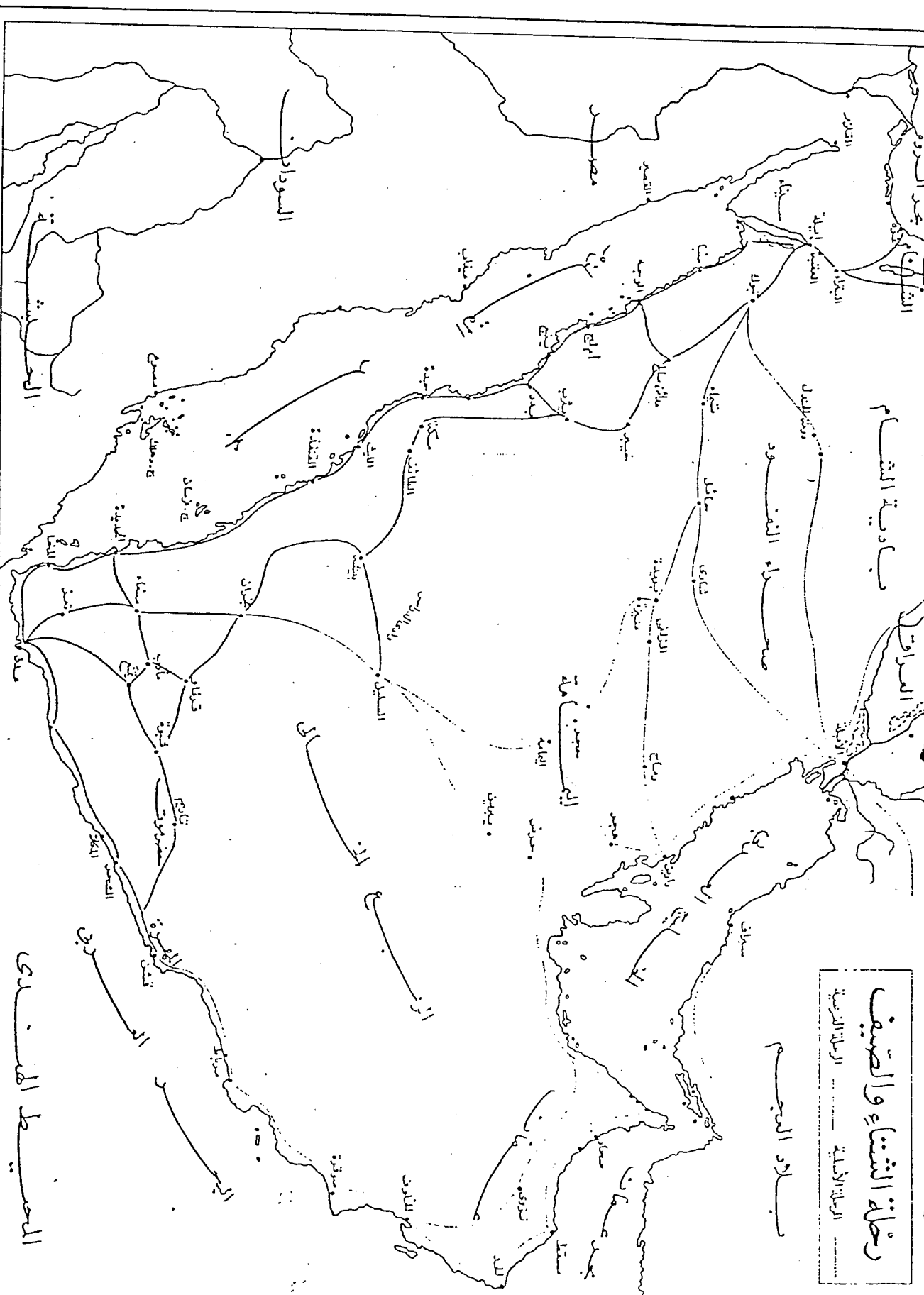
المتاجرة في البحر الأحمر .

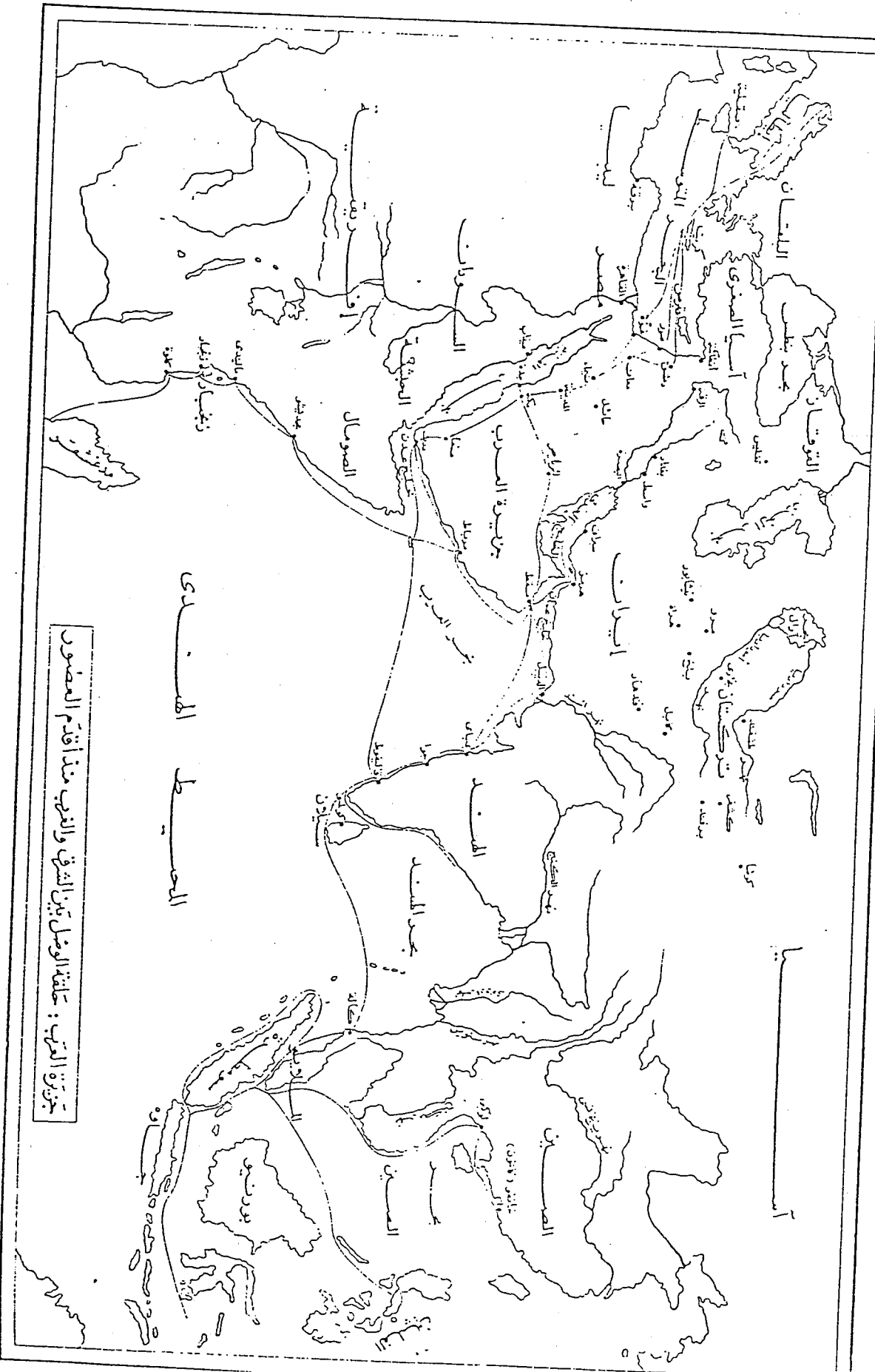
(٨) هوم وماسين ج ٤٧٦ صفحة ٣٤٩ في أبريل / ١٨٠١ .

سبيل مدينة المنشاء

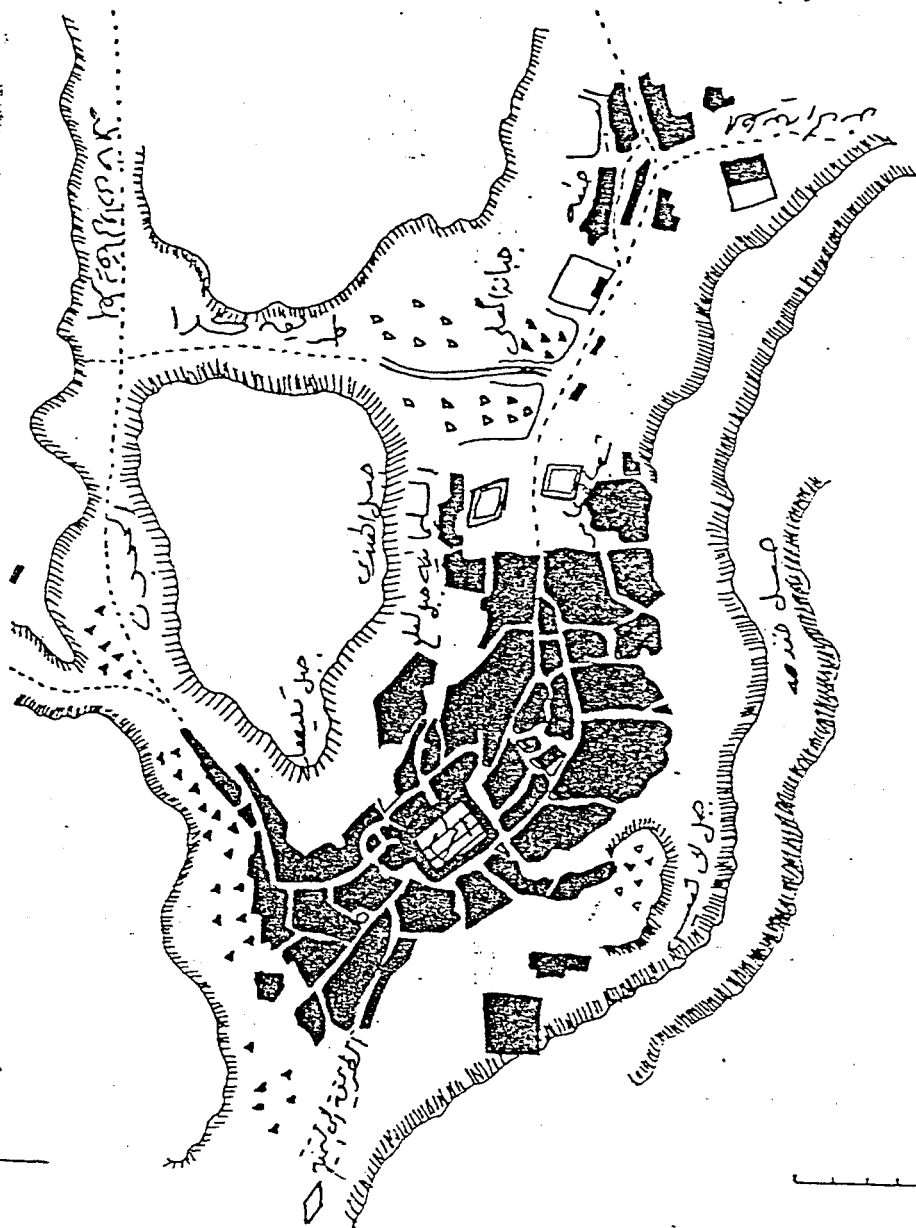
رحلة الشتاء والصيف
الطريق الأولى - - - - -
الطريق الثانية - - - - -

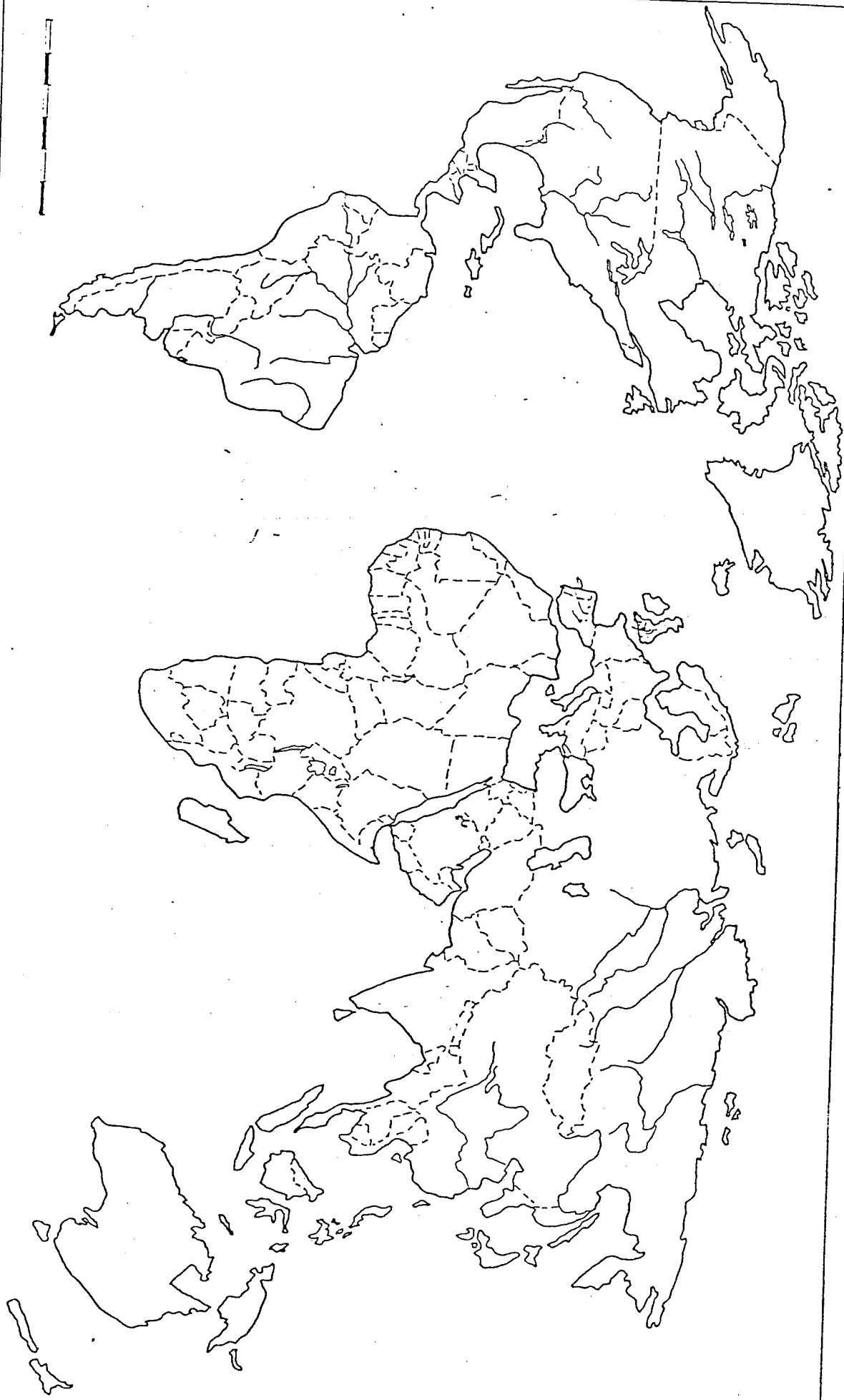
سبيل المنشاء





خريطة مكة المكرمة





١٠
مناطق الحمية الحضرانية الوطنية المرسية

